رواية

# أوتيزم

# A.U.T.I.S.M

رامي أحمد

جروب ربيع الكتب
2016 / 3 / 13

الطبعة ٢

إبداع

fb.com/groups/exchange.book

أوتيزم

fb.com/groups/exchange.book

fb.com/groups/exchange.book

# إهداء

أُهدي كل حروف هذا العمل بكل امتنان إلى أبي وأمي .. كل الشكر لكما

إلى شقيقي: شادي أحمد مصطفى، وشقيقتي: ياسمين أحمد مصطفى ..

وإلى قطعتي السكر في حياتي .. نور وروان ..

وكل الشكر والتقدير والحب لكم أصدقائي:

شريف عبد الهادي، محمد رأفت، أحمد النجار، جهاد فؤاد أبو زيد، حسام الدين مصطفى، مصطفى محمود عبد الصادق، دعاء الأسود، كريم أودين، رانيا سمير وشاحي، مصطفى هاشم عتمان، أحمد جلال، وائل مراد، محمد هشام لصوي، يحيى دوير.

إهداء لأصحاب الفضل في إبقاء الأمل .. إلى جزء في روحي لم يصبه العطب بعد .. الى أخوتي وأساتذتي:

أحمد عبد العزيز سلام، إيمان شوشة، شيماء عبد الصبور، أحمد عمرو سعودي، محمد سالم، سارة الخشن، هديل سرحان.


fb.com/groups/exchange.book

تنتهي الأوراق و الشكر لا ينتهي .. أعتذر عن أي اسم أسقطه خطأً قلمي ولم يسقطه أبداً قلبي ..

شكراً لكم ..

ولها ..

لتلك التي أعطتني الحق في حب أول لم يزل بعد الرحيل ..

كل الشكر ..

و الحب ..

المؤلف: رامي أحمد

fb.com/groups/exchange.book

# مقدمة

يقول الأصمعي:

بينما كنتُ أسير في البادية، إذْ مررتُ بحجرٍ مكتوبٍ عليه هذا البيت:

أيا معشر العُشّاق بالله خبّروا، إذا حلّ عشقٌ بالفتى كيف يصنعُ؟

فكتبتُ تحته البيت التالي:

يُداري هواه ثم يكتُم سره، ويخشع في كلّ الأمور ويخضعُ.

يقول:

ثمّ عدتُ لي اليوم التالي، فوجدت مكتوبًا تحته هذا البيت:

وكيف يداري والهوى قاتلُ الفتى، وفي كلّ يومٍ قلبه يتقطّع؟

فكتبتُ تحته البيت التالي:

إذا لم يجد الفتى صبرًا لكتمان سرّه، فليس له شيءٌ سوى الموت ينفعُ.


fb.com/groups/exchange.book

يقول الأصمعي:

فعدتُ في اليوم الثالث، فوجدتُ شابًا ملقًى تحت الحجر ميتًا، ومكتوب تحته هذان البيتان:

سمعنا أطعنا ثم مِتنا فبلِّغوا، سلامي إلى مَن كان بالوصل يمنعُ

هنيئًا لأرباب النعيم نعيمهم، وللعاشق المسكين ما يتجرعُ

fb.com/groups/exchange.book

# الفصل الأول

fb.com/groups/exchange.book

fb.com/groups/exchange.book

ها أنتَ ذا أيُّها الطيْر المحلّق، تخطو أولى خطواتِك الحمقاء بكامل إرادتك نحو قفصِك الجديد الرائع الذي صنعتَه لنفسك، ملَّ عينيْك بتلك الابتسامة الساحرة في مرآتك أيُّها الوسيم، كُنْ في أفضل حالاتك بتسريحة الشعر الرائعة، وعدِّل مِن وضع ربطة العنق المتوائمة مع الحلّة الفاخرة التي أَضْفَتْ إليك سحرًا مُضاعفًا فوق سِحرك. استنشقْ العطر المُنبعِث من بين طيّات الملابس، وتأكّدْ أنّ كلّ شيءٍ على ما يرام؛ فالحشود تنتظر في الأسفل لاستقبالك، نجم الحفل، إنّه أنتَ، كُنْ على ثقةٍ، أنتَ رائعٌ دون شكٍّ.

حدّثتُ نفسي بذلك من أمام مرآتي في المنزل، وأنا أضع اللمسات الأخيرة أمامها استعدادًا للخروج. بقي مِن الزمن ساعةٌ ونصفٌ فقط، قبل أنْ تنتقل تلك الحلقة المستديرة في يدي مِن يمناي إلى اليسرى، هو يوم زفافي المنتظر، قليلٌ مِن الوقت وأُمسي محطَّ أنظار الجميع في قاعةٍ ممتلئةٍ بالمدعوّين. سيحسُدني بعضهم مِمّن لم تسبقْ له التجربة، وسيتحسّر على حريتي الكثير، ستبكي أمي وتخبرني بأنّها دموع الفرحة، وسيتغامز الأصدقاء


fb.com/groups/exchange.book

حول ما أدركه جيدًا، أمّا أنا، فسأستمتع حقًا بكلّ ما يدور.

ربّما يتملّكني الآن شعورُ مَن سرقته السّكين أو تعجّل بعض الشيء، يُخامِرُني ذلك الإحساس المُقلِق بأنّ هناك المزيد من الأشياء التي لم أجرّبها كانت تحتاج إلى مساحةٍ أكبر من العزوبية. كلُّ هذا طبيعيٌّ، أخبَروني أنّ ذات الشعور تملّك من جميع السابقين.

هبطتُ درجات السلم بتؤدةٍ وهدوءٍ، أعدُّ الدرجة تلو الأخرى، أخطو نحو المَخرج مُتخيّلاً نفسي كنجمٍ من نجوم السينما العالمية تنتظر الكاميرات لحظة خروجه بلهفةٍ، أرمق ببصري الحذاء اللامع مُطمئنًّا على حاله، وأُتمتمُ المعوذتيْن بصوتٍ هامسٍ كما أكّدتْ عليّ والدتي درءًا للحسد، وإنْ كان بشكلٍ أكبرَ لتنظيم أنفاسي التي باتت مرتبكةً بشكلٍ واضحٍ وأنا أقترب من مخرج البناية مُحاوِلاً التخلُّص من ذلك الخجل الموروث في داخلي النابع من إحساسي بأنّ هناك دومًا مَن يُراقبني.

هناك بصحبتي منذ الصغر تلك العيون التي لا وجود لها، سوى في مخيّلتي أنا فقط، تتأمّل تفاصيلي بمنتهى الفضول، مصوّبةً نحو تلك الثغرة التي سهوتُ عنها في الغالب، مُعقّدٌ، قليلُ الثقة بنفسي، هكذا يقول بعضهم. على كلّ حالٍ أتستّر على ذلك بأسلوبٍ لبقٍ خاصٍّ؛ أتعامل مع الجميع به، تخطّيتُ المدخل إلى خارج العمارة.

أين أضواء الفلاشات التي انطلقت؟ أين ذلك الهتاف الحارّ والتصفيق الحادّ

fb.com/groups/exchange.book

المُنادي باسمي؟ تنفَّستُ الصعداء، وأنا أدرك، لا شيء! هي فقط تلك السيارة السوداء الفاخرة التي استأجرها لي صديقي الواقف إلى جوارها بحلّته الكحلية، بعد أنْ زيَّنها بتلك الورود البيضاء مُتطلِّعًا في ساعته قبل أنْ يلمحني فيلوِّح بيده نحوي مُفتعِلاً دور الحشود الغفيرة وهو يقول:

- الله الله الله! أهو كدا العرسان وللا بلاش.

كدتُ أرفع له يدي بتحية الزعماء، وأنا أبتسم بخجلٍ قبل أنْ أدرك فداحة ما سأفعل أمام عيوني الخفيّة التي حدثتُكم عنها، فاكتفيتُ بالابتسامة وأنا أوسّع مِن خطواتي مُتّجهًا نحوه قبل أنْ تلتهمني العيون، قائلاً وأنا أفتح باب السيارة إلى جواره، وألقي بجسدي مع كلّ اضطرابي داخلها:

- معلش يا حسام، اتأخرت عليك. كنت بظبط نفسي بس، والتليفون مسكتش، بقى أنت فاهم، العيلة كلها تقريبًا بتتصل النهاردة تأكد على المعاد وعنوان القاعة.

إلى جواري أمام عجلة القيادة جلس حسام، زميل العمل الذي يصغرني سنًا ورتبةً، غامزًا بعينه، قال وهو يتحرّك بالسيارة منطلقًا في طريقه:

- ولا يهمك، لا بس بقولك أيه يا عم أيمن؟! أنت شكلك النهاردة باشا.

أشحتُ بوجهي مُبديًا عدم الاكتراث، وقد أطربتني المجاملة متمتمًا:

- على أيه بس يا عم؟ دي أقل حاجة.


fb.com/groups/exchange.book

أطلق ضحكةً قصيرةً، وهو يقول:

- ماشي يا برنس، معلش اسمحلي النهاردة في الفرح أوجّب معاك، أنت آه رئيسي في الشغل، بس متحرمنيش من حقي ده في يوم فرحك، وكدا كدا كمان شهر على ما تكون رجعت من شهر العسل هتبقى نسيت.

التفتُّ نحوه قائلاً بلهجةٍ فشلتُ في أنْ تخرج صارمةً مع تلك الابتسامة الواسعة التي ارتسمت على وجهي:

- بس يا زبالة!

جاوبني صوت قهقهته وهو يحاول التركيز في الطريق أمامه، بينما أعاود أنا الإبحار بين خواطري التي أخرجني منها بعد لحظاتٍ، مستطردًا:

- بس عارف يا أيمن بيه؟ اللي يشوفك النهاردة وأنت وشّك منور وهادي كدا، مكانش يشوفك الأسبوعين تلاتة اللي فاتوا، شتان الفارق.

كان الموضوع الذي أثاره بالنسبة لي فرصةً لا بأس بها للخروج من تفكيري فيما أنا مُقبلٌ عليه، فالتقطتُها مِن بين شفتيه كقشةٍ تعلّقتُ بها مُغمغمًا:

- أنت بتقول فيها؟ يـاااااااه يا أخي، دي كانت من أغرب القضايا اللي قابلتني. تصدق بإيه؟ أنا مكنتش بنام، مانت كنت معايا وشايف.

هزّ حسام رأسه مؤيدًا وهو يقول:

- معاك، هيا فعلاً مكانتش سهلة، أنا عايز أقولك إني لحد دلوقتي مش

fb.com/groups/exchange.book

مستوعب، كنت فاكر إنّ القصص دي بتحصل في الأفلام بس، مش معقول العقد النفسية والطمع يوصلوا البني آدمين لكده.

ثم صمت وهلةً، أطلق خلالها زفيرًا طويلاً قبل أنْ يُتابِع:

- طب أنت عارف؟ أنا لحد الآخر كان جوايا حاجة مش عايزة تصدق إنّ هوا دا فعلاً الجاني، كنت حاسس إنّ واحد زيه خد كل الفرص من عطف ورعاية واهتمام وسط الناس دول عشان يبقى بني آدم، وكنت شايف إنه مستحيل أبدًا يكون هو ده رده للجميل، بصراحة استكترتها أوي عليه الحيوانية دي.

مططتُ شفتيّ وأنا أراقب الطريق عبر نافذتي الجانبية، التي أغلقتُها حرصًا على تسريحتي قائلاً:

- عادي يا حسام، أنا فاهم وجهه نظرك، وبعدين هوا فعلاً كان آخر شخص ممكن يتحط ضمن التوقعات، لدرجة إنّ بسهولة غيره كان هيتلف حبل المشنقة حوالين رقبته، بس هقولك، اللي عمل كدا مرة عادي يعملها التانية، وبعدي..

قطعتُ جملتي هذه المرة بنفسي، دون أنْ يكون هو السبب، لقد وصلنا، ها هي ذي الحشود التي حدثتُكم عنها؛ وفدٌ مِن عائلتي وأصدقائي جعلتْ منهم الصدفة أوّل المُستقبلين. توقّفت السيارة بينهم، وهبطتُ منها عنوةً بفعل أيادٍ تجاذبتني وتلقّفتني بوابلٍ مِن القُبلات انهالت مِن كلّ صوبٍ مع التهاني بكلّ أشكالها مِن أحضانَ وزغاريدَ وكلماتٍ مكررةٍ على غرار: «يا


fb.com/groups/exchange.book

عريس، يا بختها بيك، قمر ما شاء الله عليك يا أخواتي، وعملتها أخيرًا يابن الأيه؟؟»، وما إلى ذلك، ودونه مِمّا لا يمكن ذكرُه على أوراق كتابٍ تسمح به الرقابة.

ومِن وسط كلّ هذا، امتدّتْ تلك اليد المألوفة ضئيلة الحجم تجذبني إلى خارج تلك الدائرة قبل أنْ تقول صاحبتها بلهجةٍ آمرةٍ اعتدْتُ عليها منها:

- أنت مش هتبطل مواعيدك الزبالة دي يا أيمن؟؟

أجبتُ بحرجٍ وأنا أتأمّل نفسي تأكيدًا على أنّ كلّ شيءٍ مازال كما يرام:

- معلش يا أمي، على بال ما لبست بس وحسام جه ياخدني.

تأفّفَتْ بضيقٍ وهي مستمرّةٌ في جذْبي مِن يدي نحو الداخل قائلةً:

- وأنت مفيش ساعة في أيدك تبص فيها؟؟

كنّا قد عبرنا سويًا مَدخل الفندق الذي يحوي قاعة الحفل، فتوقفَتْ للحظةٍ ثم التفتَتْ إليّ مُتطلِعةً في وجهي بتلك النظرة ذات العيون اللامعة، يبدو أنّها لحظة بكاء الأمّ التي حدثتُكم عنها، ماذا؟ أيضًا هذه المرة، لا شيء، فقط مكتفيةً بتلك العيون اللامعة، ربّتتْ على وجنتي مبتسمةً وهي تقول بحنانٍ:

- والله وبقيت عريس يا أيمن.

هممتُ في رسم تلك النظرة المتأثّرة على وجهي مُحاولاً إضفاء الجوّ المناسب لتلك اللحظة الإنسانية التي قطعتْها هي قبل أنْ أُكمِلَها وهي


fb.com/groups/exchange.book

تدفعني في كتفي بقوةٍ وقد تبدّلتْ ملامحُها مرةً أخرى عودةً إلى الجدّية قائلةً:

- يلا يا سيدي مفيش وقت، أنت لسه هتتنحنح لي؟ انزل يلا بسرعة الحق خطيبتك في الدور اللي تحت، الكوافيرة زمانها خلصت، والمصوراتي مستني هياخدلكوا كام صورة في السريع عشان تدخلوا القاعة كمان ساعة إلا تلت. خالاتك وصلوا من بدري ومش عايزة أطول عليهم، طريق مرواحهم بعيد، أنت عارف، وبعدين مش عايزة الأرشانة مرات أبوك اللي أكيد هيبلينا بيها معاه تعمل حركاتها وللا تفتح بقها وتقول متأخرين، متنيلين، الكلام البايخ بتاعها ده، عشان متجننش وأبوظلك الفرح، يلا إنجز.

قالتها ودفعتني مرةً أخرى فانطلقتُ في طريقي المعروف، العروسة المتألّقة بدورها، بعض الصور المُملّة؛ نستلقي أرضًا بجوار بعضنا بعضًا، ثم أجلس أنا وتقف هي خلفي بعد أنْ افترشتْ الأرض بفستانها ممسكةً باقة الورود المنتقاة بعنايةٍ، منحنيًا أنا أمامها بخضوعٍ مفتعلٍ، أجبرني عليه المصور الذي كدتُ مع توتُّري ألطمه محطّمًا صفُّ أسنانه الأمامية لولا اعترافي بمبدأ: «إدّي العيش لخبّازه».

هل انتهينا الآن؟ فلتبدأ الزّفة، ربّما في وقتٍ آخر قد أعطي المجال لها هي أنْ تصفها لكم، أنتم تعلمون أنّ الفتيات أدقُّ في وصف مثل تلك الأمور، مِن وجهة نظري سأحدّثكم فقط عن بعض الطبول والمزامير، وصوتٍ عالٍ صاخبٍ تستطيع فقط أنْ تميّز مِن خلاله عبارة «ما شاء الله» وهي تتكرر


fb.com/groups/exchange.book

بين الحين والآخر، بالإضافة إلى ذلك الأحول بين الراقصين والعازفين إنْ لم يستعيضوا عنه بصاحب الجرح الغائر أسفل عينيْه في أغلب الأحيان.

ثم القاعة، وأخيرًا دلفنا إليها، لا ضير مِن تلك الرقصة الثنائية الهادئة في بادئ الأمر، بعدها أتوسَّل إليكم، دعوني وشأني جالسًا في الكوشة إلى جوار ملكة عمري القادم، ولتملئوا الحيِّز مِن حولنا برقصاتكم و محاولاتكم المستمرة لالتقاط الصور، لكنّ آمالاً كهذه لا تحدُث بهذه البساطة كما يتوقّع الحمقى أمثالي، هناك الكثير مِن الرقص، ولحظاتُ مسح العرق والتقاط الأنفاس، ثمّ الكثير من الرقص، والجلوس، لمتابعة الكثير مِن الرقص، لينتهيَ هذا الأمر! بعد الكثير من الرقص. ومِن بين هذا كله، رأيته؛ اقترب نحوي ببذلته المنمّقة، وابتسامته الهادئة، مدَّ يده نحوي مصافحًا وهو يقول:

- مبروك يا أيمن باشا.

تمتمتُ متعجِّبًا لحضوره أولاً، ثم لتلك النبرة المتّزنة التي تحدَّث بها:

- الله يبارك فيك، عقبالك.

هزَّ رأسه بنفيٍ وهو مازال محتفظًا بابتسامته قائلاً:

- توء، مش على ده، أنا قصدي مبروك عالقضية.

لو تعلمون، أسبابٌ كثيرةٌ جعلتْني أتوتَّر وأنا أتأمّله بحذرٍ قبل أنْ أقول ببطءٍ:

- دي حاجة خلصت، أنا في فرحي دلوقتي.

fb.com/groups/exchange.book

اتسعت ابتسامته لتتحوّل إلى ضحكةٍ طويلةٍ اهتزّ لها جسده بالكامل وهو يردُ:

متأكد إنها خلصت؟؟

قالها ثم دار على عقبيه ملتحمًا وسط زحام المدعوين، ليتركني خلفه بين أنياب الحيرة، وعلى الرغم مِن عقلي المُحتشِد بأفكار حياةٍ جديدةٍ في تلك اللحظة، ربّما كانت أكثر ازدحامًا مِن صخب الجميع حولي، إلّا أنّ شيئًا ما في كلام الرجل وطريقته جعلني أعود متناسيًا كلّ ما حولي للتفكير في أحداثٍ سبقتْ لم يمرَّ عليها سوى أسبوعين أو أكثر؛ أحداث قضيةٍ كانت وعلى الرغم مِن سهولتها البادية، مِن أصعب القضايا التي واجهتني في حياتي، ولكنْ هذه قصةٌ أخرى.

*****

## القاهرة، الثلاثاء ١٨ أبريل، ٢٠١٤ م

- بتضحك على أيه؟

وجّهتْ وفاء، ابنة الحاج عمران، الفتاة متناسقة القوام رغم اقترابها مِن العقد الرابع عمرًا، سؤالها لذلك الراقد إلى جوارها، بصوتٍ بدا فيه الإجهاد واضحًا مع صوت أنفاسهما التي بدت كلحنٍ رتيبٍ في المكان وهي تستند برأسها فوق كتفه تاركةً بعض خصلاتٍ مِن شعرها لتلتصق على وجهه الذي


fb.com/groups/exchange.book

لم تفارقه ابتسامته بعد.

كانت تتأمّل ملامحه اعتمادًا على خيوط ضوءٍ ضعيفةٍ تسلّلت على استحياءٍ عبر فجواتٍ ضيقةٍ في النافذة الخشبية المُغلقة إلى داخل الحجرة المُعتمة، وبالرغم مِن إلقائها السؤال، إلّا أنّها لم تنتظر إجابةً؛ سؤالها كان نوعًا مِن التسلية لكسر حاجز الصمت المسيطر بينهما، فاصلٌ قصيرٌ وسط موسيقى التنهيدات الحارّة والأنفاس المتلاحقة، وما الفارق؟ بل وما جدوى الحديث؟ هما الآن معًا، فليكنْ ثالثهما الصمت.

لا شيء يهمّ، التنهيدات تستمرُّ، وصوت الأزيز الصادر مِن اهتزاز الفراش أسفلهما يتهادى بين العلو والخفوت، تمامًا كصوت أنفاسهما المنبعثة وصدريهما يتحركان صعودًا وهبوطًا حتى انتهيا، تدريجيًا تهدأ الأنفاس، لحظاتٌ أخرى، قبل أنْ تنهض مِن رَقدَتها ملتقطةً عباءتها الملقاة أرضًا إلى جوار الفراش لترتديَها وهي تقول:

- تصدق بالله؟ والله منا فاهمالك، مش عارفة يا أخي أنت أيه بالضبط؟ ملاك ولا شيطان؟ عايش في ملكوت لوحدك كدا ولا بتكلم حدّ ولا باين أنت عايز أيه أصلاً، تعرف؟ أنا لحد دلوقتي مش مصدقة، وخايفة يطلع كل اللي أنا فيه دا حلم وهفوق منه، ساعات بشكّ فيك، ساعات أصلاً بشكّ أنا نفسي في إحساسي ناحيتك، بس الأكيد، إني دلوقتي وأنا جمبك، أسعد انسانة في الوجود.


fb.com/groups/exchange.book

أنهت عبارتها وهي تعدّل الجزء الأخير مِن ملابسها وعيناها المعجبتان تكادان تلتهمان وجهه المبتسم قبل أنْ تستطرد متبادلةً معه نفس الابتسامة:

لسه بتضحك برضو؟؟

قالتها ومالت فوق السرير لتطبع قبلةً أخيرةً فوق جبينه مستطردةً بهمسٍ:

هتوحشني.

لم انصرفت بعد أنْ تأكّدت من إغلاق الباب خلفها بإحكام، تاركةً إياه في الداخل مع الوحدة، معشوقته الأبدية دونها، تلك التي أمضى فيها الجزء الأكبر من ماضيه، ربّما بسبب اليأس، ربّما بسبب الخوف، وربّما هو المرض! لا يعنيه كلُّ هذا الهراء، فلتذهبْ كلُّ تلك المسميات والمصطلحات إلى الجحيم. علّمته الدنيا وما مرّ به في سنوات عمره البائد أنّ كثيرًا مِن المشاعر والأحاسيس، قد لا يمكننا التعبير عنها بالكلمات، وأنّ الكثير مِن المعاني حين نسبر أغوارنا بحثًا عن تعريفٍ لها، تفقد أصل الشعور، ليضيع مع حفنة أعوامٍ من العمر سدًى.

ودون جدوى، علّمته الدنيا بعد عناءٍ، أنّ السعادة لا تمتزج أبدًا مع التعقيد، وأنّ بساطة الأشياء هي ما يدفعنا بسهولةٍ نحو الفرحة التي لم نكن لندرك دون التجربة أنّها تقبع ها هنا قريبةً تنتظر.

هما الآن معًا، وهذا فقط، بعد كلّ العمر الفائت، يكفيه.

*****


fb.com/groups/exchange.book

# القاهرة، الأربعاء ١٩ أبريل، ٢٠١٤ م

بعينٍ مغمضةٍ كليًا، استيقظتُ على صوت الرنين المتواصل المُنبعِث مِن هاتفي الخاصّ وبيدٍ متكاسلةٍ مددْتُها نحوه لالتقاطه وأنا أتطلّع إلى جهاز التنبيه الموضوع إلى جانب السرير، الذي أشارت عقاربه إلى السادسة والنصف صباحًا، قبل أنْ أتمتم بإجهادٍ حانقٍ:

- عارفة لو سبب تافه اللي مخليكي تتصلي بيا تصحيني بدري كده؟ والله العظيم احتمال كبير أفسخ الخطوبة دي، ومتشوفيش وشي تاني.

تمتمتُ بها معتقدًا كالعادة أنّ خطيبتي هي المُتّصل قبل أنْ أُطالع ذلك الرقم الغريب المضيء على شاشة الهاتف، فانعقد حاجباي وأنا أضغط على زرّ الإجابة وألقي بالهاتف فوق أذني، قائلاً بصوتٍ يقاوم التثاؤب:

- أيمن دوير، مين معايا؟

أتاني صوت محدّثي مِن الجانب الآخر للمكالمة، ذكوريًا يحمل الكثير مِن الجِدّية والقلق وهو يجيب:

- أيوه يا سيادة الرائد، فين حضرتك من الصبح؟ اتهرينا محاولات نتصل بيك.

شيءٌ ما في جِدّية الرجل وأسلوبه جعلني أتنبّه شيئًا ما، وإنْ لم أعتدلْ بعد في رقدتي فوق الفراش مُتسائلاً:

مين معايا؟ وخير في أيه؟؟

أحاب الرجل بسرعةٍ:

معاك ملازم أول حسام، يا فندم.

كان النوم مازال مسيطرًا كضباب النهار في الخارج على رأسي، سالبًا مني الجزء الأكبر مِن التركيز، فتساءلت وأنا أقاوم التقاء جفنيّ مرةً أخرى:

حسام؟ حسام مين؟؟

عاجلني الرجل بالإجابة بسرعةِ مَن لا وقت لديه:

حسام يا باشا، حسام الدين، اللي لسه منقول عند حضرتك القسم من أسبوعين.

لم يكن بمقدور عقلي المُغيَّب في هذا الوقت أنْ يستوعب أيَّ حسام أو أيّ قسمٍ أساسًا، أضف إلى ذلك أنني أنا ذاتي لم يكن قد مرّ عليّ في عملي في هذا القسم سوى أقلّ من شهرٍ ونصفٍ، ثم إنّ مِزية حفظ الأسماء وتذكُّر الأصوات أو الأشكال لم تكنْ بالفعل مِن بين مزاياي، لقد كنتُ مِن أولئك الأشخاص الذين قد تنشأ بينك و بينهم علاقةٌ تدوم لشهورٍ، ثم تُفاجأ بهم وهم يعتذرون بخجلٍ شديدٍ لعدم تمكُّنهم مِن تذكُّر اسمك الحقيقيّ.

لم أشأ أنْ يطول الحوار حول هذه النقطة أكثر مِن ذلك، فغمغمتُ متصنِّعًا التذكُّر أخيرًا:


fb.com/groups/exchange.book

- مممممممممم، حسام، آه افتكرتك!

ثم استطردتُ متسائلاً بجديةٍ مصطنعةٍ، حاولتُ بها تغطية نبرتيْ التكاسل والسرحان المُسيطران على صوتي:

- أيوه يا حسام، خير في أيه؟؟

اندفع حسام مجيبًا كمن ينتظر السؤال بفارغ الصبر:

- جريمة قتل يا باشا، عندنا جثة مدبوحة في شقة إيجار هنا في المنطقة.

اعتدلتُ مِن رقدتي بحركةٍ مفاجئةٍ كالمصعوق، وتحفّزتْ حواسي كلها مع سماع كلمة قتل، مبدِّدًا الغيوم المتلبِّدة حول عقلي الذي كان منذ لحظاتٍ في مرحلة نومه الإكلينيكي وأنا أتساءل:

- قتل؟ فين الكلام دا بالضبط؟ إديني العنوان وعشر دقايق أكون عندك.

نقلتُ العنوان بدقةٍ داخل مفكّرتي الصغيرة الخاصة، وبسرعةٍ كبيرةٍ إلى حدٍّ ما ارتديت ملابسي وانطلقت بسيارتي على عجلٍ حتى وصلت إلى المكان المنشود.

كان المكان يعجُّ بسيارات الشرطة التي انتشر رجالها حولها إلى جوار عددٍ مِن المتاريس الأمنيّة المطوّقة لأحد المباني القديمة ذات الأربعة طوابق، الذي لم يختلف كثيرًا عن باقي أقرانه مِن المباني التي يعجُّ بها ذلك الزقاق الذي لم يختلف بدوره عن بقية الأزقة المنتشرة في حيّ عابدين بوسط

البلد.

في خطواتٍ واثقةٍ، تخطيتُ ذلك الكوردون الأمنيّ إلى داخل المبنى وأنا أظهر هويّتي للجميع على الرغم مِن أنّ أغلبهم يعرفني، ثم صعدت إلى الدور الثالث مكان الجريمة، ودفعتُ الباب نصف المفتوح ليُطالعني وجه ذلك الحسام الذي لم أكنْ لأعرفه لولا أنْ عاجلني هو بالتعريف عن نفسه وهو يقول:

أيمن بيه، أهلاً وسهلاً، الوصفة والسكة توّهوك وللا جيت بسهولة؟؟

أجبته وأنا أدلف إلى المكان تسبقني عيناي في محاولةٍ لتسجيل صورةٍ أوليّةٍ عن الحادث وسط ازدحامٍ مِن رجال الشرطة والبحث الجنائيّ المنتشرين في المكان:

أهلاً يا حسام، أيه اللي بيحصل بقى كدا في السريع؟ والجثة فين اللي بتقول عليها؟؟

نبعَني حسام وأنا أدُور في المكان بخطواتٍ حذرةٍ، ساردًا باختصارٍ:

- إحنا التليفونات جاتلنا من ساعتين تقريبًا بتبلّغ عن جريمة القتل، الجيران هنا سمعوا أصوات خبط في المكان، بعدها بربعاية شافوا صاحب الشقة أو اللي مأجرها يعني، نازل يجري منها وسايب بابها مفتوح زي ما أنت جيت لقيته كدا، دخلوا يطمنوا كفضول يعني، لقوا الجثة، وجمبها الشاب اللي قاعد عالكنبة هناك دا بيعيط، ودمّها مغرّقهم هما الاتنين.


fb.com/groups/exchange.book

رمقتُ ذلك الجالس بنظرةٍ متفحِّصةٍ وأنا أستوضح مِن حسام دون أنْ ألتفتَ إليه:

- وهوا مين الأستاذ؟ و حققتوا معاه وللا لأ؟ و بعدين هيا فين الجثة أصلاً يا عم؟؟

أشار حسام بيده نحو باب المطبخ المجاور له قائلاً:

- الجثة جوه هنا في المطبخ، في دكتور بيفحصها، ورجالة رفع البصمات بيشتغلوا على المكان، والأستاذ اللي قاعد دا، الجيران بيقولوا انهم ميعرفهوش أصلاً وعمرهم ما شافوه هنا قبل كده.

عقدتُ حاجبيَّ باستنكارٍ مُتأمِّلاً كوْوسًا شبه فارغةٍ حَوَتْ شرابًا أحمرَ اللون أشبه بالكركديه إنْ أحسنّا الظنّ، وضعت بإهمالٍ على منضدةٍ صغيرةٍ أمام ذلك الغريب الباكي، وأنا أدلف إلى المطبخ معلقًا على حديث حسام غير المنطقيّ بالنسبة لي وعيناي تمرّان فوق ذلك الجسد المُلقى أرضًا تغطّيه ملاءةٌ بيضاءُ تشرَّب معظمها بدمٍ أحمرَ داكنٍ متجلِّطٍ عليه، ممتزجٍ مع ذلك المُنتشر حوله على الأرض إلى جوار لفةٍ لوجبةِ كبابٍ، أُلقيت على نحوٍ بدا معه أنّ أحدهم كان يمنّي نفسه بوجبة عشاءٍ فاخرةٍ لم يجد الوقت الكافي لها:

- يعني أيه الجيران بيقولوا؟ أنا سؤالي واضح يا حسام مش عايز غباء عالصبح. بسألك حققتوا معاه؟ مال أهلي أنا بقى و مال الجيران؟

امتقع وجه حسام شيئًا ما مع ردِّ الفعل الحادِّ، بينما انحنيتُ أنا لأرفع الملاءة قليلاً كاشفًا عن وجه الجثة قبل أنْ تتسع عيناي بدهشةٍ كبيرةٍ وهو يجيب:

يا فندم معرفناش نستجوبه ولا نحقق معاه، هو في حالة مش طبيعية، دا الدكتور حتى معرفش يتعامل معاه، عنده حاجة نفسية ومش طبيعي أصلاً ولا مؤهل إنه يتكلم، دا إحنا فاهمين تقطيع كلامه بالعافية، يدوب فهمنا بعد ربع ساعة عناء معاه أنه عايز ورقة وقلم، قعدناه بره زي مانتا شايف وجبناله الورقة والقلم، قعد يشخبط عليها رسومات مش مفهومة، حاجة كدا زي سلسلة وقلب، أنا ضميتها عمومًا مع الورق اللي جمعتهولك في ملف القضية، بس زي مبقولك واضح انه مش معانا في الدنيا أساسًا يا أيمن بيه.

هذه الجملة الأخيرة، لن أدَّعي أنني استوعبت سوى الجزء الأول فقط منها، وربما ليس أغلبه، فقد كان كلُّ تركيزي وعقلي وعيناي معلقين على اتساعهما المشدوه بذلك الوجه الملائكيّ المتُّشح بلون الزرقة أسفل الملاءة المُخضَّبة؛ كانت فتاةً في غاية الجمال، في منتصف الثلاثينات مِن عمرها بشكلٍ تقريبيٍّ، شقراء الشعر، رائعة الملامح، خُيِّل إليّ وكأنما انبعث البريق في ومضةٍ ساحرةٍ عبر عينيْها الجامدتيْن الخاليتيْن تمامًا من أيّ أثرٍ للحياة، وملامح وجهها غير المُصدِّقة تعبِّر بوضوحٍ عن نظرة ذهولٍ انطبعت على ملامحها في آخر رمق.

كان حسام مازال يتكلَّم مُواصِلاً سرد التفاصيل عن المكان، ولكن دون أيِّ تركيزٍ أو انتباهٍ مِن عقلي الذي انطلق داخلي في مسارات تفكيرٍ متعددةٍ


fb.com/groups/exchange.book

متشابكةٍ، تلاقت جميعها أخيرًا فوق لساني وأنا أقاطع حسام قائلاً:

- صاحب الشقة.

انعقد لسان حسام مِن الجملة المُباغِتة للحظةٍ، وهو يكرِّرها بتساؤلٍ:

- صاحب الشقة؟

هززت رأسي أنْ نعم، وأنا أوضِّح:

- أيوا، صاحب الشقة اللي الجيران شافوه بيجري منها قبل الحادثة، هوا فين؟؟

أجاب حسام:

- لا يا أيمن بيه لسه موصلنالوش، و بعدين حضرتك دا كان مستأجر، والجيران كلهم ميعرفوش اسمه، أو الملاحظ إنّ كل واحد منهم يعرفله اسم مختلف عن اللي عارفه التاني.

التقط النظرة النارية الغاضبة التي رمقتُه بها، فسارع مُكمِلاً:

- بس أنا مسكتش، جبت رقم الراجل صاحب المالك اللي مأجّر له و كلمته طلبت منه بيجي و معاه ورق العقود اللي أكيد هنلاقي فيه أسامي كل المستأجرين عنده.

لم تمضِ لحظاتٌ، حتى دلف ذلك الرجل قصير القامة، بملامحه المذهولة القلقة وعيناه تدوران في المكان جزعًا ولسان حاله يلعن هذا الوضع

fb.com/groups/exchange.book

الحارلي الذي جلبته الأقدار عنوةً إليه مُرتديًا جلبابه الرمادي، وعلى رأسه تلك العِمّة الصعيدية التقليدية، يصاحبه أحد العساكر في المكان الذي قال وهو يؤدّي التحية:

الحاج درويش، صاحب الملك يا حسام باشا.

لم أعرْ أيًا مِن الموجودين اهتمامًا وأنا ألتفت نحو الرجل، ودون انتظارٍ وجّهتُ إليه متسائلاً:

قوللي يا حاج، مين اللي كان مأجر منك الشقة دي؟ اسمه أيه؟؟

ابتلع الرجل ريقه وهو يقول:

اسمه طارق يا باشا، طارق عبدالحميد زكريا.

رمقت حسام إلى جواري بنظرةٍ سريعةٍ، التقطها هذا الأخير فأخرج من جيبه ورقةً صغيرةً و قلمًا، دوّن فيها الاسم بينما أنا أسأل مرةً أخرى:

ومين طارق دا؟ شغال أيه يعني، أو نعرف نجيبه منين؟؟

أجاب الرجل مرتعدًا، وعيناه تكادان تخرجان مِن محجريْهما من فرط التوتر والذعر:

معرفش يا باشا شغال أيه ولا ممكن تلاقوه فين، بس كل اللي أعرفه عنه، إنه ابن الحاج عبدالحميد الله يرحمه، صاحب ورشة النجارة اللي في آخر الشارع اللي قصادنا.


fb.com/groups/exchange.book

تدخّل حسام هذه المرة وهو يسأل:

- تعرف تورينا الورشة دي فين؟؟

أومأ الرجل برأسه إيجابًا وهو يقول:

- أكيد أعرف، ازاي أبقى ابن المنطقة وأنا معرفش أقدم ورشة نجارة فيها؟؟

وضعتُ يدي على كتفه وأنا أدور به إلى خارج المكان قائلاً:

- طب هايل، هتيجي معانا تورينا أقدم ورشة دي، واهو في السكة ندردش مع بعض شوية وتحكيلنا كلّ اللي تعرفه عن طارق والحاج عبد الحميد، أو الورشة بتاعتهم.

سار الرجل معي وهو ينعى حظّه العاثر، وأنا أستطرد باقتضابٍ:

- وركّز معايا يا حاج درويش، أنا عايز كل اللي تعرفه.

ثم اتكأتُ على مخارج حروفي وأنا أؤكد:

- كله يا حاج، كله.

*****

# ١٤ ديسمبر، ١٩٩٣ م

الثامنة والنصف صباحًا.

يومٌ جديدٌ...

ألقى الحاج عمران ذلك الرجل البدين أصلع الرأس ذو الشارب الضخم، نظرةً سريعةً إلى ساعته التي أشارت عقاربها إلى الثامنة والنصف صباحًا، وهو بقفٍ مستندًا إلى ذلك الجدار القديم بجوار الباب الحديديّ الجرّار الذي اعتلته لوحةٌ خشبيةٌ بيضاءُ كُتِب عليها بخطٍّ يدويٍّ مزخرفٍ، غطّت أتربة الزمن معظم معالمها، «عبد الحميد للنجارة وتجارة الأخشاب.»

وكعادتها، امتلأت المنطقة حوله بصخبها العشوائيّ المعتاد الناجم عن أصوات الورش التي يعجُّ بها المكان، والكلُّ يتحرّك هنا وهناك، وبزفرةٍ ضيقٍ مصحوبةٍ بصوته الأجشّ الغليظ، تمتم مُحدّثًا ذلك الفتى الذي اقترب نحوه حاملاً صينيةً معدنيةً وضع فوقها كوبًا مِن الشاي بجوار كوبٍ آخر مِن الماء البارد:

- اتفرّج يا سيدي على خناقة كل يوم، نفس القرف، الساعة داخلة على ٩ وعم الزفت سلامة لسه مجاش، هوا مش متلقح عندكوا في القهوة وللا الباشا ناموسيته كحلي النهاردة؟؟


fb.com/groups/exchange.book

أجابه حمادة، فتى المقهى الذي وقف أمامه بالصينية المعدنية يناوله كوب الماء، منتظرًا أنْ يتجرّعه هذا الأخير ليعيده مرةً أخرى إليه:

- قاعد يا حاج بياخد اصطباحة القهوة بتاعته مع شبارة وشلة الأنس، تحب أناديهولك؟

مضمض الحاج عمران فمه بآخر دفعةِ ماءٍ ارتشفها مِن الكوب ثم بصقها على الأرض إلى جوار الحائط، قبل أنْ يقول وهو يمدُّ يده بالكوب الفارغ فوق الصينية مُلتقطًا الشاي الساخن:

- آه يا حمادة بالله عليك، روح ارزعه على قفاه وقوللو الحاج عمران بيقولك انجز وتعال نفتح الورشة عشان الرجالة كلهم مستنيين، والحاج ربع ساعة وعلى وصول، بدل ماجي بنفسي أسحبه قدام الناس، عشان دا عيل زبالة.

قال الجملة الأخيرة بلهجةٍ عصبيةٍ، أطلقت العنان لضحكةٍ قصيرةٍ خرجت مِن بين شفتي حمادة وهو يقول:

- آه، هوا كسلي وبطيء فعلاً، بس الشهادة لله هو عيل جدع.

مطّ الحاج عمران شفتيه بامتعاضٍ، وهو يلوّح بيده قائلاً:

- بلا جدع بلا نيلة ياعم، نفس كلمة عبد الحميد، والله أنا ما عارف الحاج مُصرّ يخلي مفتاح الورشة مع العيل اللبط دا ليه؟ ما ابنه طارق من نفس دوره، واهو ابنه برضو، يعني أحسن حتى من الغريب اللي منعرفش عنه حاجة ده.

بدت لمحةٌ مِن الاستخفاف على وجه الفتى، وهو يغمغم:

- طارق مين بس يا عم عمران؟ منتا عارف اللي فيها، هوا طارق دا ليه إلا في الشغل الطري و تربية الكلاب والعصافير؟ دا الباشا ابن صاحب المحل.

هزَّ الحاج عمران رأسه ببطءٍ مؤيدًا لعبارة حمادة الذي أكمل:

- وبعدين ما أنت فاهم وجهة نظر الحاج من إنه يسيب المفتاح مع سلامة، الواد لسه ١٨ سنة آه، بس عامل صحبة حلوة في المنطقة وليه صيت، والناس اللي تخاف على زعله ومن زعله كتير، وهنا لو ملكش ضهر، حتى ولو صغير، هتتضرب على عينك.

تمتم عمران:

- نظرية برضو، صراحة أنت معاك حق فيها، بس أنا مش عارف ليه، الواد دا أنا مبطيقوش، لعبي كدا ومش مركز.

استطرد حمادة بسرعةٍ بنبرةٍ خبيثةٍ:

- طب متخلي المفتاح معاك أنت يا حاج، مش فكرة؟؟

افترَّ ثغر الحاج عمران عن ابتسامةٍ، وهو يكوِّر قبضته لِيَلْكُم بها صدر هذا الأخير أمامه، قائلاً:

- مفتاح أيه اللي أشيله معايا ده يا جزمة؟ هوا الواحد بقى فيه صحة؟ دا أنا لو وطيت أفتح الباب الحديد دا بس احتمال كبير أوي مطلعش تاني، احنا


fb.com/groups/exchange.book

راحت علينا خلاص و كبرنا، البركة فيكوا انتوا بقى يا شوية غجر.

ثم صمت لحظةً ارتشف فيها رشفةً أخرى من الكوب الساخن في يده، قبل أنْ يستطرد:

- يلا، روح انت انجز ونااديلي الزفت، ومتنساش وانتا جاي كمان شوية تجيبلي فنجان القهوة بتاعي مع حجر الشيشة الوصاية بتاع الحاج.

هزَّ حمادة رأسه بالإيجاب، وهمَّ بالرحيل وهو يقول:

- ماشي يا حاج، أي أوامر تانـ..

بتر عبارته وهو يلمح سلامة القادم مهرولاً نحو المكان بخطواتٍ واسعةٍ، فاستبدلها مكملاً:

- أهو سلامة وصل، أطير أنا بقى أجهزلك الحاجة، نهاركوا عسل.

قالها وانطلق في طريقه، بينما استقبل الحاج عمران سلامة بضربةٍ فوق رأسه، وذلك الأخير ينحني ليضع المفتاح بين يديه في ذلك القفل المعدني الذي يغلق الباب الحديديّ الكبير قائلاً:

- الساعة ٩ يا بيه، داخلة على وربع، مش هتبطل عادة التأخير دي يا حمار انتا؟

استقبل سلامة الضربة على رأسه باستخفافٍ وهو يكمل رفع الباب اعتمادًا على راحتيه وكتفه، مجيبًا بصوتٍ متقطعٍ إثر أنفاسه المتلاحقة:

- معلش يا حاج، أمي أخّرتني، كنت عديت عليها شوية كدا الصبح.

- أمك ايه يا كداب؟ ما حمادة قايلي إنك كنت متلقح عندهم عالقهوة.

ارتسمت على وجه سلامة ابتسامةٌ بلهاءُ، وهزّ كتفيه دون أنْ يحير جوابًا أو يبحث عن واحدٍ، وكذا لم ينتظر الآخرَ أية إجابةٍ وهو يدلف إلى المكان مقدمًا البسملة مع قدمه اليمنى، وخلفه دلف باقي العمال الواحد تلو الآخر كلٌّ لأداء مهمته، لتتحول الورشة المغلقة في دقائقَ إلى شعلةٍ مِن النشاط كغيرها من الورش المختلفة في المكان.

لحظاتٌ ليست بالطويلة مرّتْ، قبل أنْ يدلف الحاج عبدالحميد بعباءته السوداء وشعره الأشيب الذي أضفى إلى شخصيته وقارًا فائضًا فوق وقاره، مستندًا بيدٍ نافرةِ العروق على عصاه الخشبية المزخرفة، وسط إشارات الترحيب الصباحية من كافة الموجودين التي أهملها هو على غير عادةٍ، متجهًا نحو مكتبه الخشبيّ الكبير داخل المكان، يصطحبُه إلى الداخل صوت عمران الذي لحق به ساردًا على مسمعه أخبار العمل وما إلى ذلك، بينما بدت ملامحه غيرَ قادرةٍ على التركيز في أيّ شيءٍ، معلنًا عن ذلك بوضوحٍ وهو يلقي بجسده فوق مقعده الجلديّ العتيق خلف المكتب، ويرفع يده مشيرًا أنْ كفى، قائلاً:

- بعدين يا عمران، بعدين الله يخليك، أنا جي دماغي مش فيا، والنبي بس ابعت حد يستعجل الشيشة و كباية الشاي بحليب بتاعتي من القهوة، و


fb.com/groups/exchange.book

خلي طارق بس أول ما يوصل يدخلي هنا عالمكتب اوام.

قالها ثم صمت لحظةً مفكرًا، قبل أنْ يستطرد وكأنما تذكّر شيئًا ما:

- وللا أقولك؟ خلي الواد سلامة يروح جري عالبيت عندي دلوقتي بسرعة.

بدت أمارات الاهتمام على وجه عمران وهو يقول متسائلاً:

- خير يا حاج؟ أنا ملاحظ إنك داخل مش متظبط النهاردة، زي ما يكون في مشكلة شاغلة بالك، و بعدين لسه برضو كنت هسألك عن طارق، استغربت إنه مجاش معاك زي كل يوم.

تنهّد الحاج زكريا تنهيدةً حارةً، وغاص في مقعده أكثر في محاولةٍ لاستمداد الطاقة من دفء احتوائه له قائلاً بإجهادٍ واضحٍ:

- الحاجة أم طارق تعبانة.

اتّسعت عينا عمران بقلقٍ، وذلك الأخير يتابع:

- يظهر إنّ الحمل في السن المتأخرة دي متعب عليها جدًا، وأنت عارف إنها خلاص في شهرها السابع، يعني خلاص الموضوع قرب و بطنها بقت متشالة عليها بالعافية.

تمتم عمران، وقد انتقل بعض القلق إليه:

- آه عارف، ألف لا بأس عليها، ربنا يسلمها، بس هيا إيه اللي تعبها فجأة كده؟؟

أجاب عبدالحميد وعيناه تدوران في المكان بلا هدًى:

- والله منا عارف يا عمران، ادعيلها أنت بس، صحينا الصبح على صريخها، الحمل تاعبها أوي زي مابقولك، اديت لطارق مفاتيح البيجو وخليته يجري بيها ومعاه جارتنا أم إحسان عالدكتورة تشوف القصة ايه، مكانش ينفع تستنى بالألم اللي كانت حاسة بيه دا، أنا عن نفسي أعصابي باظت من آهاتها طول الليل.

ثم سكت لحظة ليستجمع أنفاسه مرةً أخرى قبل أن يكمل:

- والنبي بس أول ما ييجي تدخله يطمني، من اللخبطة الصبح واحنا نازلين نسيت مفتاح الشقة معاهم، وكدا كدا مفيش حد تاني في البيت أكلمه، فالأضمن تبعت سلامة يستنى هناك أهو حتى يبلغنا أول ما يوصلوا.

قطع عبارته مرةً ثالثةً أو رابعةً ليلتقط بعضًا من أنفاسه مكملاً:

- قلقان يا عمران، قلقان معرفش ليه.

اقترب منه عمران ومال نحوه مربّتًا على كتفه وهو يقول:

- اطمن يا حاج، و تفاءل بالخير، ربنا هيطمنك عليها إن شاء الله.

رمقه بنظرة امتنانٍ وتنهّد مرةً أخرى، بينما استدار الآخر راحلاً لعمل اللازم، تاركًا الرجل خلفه فريسةً سائغةً للحظات الصمت والانتظار الطويلة. كان التوتر والقلق يعصفان بكيانه ويرجّان كلّ خليةٍ مِن خلايا جسده النحيل


fb.com/groups/exchange.book

المتصلّب فوق ذلك المقعد الكبير، عيناه الحائرتان تدوران مُتطلّعتيْن عبر زجاج غرفته الذي يفصل بين مكتبه وباقي الورشة، في وجه عمّاله المنهمكين في أعمالهم المختلفة تبحثان بين وجوههم عن اطمئنانٍ هو في أمسّ الاحتياج له. الجدران مِن حوله و كأنّها تضيق و تتّسع مع أنفاس صدره البطيئة المتثاقلة، دوارٌ سخيفٌ يتغلغل عبر عقله جيئةً وذهابًا في استعدادٍ و تحفُّزٍ لمهاجمته دفعةً واحدةً.

«يا ربّ، سلّمها من عندك يا كريم.» تلك العبارة هي ما ظلّ يتردّد في عقله ببطءٍ رتيبٍ، المنظر من حوله يخفت بتدريجٍ، شيئًا فشيئًا، الصداع الناجم عن قلقه الرهيب يتزايد ويكاد يقتله، والظلمة مِن حوله تتسع رويدًا رويدًا وتحجب عن عقله الجزء الواعي ببطءٍ قبل أنْ ينتهي كلّ شيءٍ تمامًا، ببساطةٍ، وبمنتهى الهدوء.

*****

## ١٤ ديسمبر، ١٩٩٣ م

الثانية والنصف عصرًا.

- مبروك يا حاجة، ولد زي القمر، هتسميه ايه؟؟

- يوسف، هسميه يوسف، زي ما اتفقت أنا والحاج.

*****

fb.com/groups/exchange.book

## ١٤ ديسمبر، ١٩٩٣ م

السابعة مساءً.

ارتفع صوت المقرئ رخيمًا عبر مكبّرات الصوت الموزّعة داخل ذلك الصوان الضخم المنصوب في تلك الحارة الضيّقة شاديًا بآياتٍ مِن القرآن الكريم، ومِن داخله جلس الجميع منصتين بصمتٍ وخشوعٍ وعلى ملامحهم ارتسمت مختلف صور التأثر والحزن وهم ينقلون بصرهم كلّ حينٍ وآخر بين صورةٍ كبيرةٍ للحاج عبدالحميد مُعلّقةٍ في المكان مصحوبةٍ بشريطٍ أسود في ركنها العلويّ، وبين ابنه طارق ذي الثمانية عشرة عامًا المنزوي في ركنٍ مِن الأركان، دافنًا رأسه بين كفيْه ينتحب بلوعةٍ لم يتسنَّ لأصوات النحيب الصادرة من صوان عزاء السيدات أنْ تخفيها.

وفي مقدمة الصوان، وقف الحاج عمران، مطأطئ الرأس محمّر العينين من فرط الدموع المحتبِسة على أبواب مقلتيْه مع مجموعةٍ من عمال الورشة لتقبُّل عزاء الحاضرين الواحد تلو الآخر، وفي رأسه صورةٌ للمشهد الأخير، ذلك الذي لم يمضِ عليه سوى سويعاتٍ، تلك اللحظة، التي ظهر فيها طارق في الأفق وهو يعدو نحو الورشة وعلى وجهه ارتسمت أمارات سعادةٍ لامتناهيةٍ، ومِن خلفه سلامة يلهث محاولاً اللحاق به:

- أبويا فين؟؟


fb.com/groups/exchange.book

طقها الفتى بلهفةٍ بدت مع أنفاسه المتلاحقة، وكأنما يسأل عن كوبٍ من لماء وسط صحراءَ شاسعةٍ، فأجابه الحاج عمران على الفور:

- أبوك مستنيك جوه في المكتب، طمني بس الحاجّة بخير؟؟

م يَبْدُ على طارق أنه سمع سؤاله من الأساس وهو يتجاوزه بنفس اللهفة نحو مكتب والده، في حين أتاه الردّ من بين شفتي سلامة الذي انحنى مستندًا على أحد ماكينات التقطيع بالمكان في محاولةٍ لالتقاط أنفاسه:

- بيبي يا عم عمران، الحاجة جابت بيبي صغير.

رتفع حاجبا الحاج عمران بدهشة المبتهج وهو يهتف:

- يا فرج الله، في الشهر السابع؟ الله أكبر، الله أكبر.

واستدار بجسده مندفعًا نحو مكتب الحاج ليرصُد بعينيه أولى لحظات لبشارة بقدوم المولود الجديد قبل أنْ يتسمّر في مكانه دفعةً واحدةً مع صوت صرخة طارق المدويّة التي انطلقت في المكان، لقد وصل طارق متأخرًا بعض الشيء، وكان الأمر قد انتهى.

كلُّ شيءٍ سار سريعًا بعد تلك اللحظة؛ مراسم التغسيل والدفن تمّتْ بهدوءٍ وبساطةٍ، وقامت نساء المنطقة بدورهنّ في نقل الخبر للزوجة التي انهارت مع وليدها الجديد في أحضانهنّ يبكيان الأب والزوج الذي رحل دون سابق إنذارٍ أو تحذيرٍ. يومٌ واحدٌ، وربّما لحظةٌ واحدةٌ، انفتح فيها باب الحياة لأحدهم موصدًا في وجه الآخر؛ رحل السيد عبدالحميد زكريا بصمتٍ

مهيبٍ، أعلن عنه صراخ يوسف الراقد بين ذراعيْ أمٍّ منهارةٍ.

بخطواتٍ بطيئةٍ منهكةٍ، اتّجه الحاج عمران نحو طارق الذي انتفخت عيناه المحمرّتان من فرط البكاء في ركن المكان، وإلى جواره سلامة الذي نهض مع اقتراب الحاج مُفسِحًا له المجال ليربّت على كتف الصغير متمتمًا:

- طارق، شدّ حيلك، البقاء لله يابني، ميصحش كدا لازم تمسك نفسك، أبوك الله يرحمه راح بس سايب وراه في البيت راجل، شد حيلك.

لم تنجح الكلمات في قطع نحيب الفتى المتواصل منذ ساعاتٍ، هو نفسه استشعر كلماته حين نطقها كسكينٍ باردٍ نصلُه يحاول تقطيع طبقةٍ سميكةٍ من الألم، هو نفسه كان يجاهد من داخله حابسًا دمعةً في مقلته تقاتل للفرار، لقد رحل رفيق العمر بغتةً، رحل متناسيًا كوب شاي بالحليب، وحجر شيشةٍ آخر كان عليه أنْ ينهيه غدًا في الصباح، رحل قبل أنْ يشتدّ عود ابنه الذي اعتقد حتى آخر لحظات عمره أنه الوحيد، لقد رحل السيد عبدالحميد زكريا، وترك العالم لشمسٍ ستُلقي في الغد أشعتها على كلّ الوجوه، ماعدا وجهه.

*****


fb.com/groups/exchange.book

fb.com/groups/exchange.book

# الفصل الثاني

# القاعدة الأولى: كلهم يخونون

fb.com/groups/exchange.book

متزعليش،

لو يوم قالولِك إنه مش باين عليه أثر الفراق

وإنه مش بيجيب في سيرتك وإنه عادي

لا بان عليه أثر الفراق ولا فيه ألم ولا فيه اشتياق.

الشاعر، هشام الجخ

fb.com/groups/exchange.book

التقطت الخادمة الآسيوية دقيقةُ الملامح ذلك الطرد المغلّف الذي تمّ وضعه بعنايةٍ في الصندوق المخصّص للبريد، أمام البوابة الحديدية للمكان الذي تعمل به، والذي كتب على اللوحة الرخامية المعلّقة فوق بوابته بخطٍّ مزخرفٍ وحروفٍ واضحةٍ، «فيلا الدكتور حسين رسلان»، وبخطواتٍ واسعةٍ أنيقةٍ، انطلقت حاملةً الطرد الصغير في يدها مجتازةً في طريقها الحديقة الواسعة للمكان نحو الشرفة المطلّة على الجزء الخلفي من الفيلا، حيث حوض الاستحمام الواسع الذي جلس بالقرب منه فوق مقعدٍ متحركٍ ذلك العجوز أبيض الشعر، إلى الحدّ الذي بدا معه وكأنّ قطعةً من ثلوج القطبيْن احتلّت مكانها فوق رأسه.

شعر باقترابها فالتفت نحوها ببطءٍ اضطر إليه مع وهنه الواضح، وتلك الآلية التي يدور بها مقعده، ثم نظر إلى ما تحمله في يدها قبل أن يتساءل:

- أيه دا؟


fb.com/groups/exchange.book

أجابت بإنجليزيةٍ متقنةٍ وهي تمدُ يدها له به:

- وجدته في صندوق الطرود سيدي، إنه من واشنطن.

بدت اللهفة على وجه العجوز، وهو يلتقط منها الطرد بسرعةٍ قائلاً:

- يبقى منها!

ثم فضَّه على عجلٍ وهمَّ بإفراغ محتواه قبل أنْ يتوقف لحظةً ملتفتًا مرةً أخرى إلى خادمته التي مالت له في تحيةٍ قبل أنْ تدور على عقبيْها مبتعدةً عن المكان بصمتٍ، ليُعاوِد هو النظر مرةً أخرى فيما لديه، أخرج الورقة الكبيرة بداخله والتهمت عيناه الكلمات المكتوبة بخطِ اليد عليها بشوقٍ ونهمٍ:

«والدي العزيز،

على الرغم من أنني لم أستسغ بعد هذا اللقب الذي تطلب مني في رسائلك كلها أنْ أمنحه لك،

مازال في اعتقادي أنّ لقب السيد لن يضير، وهو أيضًا يحمل لك الكثير من الاحترام والامتنان الذي أحمله لسيادتك، كما أنني لم أتفهم بعد إصرارك العجيب في أنْ تكون.كلّ رسائلنا عبر بريدٍ مكتوبٍ في عصرٍ تعدّدت فيه وسائل الاتصال الإلكترونية.

مستر حسين، أنت حقًا شخصٌ غريب الأطوار! لقد وصلتني الهدايا الرائعة

التي أثقلت على نفسك بشرائها، أعجبتني للغاية، وأعجبت أيضًا أمي ومايك والعديد من صديقاتي، إننا نهوى هنا كلّ ما هو فرعونيٌّ، لقد أبهجتني بالفعل، لهذا أشكرك شكرًا جزيلاً قبل أيّ شيءٍ.

بمناسبة القدوم إلى مصر في وقتٍ قريبٍ، سأضع هذا بالتأكيد ضمن جدول خططي المستقبلية، إنّ تلك الصور المتنوّعة التي أرسلتها لي مع خطابك الأخير، تحمل بين طيّاتها تشويقًا لا حدود له، جعلني مُصرّةً بشكلٍ كبيرٍ على القدوم، ولكنْ لا أعتقد أنّ هذا سيكون في وقتٍ قريبٍ.

أتمنى أنْ تكون بخير حالٍ، أنت شخصٌ طيبٌ.

إلى لقاءٍ.

عزيزتك، سيلفيا

مرفقٌ مع الخطاب خاتم الحظّ الذي طلبته في رسالتك الأخيرة.»

بيدٍ مرتعشةٍ مدّها داخل الطرد، التقط الخاتم ثم أخرجه وتطلّع إليه للحظةٍ متحسّسًا الحرف الأول مِن اسمها الذي طلب منها حفره عليه قبل أن يرتديَه في إصبعه مطلقًا تنهيدةً حارةً خرجت مِن أعمق أعماقه، وفي خلسةٍ لم يشعر هو بها، انسلّت تلك الدمعة الحبيسة مِن عينه متخذةً طريقها

فوق وجنته، لتسقط بعد ذلك مبلّلةً الرسالة للحظةٍ قبّلها فيها قبل أنْ يستفيق مُبعِدًا الورقة ماسحًا دموعه بيده، وهو يحدّث نفسه قائلاً:


fb.com/groups/exchange.book

- «وحشتيني أوي يا بنتي.»

ثم عاد ليطالع الرسالة من جديدٍ بين يديه منغمسًا في كلّ كلماتها، حتى النخاع.

*****

مِن موقعها خلف مكتب زوجها المتوفى، وتحت صورته الكبيرة المعلّقة على الحائط، ابتسمت الحاجة والدة طارق وهي تراقب أمامها تفاصيل وجه الحاج عمران التي احمرّت غيظًا وهو يمسك بسلامة مِن ياقة قميصه بعنفٍ، وهذا الأخير يحاول التملُّص منه صائحًا بعنادٍ:

- أيه يا عم عمران؟ هوا عيل صغير؟؟

جزَّ الحاج عمران على أسنانه بغيظٍ أشدّ، قائلاً وبصره حائرٌ بين الاثنيْن في الحجرة:

- يا حيوان لمّ لسانك، أنت هتنسى نفسك وللا أيه؟؟

لوَّح الفتى بيده مغمغمًا بكلماتٍ غير مبهمةٍ، في حين تدخّلت الحاجّة قائلةً بهدوءٍ:

- سيبه يا اسطى عمران، الولد معملش حاجة لكل ده.

التفت لها الحاج عمران مشدوهًا وهو يكرّر:

fb.com/groups/bexchange.book

- معملش حاجة لكل ده؟؟

قالها ثم دفع سلامة في رقبته مفلتًا إياه، وهذا الأخير يُطلِق زفرةً متأفِّفةً وهو يحاول تعديل ملابسه قبل أنْ يستطرد:

- يا حاجَّة، ازاي بس معملش حاجة؟ لمّا ياخد ابنك طارق المحترم، على قهوة هو نفسه عارف وفاهم أوي إنه مبيقعدش عليها إلا شمامين وسوابق، تبقى دي حاجة بسيطة؟ وبالأخص لما تيجي منه، هو عارف الناس دي مش مفاجأة بالنسباله يعني.

تدخَّل سلامة قائلاً بامتعاضٍ وبصوتٍ مرتفعٍ:

- يا عم خدته أيه؟ هوا عيل صغير؟ هوا اللي قاللي عايز آجي معاك.

ردَّ عليه الحاج عمران:

- لا والله؟ هوا اللي قالك؟ وأنت طبعًا ضاقت عليك الدنيا وملقيتش قدامك غير المكان المشبوه ده!

ثم التفت إلى الحاجَّة قائلاً:

- شايفة بذمتك الاستهبال؟

ابتسمت الحاجَّة ابتسامةً، حاولتْ بها تهدئة الأجواء المتحفِّزة في المكان، وهي تجيب بهدوءٍ:

- مفيش استهبال ولا حاجة يا عمران، مش للدرجة دي، بصراحة الولد


fb.com/groups/exchange.book

مبيتكلمش غلط.

لمحت التعجُّب في عينيْه فبادرت بالإكمال قائلةً:

- طارق دلوقتي مهواش صغير، وبعدين سلامة مش أكبر منه ولا مسئول عنه، سلامة وطارق أصلاً من دور بعض، بالعكس بقى احنا نبقى مطمنين أكتر لما طارق يدخل وسط الناس في المنطقة و يختلط بيهم وهو معاه سلامة ابننا برضو اللي الناس كلها هنا عارفاه وبتحبه.

قالتها ثم التفتَتْ إلى سلامة وتأمّلته لوهلةٍ قبل أنْ تقول:

- معلش يا سلامة، عمران مكانش يقصد يزعلك، هوا بس خايف على طارق، أخوك.

هزّ الفتى رأسه أنْ نعم، دون اقتناعٍ واضحٍ على ملامحه، وهو يغمغم:

- ماشي يا حاجّة، حصل خير، الأسطى عمران زي أبويا برضو، أقدر دلوقتي أطلع أشوف شغلي وللا تأمروني بحاجة تاني؟

أشارت له بالرحيل وهي تجيب:

- لا تقدر تتفضل خلاص، بس اسمع...

استوقفته تلك الجملة الاعتراضية، فتوقّف متنبِهًا لها وهي تكمل:

- أنا كان الطبيعي أبقى مع الحاج عمران، واعمل زي أي أمّ خايفة على ابنها، بس أنا معملتش كده عشان خاطرك أنت، أنا بثق في سلامة تمامًا زي ما

كان الحاج عبدالحميد الله يرحمه بيثق فيه، وواثقة انه مش هيأذي أخوه، مش كدا وللا ايه؟

تسلّلت إلى نفسه عبر كلماتها ثقةٌ أضفت لمحةً من الايجابية إلى روحه، فافترّ ثغره عن ابتسامةِ سعادةٍ نابعةٍ مِن داخله وهو يجيب:

- لأ كده، أكيد كده.

ثم دار على عقبيْه ورحل خارج الحجرة، التي توقّف فيها الحاج عمران مشدوهًا، ينظر بعينيْن متسعتيْن محاولاً استيعاب ما حدث قبل أنْ يترجم ما بداخله إلى سؤالٍ وجّهه إليها قائلاً:

- أيه يا حاجّة اللي التي عملتيه دا؟ ازاي تصغّريني قدام الواد ده كده؟

أشارت له بيدها أن اصبرْ، وهي تجيب:

- يا عمران افهم، سلامة خلاص بقى واحد مننا، بقاله سنين شغال معانا، وزي ما قلت، هوا وطارق سنّ واحد، والحاج الله يرحمه كان بـ..

قاطعها قبل أنْ تكمل قائلاً:

- أيوه بس دا طينة ودا طينة، و مينفعش يتلخبطوا على بعض بالطريقة دي.

أطلقت الحاجة ضحكةً قصيرةً وهي تقول:

- طينة أيه بس يا عمران وتربة ايه؟ وبعدين مانتا عارف طارق، لا ليه طينة ولا نيلة، ملوش في حدّ ومحدش ليه فيه، و خايب خيبة البنات، ياراجل دا


fb.com/groups/exchange.book

عبدالحميد الله يرحمه كان يقولي غلبت أهاتي معاه يكون ليه فايدة في المكان ومهما أعمل برضو مفيش أمل، الله؟ هوا أنت مش كنت بتشوف بعينك وللا أيه؟ ابني وأنا عارفاه، طيب وابن ناس بس غلبان.

أومأ عمران برأسه مغمغمًا:

- آه الصراحة، كان بيحصل، بس برضو الـ..

قاطعته هي هذه المرة وهي تقول:

- خليه يفك شوية، من مصلحته يعرف الناس والناس تعرفه، بكرة كل اللي احنا فيه دا هيبقاله، ولو فضل بسكوته زي ما هوا كدا هيتاكل في أي سوق، سيبه مع سلامة، وأنا معرفش ليه من جوايا حاجة مخلياني متطمنة للواد ده، يمكن عشان الحاج الله يرحمه كان دايمًا يتكلم عنه بالخير و يدعيله!

مطَّ عمران شفتيْه مُغمغِمًا:

- يمكن، بس أنا عن نفسي الصراحة مبرتحلوش، أنا يمكن الحاجة الوحيدة اللي مفهمتهاش من عبدالحميد الله يرحمه برغم سنين العشرة الطويلة اللي بيننا، هي الثقة الغريبة اللي بسرعة إداها لحد ظهرلنا كده فجأة من العدم.

ابتسمت مرةً أخرى قائلةً:

- سيبها على الله.

fb.com/groups/exchange.book

،ادلها الابتسامة الخارجية فقط، وهو يتمتم بقلقٍ:

لا اله الا الله.

سرحت بنظرها الدائر في أرجاء المكان قليلاً، وهي تتنهّد تنهيدةً طويلةً مفعمةً بالمشاعر المختلطة قبل أنْ تغمغم مخفضة العينين:

سيبك بقى من موضوع سلامة وطارق ده، أنا اللي خايفة وقلقانة بجد.

دلّت ملامح الرجل على اهتمامٍ حقيقيٍّ وهو يقترب مِن المكتب ساحبًا مِن أمامه أحد المقاعد الخشبية ليجلس عليه متسائلاً:

خير يا حاجّة؟ قلقانة من أيه وأيه اللي مخوفك؟

الحمل تقيل عليا أوي، عبدالحميد أهو مفاتش على موته سنة، ومن دلوقتي وأنا خايفة مقدرش أشيل هم كل دا لوحدي، أنا حاسة ان كل حاجة بتتفرط من بين إيديا.

متخافيش، زكريا كان أخويا، وبيته وماله أمانة في رقبتي ليوم الدين، أنا مش هسيبكوا تضيعوا من بعده أبدًا. خلي عندك ثقة في ده، أبدًا.

قالها بمنتهى الحماسة، ومنتهى الصدق.

*****

## نوفمبر، ١٩٩٧ م

«أشرف محمود إبراهيم»


fb.com/groups/exchange.book

انطلق ذلك النداء، للمرة الثالثة على التوالي بحدّةٍ أكبر مِن سابقتيْها من بين شفتيْ الشاويش الذي وقف إلى جوار الباب الحديديّ المفتوح لتلك الزنزانة المظلمة نسبيًا، في ذلك القسم الشهير بمنطقة وسط البلد، وعلى إثره قام أحد المساجين بهزّ زميله البدين الذي كان يستند برأسه فوق قدميه متمددًا كفرس نهرٍ بعد انتهائه مِن التهام وجبةٍ دسمةٍ في أحد أركان المكان قائلاً:

- قوم يا عم أنت، الشاويش بينادي عليك.

تحرّك ذلك الأخير ونهض بغتةً وكأنّما استفاق من غيبوبةٍ عميقةٍ قائلاً:

- تصدّق آه، دانا مكنتش واخد بالي.

قالها ثم اتّجه نحو الشاويش الذي عاجله بنظرةٍ ساخطةٍ وهو يقول:

- أيه يا خويا؟ واقع على ودانك؟ بقالي ساعة عمّال أنادي على جنابك وأقول، أشرف محمود ابراهيم، أشرف محمود نيلة، أيه اطرشيت؟؟

ببرودٍ ساخرٍ مفعمٍ باللامبالاة، أجابه أشرف وهو يبتسم:

- لا يا شاويشنا بس صوتك كان واحشنا، مش أكتر.

ثم أطلق ضحكةً اهتزّ جسده البدين كلّه معها قبل أنْ يقول:

- أنت بقى كنت بتقول أشرف محمود أيه؟

دفعه الرجل في ظهره أمامه إلى خارج المكان قائلاً:

- طب يلا انجر قدامي يا عم اللمض، شريف باشا عايزك في مكتبه.

رمقه بنظرة استخفافٍ جانبيةٍ مُغمغِمًا:

شكلك من الغلابة الجداد ولسه متعرفنيش.

ثم استطرد متسائلاً:

وعايزني في أيه شريف باشا؟ أيه؟ أخيرًا ظهر الحق واكتشفتوا إني بريء؟

في حين ارتفع صوت أحد المساجين من داخل الزنزانة صائحًا:

- شكلك طالع ياعم شبارة يا حظيظ، طب مين هيكمل معايا دور الطاولة دة؟

أشار له شبارة بيده وهو يُجذَب إلى خارج المكان الذي أُغلق مرةً أخرى على مَن فيه قائلاً:

- متقلقش يا برنس، وأنت فاهم، حتى لو طلعت النهارده، يومين وهاجي أكمل معاك الدور، أوعى تقفله!

ثم اتّجه مع الشاويش سيرًا على الأقدام عبر أروقة القسم حتى وصلا إلى حجرة مكتبٍ، طرق الأخير بابه طرقتيْن متتابعتيْن قبل أنْ يفتحه ويدلفا هما الاثنان إليها ليؤدّي التحية العسكرية قائلاً:

- تمام يا فندم، أشرف أهو.

تطلّع إليهم الرجل الجالس خلف مكتبه، بشعره المصفف بعنايةٍ فائقةٍ، وشاربه الأنيق الذي تكاد تجزم مِن تناسُقه أنّ مُصفِّفًا مُحترفًا يداوم على


fb.com/groups/exchange.book

متابعته يوميًا. بصرامةٍ بدتْ وكأنّها جزءٌ لا يتجزأ مِن تكوينه وهو يقول مشيرًا إلى الشاويش بالانصراف:

- طب خلاص يا توفيق، امشي أنت و سيبهولي.

أسرع الرجل منفّذًا الأمر على الفور، بينما رفع ذلك الأخير كفيْه إلى جانبيْ رأسه وهو يميل إلى الأمام في تحيةٍ سوقيةٍ قائلاً بصوته الأجش:

- شريف باشا، أجدع ميري في المنطقة كلها والمناطق المجاورة حبيب قلبي.

أخرسه الرائد شريف بنظرةٍ ناريةٍ اخترقته وجعلته يبتلع ما تبقى مِن جملته الهزلية قبل أنْ يقول:

- مالك يا روح أمك؟ عجبتك الإقامة عندنا وعايز تأنس معانا شوية كمان؟ فهّمني بس عشان لو كدا نفس الشاويش اللي خدك من إيدك يرجعك.

لمعت عينا شبارة بنشوةٍ حقيقيةٍ قائلاً:

- لا يا باشا دا ربنا يجعلها آخر مرة، وأنا اتعلمت من غلطاتي، المرادي بجد توبة نصوحة بإذن الله.

أطلق شريف ضحكةً قصيرةً متهكمةً مغمغمًا:

- أسطوانة التوبة بتاعة كل مرة.

ثم أشار بيده نحو الباب قائلاً:

ـلا يله، من الباب اللي وراك هنا دا تخرج ومش عايز أشوف من وراك ـحال تاني.

هزّ شبارة رأسه بلا معنًى وقد تهلّلت أساريره مع سماع خبر الخروج:

ـس خلي بالك يا شبارة...

اسـوقفته تلك الجملة الاعتراضية التي انطلقت من بين شفتيْ شريف وهو ـستطرد:

لو الباب دا اتفتح تاني ولقيت خلقتك الكريمة دي داخلة عليا في حوار أو قضية جديدة مش هعتقك، ومتلومش إلا نفسك ساعتها بقى.

لوح شبارة بيده قائلاً:

يا باشا، حدّ الله يا باشا، بقولك أنا تبت، أنت مسمعتنيش ولا أيه؟

استطرد شريف في حديثه وكأنّما لم يسمعه قائلاً:

- سواء سرقة، تزنيق، مخدرات، أيّ حاجة هتجيبك هنا تاني، هخليها غصب عنك الأخيرة، ومش هطلعك قبل ما روحك هيا اللي تطلع، وبالقانون على فكرة. فهمتني؟

هزّ شبارة رأسه بخبثٍ مصطنعًا التأثُّر وهو يقول:

- دا بدل ما تشجعني على طريق التوبة وتاخد بيدي؟ يا شريف باشا أنا والله قلبي حتة بيضا لو سقيتها هتعمل معاك شغل زي الفل.


fb.com/groups/exchange.book

مطّ شريف شفتيه مغمغمًا بسخرية:

- حتة بيضا آه، مصدقك، بس عارف الحتة البيضا دي فين؟

قهقه شبارة ضاحكًا بصوتٍ سمعه مَن في الخارج، وهو يرفع يده في تحية للرجل على دعابته قائلاً:

- لا حلوة، حلوة وملعوبة منك يا باشا.

ضرب شريف سطح مكتبه بكفّه بعنفٍ جعل الأخير يبتلع ما تبقّى له مِن ضحكٍ وهو يقول:

- جرى أيه يابن الكلب؟ أنتا نسيت نفسك وللا أيه؟ يلا غور من وشي قبل ما أغيّر رأيي، هتروح تمضي وتتكل، ومتفرحش أوي كدا عشان المرة دي مش هتخرج لوحدك، واحد من المخبرين بتوعنا هيبقى معاك، ملازمك، منين ما تروح يمين شمال هوا رجله على رجلك، فامشي معاه تمام و متزعلوش منك.

غمغم شبارة بضيقٍ:

- طب وليه كدا بس يا باشا؟ المراقبة والشغل الضيق دا؟

مطّ الرجل شفتيه قائلاً بتهكّمٍ وكأنّما أعجبه الضيق البادي على وجه هذا الأخير:

- ومين جاب سيرة مراقبة؟ أنا كلامي واضح، أنت مش من الناس اللي نتعّب

fb.com/groups/exchange.book

نفسنا ونراقبها من بعيد يا شبارة، دانت حبيبنا، أنا قلت الراجل هيبقى ملازمك، اعتبره قرينك اعتبره أخوك، مراتك، اعتبره زي ما تعتبره، بس هوا مش هيسيبك، ولا أنت تغيب عن عينيه.

عضّ شبارة بأسنانه على شفتيه بحنقٍ وغيظٍ كتمه، وهو يقول:

بيس يا باشا، أي أوامر تانية؟

بنفس البرود أجاب الرجل:

أكيد، هوا إحنا نستغنى؟ من هنا بقى لحد يوم دفنتك بعد عمر قصير بإذن الله، هتيجي تبيت عندنا أربع وخميس من كل اسبوع، وباقي الأيام بتمضي وتمشي، ومتقلقش، مش هنزلك التخشيبة، عشان متقلبلناش دماغ الناس تحت.

ببرودٍ محترفٍ يكاد ينفجر غيظًا وحنقًا، خفض شبارة عينه قائلاً:

- أمرك يا شريف باشا، حاجة تانية؟

أشار شريف بيده وهو يدور بمقعده نحو النافذة خلفه قائلاً باقتضابٍ:

- انصرف!

توقّف شبارة للحظةٍ تأمّل فيها الرجل محدّثًا نفسه:

- عكننت عليا، الله يعكنن على أهلك.

ثم بغتةً، ودون سببٍ واضحٍ سوى قطع متعة هذا الأخير في قهره، تهلّلت


fb.com/groups/exchange.book

أساريره وأفرج وجهه عن ابتسامةٍ واسعةٍ أظهرت صفٌ أسنانه الصفراء المشوّهة وهو يقول:

- سلام يا شريف باشا، يا أظبط ظابط متظبط في المنطقة كلها.

قالها ثم دار على عقبيْه بسرعةٍ وفتح الباب راحلاً، مرةً أخرى إلى حريةٍ، ولكن بشروط.

*****

لحظاتٌ طويلةٌ مِن الصمت مرّت على الدكتور إبراهيم الخياط، وهو يجلس على مقعدٍ ضخمٍ مصنوعٍ مِن البامبو، غاص جسده متوسط الحجم فيه بالكامل داخل تلك الحديقة الواسعة المطلّة على حوض استحمامٍ صنعت مياهه الزرقاء الصافية المتلألئة تحت أشعة الشمس وسط تلك الخضرة الزاهية المُمتدة في المكان، مشهدًا طبيعيًا خلابًا، أضفى إلى نفسه شعورًا رائعًا بالراحة، داخل فيلا زميله الدكتور حسين، الذي جلس في مواجهته على مقعده المتحرك منشغلاً بإشعال غليونه الخاص وعلى وجهه بَدَتْ أمارات حزنٍ عميقٍ جعله يقطع حبل الصمت السائد بينهما قائلاً:

- أيه يا حسين؟ انتا باعتلي النهارده عشان نقعد نسمع زقزقة العصافير عندك في الجنينة وللا أيه؟

رفع هذا الأخير عينيْه نحوه، دون أنْ يحاول مَحْو اللمحة الكئيبة فيها، ثم

همغم بصوتٍ حزينٍ:

مخنوق يا إبراهيم، مخنوق أوي.

رد إبراهيم ذراعيه عن آخرهما، و أخذ نفسًا عميقًا مِن الهواء ملأ به صدره وهو يقول:

يا دكتور وحِّد الله، بذمتك حد يبقى عنده مكان زي ده، و نسمة هوا زي دي، ويتخنق؟ يا راجل، بطِّلْ بطر.

أطرق حسين رأسه يأسًى قائلاً:

والله ماليها أيّ لازمة الحاجات دي طول ما البال مش رايق.

كان إبراهيم يحاول انتزاع صديقه من حالة الحزن العميق المسيطرة عليه، على الرغم مِن إدراكه لصعوبة هذا، فصمت مرةً أخرى قبل أنْ يُعاوِد المحاولة مرةً أخرى قائلاً بهدوءٍ:

- بنتك أخبارها أيه؟

بَدَت الدموع المُتجمِّدة على مقلتيْ الرجل كسُجناء يتصارعون للهروب وهو يُشيح بوجهه بعيدًا في محاولةٍ للتماسك قائلاً بسخريةٍ مريرةٍ:

- بنتي؟ هوا أنا ليا هم غيرها؟ آخر مرة كنت هبعتلها تذكرة تيجي تزورني هنا في مصر، وكَتْ خلاص الأمور ماشية، بس قبلها بأسبوع واحد، لَغَت الفكرة عشان تروح مع أمها وجوز أمها رحلة سفاري قرروا يعملوها فجأة.


fb.com/groups/exchange.book

بس عارف؟ أنا مش زعلان منها، هيا ذنبها أيه؟ واحد جايلها بعد أكتر من ٢٥ سنة يقوم بدور الأب، طبيعي جدًا تعاملها ده.

عقد إبراهيم حاجبيْه وهو يتساءل:

- أيه دا؟ هوا أنت قلتلها حاجة؟

هزّ حسين رأسه نافيًا وهو يجيب:

- لأ، أكيد لأ، مش دا اتفاقي مع أمها؟؟

هزّ إبراهيم كتفيْه قائلاً:

- طب أمال أيه المشكلة؟ ما زي مانت بتقول، طبيعي،.

غمغم حسين بحزنٍ عميقٍ:

- أنا عارف، بس أنت اللي مش عارف إحساس إن يبقى نفسك تقول حاجة بأعلى صوت وأنت بقك متكمم، متتخيلش أنا كنت بحلم إزاي بموضوع نزولها مصر ده، لدرجة إني ساعات كانت بتجيلي أفكار أصارحها بالحقيقة كلها هنا أما تيجي وأمنعها من السفر تاني لأمها هناك، كنت بقول لنفسي إني بدون ما أمنعها حتى، هيا كده كده كانت ساعتها أكيد هتختار تفضل معايا نعوض سنين البعد اللي اتحرمنا فيها من بعض.

نهض إبراهيم عن المقعد، والتقط كوب العصير الموضوع على طاولةٍ قصيرةٍ بينهم قبل أنْ يرتشف منه رشفةً، وهو يقول:

لا كدا يبقى كويس إنها مجتش، أيه اللي أنت بتقولوا دا؟

اطلع إليه حسين بتساؤلٍ، فاستطرد وهو يعود ليغوص في مقعده من جديدٍ:

لقعد معاك أيه بس، وكلام فاضي أيه؟ حسين، أنتا ليه مش حاطط في بالك فروق التوقيت والمسافات والثقافات؟ أنت مدرك بنتك دي اتربت فين؟ وازاي؟ وعندها دلوقتي كام سنة؟ وثقافتها أيه؟ وبعدين كونك عايزها دلوقتي وبعد كل العمر ده، تكتشف اكتشاف زي ده، وتفوّقها على حقيقة ضخمة كت غايبة عنها طول حياتها، يعني، مش شايف إن دا احتمال كبير أوي ميجيش بالنتيجة اللي أنت متوقعها؟ يا حسين دا أنت حتى دكتور لفساني، هو الكرسي اللي أنت قاعد عليه دا وقفلك دماغك والكتب اللي درستها مع رجلك وللا أيه يا دكتور؟؟

عضّ حسين على شفتيه بأسًى وهو يُعاوِد حشو غليونه بكميةٍ جديدةٍ مِن التبغ، تساقطَ الجزء الأكبر مِنه على العشب الأخضر تحته مِن بين يديه المرتعشتيْن قائلاً:

دكتور فين بقى؟ ما خلاص! كنت نفعت نفسي. وبعدين أنت عارف، أنا مش بكلّمك كصديق بس، أنت المعالج اللي بفضفض معاه بقالي سنين، بالإضافة لأنك أكتر بني آدم برتاح معاه ويعرف عنّي كلّ حاجة.

أفرغ إبراهيم ما تبقّى من كوب العصير في جوفه ماسحًا فمه بظهر يده، ويده الأخرى في جيبه باحثةً عن منديلٍ وهو يقول بتأثُّرٍ:


fb.com/groups/exchange.book

- دكتورك النفسي أيه بس أنت كمان! يعني أنا كنت عرفت أفيدك بحاجة!؟ لو كنت نجحت معاك مكانش الاكتئاب اتملّك منك ووصّلك للكرسي اللي أنت عليه ده، الحقيقة إني للأسف فشلت معاك يا دكتور.

مال طرف شَفَة حسين السفلى بلامبالاةٍ مصطنعةٍ وهو يتمتم:

- متلومش نفسك في دي يا صديقي العزيز، الحمد لله إنها وصلت لكده، مش سهل أبدًا على أيّ حد مهما كان هو ولا اللي بيساعده إنه يتغلب على وضع زي اللي مريت بيه، مش سهل أبدًا إني كنت أتقبل فكرة إن أكتر بني آدمة حبيتها في حياتي اختارت تكمل حياتها في مكان بعيد مع إنسان تاني، وصدقني أنت لولا وجودك جمبي ووقوفك معايا، أنا كان اكتئابي دا ممكن يوصلني للموت.

قال عبارته ثم صمتَ متأمّلاً المكان حوله، وعلى وجهه بدت أمارات ذكرى تجول في خاطره، قبل أنْ يلتفت إلى ضيفه مرةً أخرى مُستطرِدًا:

- وبعدين، أعتقد إنّ من حقك دلوقتي تعرف إن أنا اللي جيتلك متأخر، بعد ما كانت الحالة بتحفظاتها الكتير اتمكنت مني، ودا أكبر غلط ممكن مريض الاكتئاب أو التعب النفسي يعملها، إنه يدفن نفسه لوحده وسط تحفظاته وأفكاره، أنا وأنا دكتور وفاهم، عملت كده. عشان كده بقولك متلومش نفسك، أنا اللي عاندت نفسي، مش أنت اللي فشلت.

بَدَتْ على إبراهيم أمارات التعجُّب والشكّ، لرُبّما كانت تلك مجرّد محاولةٍ

خرقاءَ مِن صديق عمره لتخفيف حدّة الإحساس بالذنب التي طالما نالت مِن ضميره تجاهه كصديقٍ قبل أنْ يكون مريضًا، وكَمَن يسمع هذه الحقيقة لأوّل مرةٍ تساءل:

- جيت متأخر؟! أنت بتحاول تخلقلي كدبة تبررلي بيها فشلي؟ وللا هتقوللي، خفت على سمعتك الوظيفية كدكتور فاتأخرت في طلب المساعدة؟ وللا مكنتش لاقي لسّه حد تثق فيه؟

هزّ حسين رأسه نافيًا وهو يضمُّ شفتيْه إلى بعضهما بعضًا للحظةٍ قبل أنْ يقول باقتضابٍ:

- لأ، بس زي ما قلتلك، عاندت، كنت فاكر إني هقدر أساعد نفسي بنفسي، مبدأ «أنا أستطيع»، أكتر مبدأ في مجالنا بيودي في داهية.

ضرب إبراهيم كفًا على كفٍّ وهو يتطلّع إلى وجه صديقه قائلاً باستنكارٍ:

- تساعد نفسك بنفسك في أعراض اكتئاب حاد؟! أنا بجد مش فاهم.

صمت حسين مرةً أخرى، وضاقتْ حدقتاه، ثم قال:

- هفهّمك، متهيألي إنّ الأوان تعرف دا لو فاضي تسمع.

هزّ الأخير رأسه أنْ نعم، وقد تنبهّت كلُّ حواسّه وشحذها تركيزًا إثر تلك الجملة الأخيرة التي أشعلت فضوله لحدٍّ أقصى، وهو يقول:

- وأنا امتى مكنتش فاضيلك؟


fb.com/groups/exchange.book

أمال حسين رأسه، وأفصحت شفتاه عن شبح ابتسامةٍ طلّتْ امتنانًا، لجزءٍ مِن الثانية قبل أنْ يستطرد:

- هيّا حكاية بدأت من حوالي عشرين سنة؛ مريض، لا يمكن هنساه ولا هنسى اسمه، دخل عليّا العيادة مع أمه وهو ابن تلات سنين.

صمت لحظةً مُستعيدًا الذكريات قبل أنْ يُتابع ببطءٍ مُتأمّلاً:

- اسمه يوسف.

*****

## العيادة، فبراير، ١٩٩٦ م.

- طمنني يا دكتور، يوسف ابني عنده إيه؟؟

خرجت تلك الجملة مِن بين شفتيْ الحاجّة والدة يوسف، وهي تراقب باهتمامٍ شَغوفٍ وجه الرجل الذي وضع نظّارته المُخصّصة للقراءة فوق عينيْه مُطالِعًا بعض الأوراق الخاصّة بفحوصاتٍ وتحاليلَ أُجرِيَتْ ليوسف، وهو يشير لها بيده أنْ صبرًا دون أنْ ينبسَ ببنت شفةٍ، في حين جلس يوسف الطفل ذو الأعوام الثلاثة إلى جوارها متشبّثًا بيدها، وكأنّما يستمدُّ الأمان في هذا المكان المُخيف بالنسبة إليه مِن مجرد وجودها هي.

حاولت بصعوبةٍ كَتْمَ فضولِها الجارف، ورغبتها في الاطمئنان على فلذة كبدها خلال تلك اللحظات التي مرَّتْ عليها كالدهر، وهي تُراقِب دكتور حسين الذي أخذ يطالع الأوراق أمامه باهتمامٍ وحرصٍ شديديْن، بينما وقف سلامه في الركن البعيد مِن الحجرة إلى جوار الباب مُستنِدًا بظهره إلى الحائط متمنيًا أنْ تنتهي الجلسة في أسرع وقتٍ، حتى يتمكَّن مِن إشعال سيجارةٍ لن يسمح له بتدخينها في تلك العيادة المكيَّفة.

كان الدكتور قد انتهى مِن مراجعة الأوراق، فالتفَتَ إلى الأم قائلاً وهو يرسم ابتسامةَ الطمأنةِ التي اعتادها على وجهه:

- ها يا حاجّة، عايزة تطمني على أيه بس؟ ما يوسف أهو الحمد لله زي الفل.

تهلَّلت أساريرها وسَرَتْ ينابيع الفرحة خلال تفاصيل وجهها كلّه، وهي تندفع قائلةً:

- أيه؟ يعني ابني سليم الحمد لله؟

هزَّ الرجل كتفيه وهو يُميل طرف شفته بشيءٍ مِن استنكارٍ، قبل أنْ يُشير بيده موضِّحًا وهو يقول:

- يا حاجّة، إنتي ابنك أصلا مش مريض وهيخفّ، هوا مبيشتكيش من حاجة عضوية ولا عصبية واضحة لحد دلوقتي، ابنك بس متأخر شوية في الكلام، ودي ممكن تكون حالة عارضة، أو حتى لو نفسية، بتتعالج تدريجيًا، ومع


fb.com/groups/exchange.book

الوقت وحسب الظروف المحيطة بتتحسن. وبعدين أنا مش عايزك تقلقي، أنا كل الورق اللي قدامي مبيقولش شيء واضح أو نهائي، كلها اشتباهات بس، خصوصًا إنه لسه صغير، وفي سِنّه كتير من الأطفال بيوصلوا للسن دا وهمّا لسه مبيتكلموش...

توقّف عن الحديث حين قاطعهم سلامة بإشارةٍ مُرتبكةٍ وهو يقترب منهم وكأنما يستأذن لقول شيءٍ ما، أتاح له صمت الرجل الفرصة للإدلاء به فاستغلّها على الفور قائلاً:

- بعد إذنَك يا دكتور، بعد إذنِك يا حاجّة، أنا هنزل بس أستناكي تحت قدام باب العيادة.

التفتَتْ إليه الحاجّة باستنكارٍ قائلةً:

- خليك يابني شوية، احنا خلاص عشر دقايق ونازلين كلنا، مش هنعطل الدكتور أكتر من كدا.

أشار سلامة بيده إشارةً مُتخاذِلةً، وعقله يبحث دون جدوى عن حُجّةٍ منطقيةٍ للخروج وشرب سيجارة في الخارج وهو يقول:

- أيوه ماشي، أنا هنزل تحت بس أقرب العربية من الباب عشان احنا راكنين بعيد.

ضربت الحاجّة كفًا على كفٍّ قائلةً:

بابني بقولك اصبر شوية معايا، الدنيا مطارتش، أنت عارف إني تقيلة في نزول السلم وهحتاجك معايا تسندني، ولو خرمان خلاص وعايز تشرب سيجارة، مَحَبَكِتش! كلها خمس دقايق وننزل.

كتم سلامة غيظه وحنقه بداخله، وحاول ألّا يَظهر على ملامح وجهه وهو بْحني رأسه مشيرًا بيده أنْ فهمت، بينما التفتّت هي مرةً أخرى نحو الطبيب قائلةً:

آسفين يا دكتور، اتفضل حضرتك كمل كلامك.

أشار الرجل بيده مغمغمًا:

- لا أبدًا، محصلش حاجة.

لم شبك أصابع كفيْه في بعضهما بعضًا، فوق المكتب مستطردًا:

- شوفي حضرتك، باختصار عشان برضو مطولش عليكي وأحيّرك بتفاصيل علمية مش هتهمك في حاجة، خليني أقولك إنّ موضوع تأخُّر الكلام عند الأطفال دا منتشر جدًا اليومين دول، ويوسف سِنّه لسه صغير، فخلّينا منستبقش الأحداث، ونشوف في الزيارة الجاية، جايز الوضع يتحسن.

كانت بداخلها رغبةٌ جارفةٌ لمعرفة كلّ شيءٍ عن حالة ابنها العلاجية، لكنّ جهلها بمثل تلك الأمور، جعلها تبتلع أسئلتها مقتنعةً بكلمة الدكتور أنّ جميعها مصطلحاتٌ علميةٌ لن تفهم هي حرفًا منها، فقط هزّتْ رأسها، ثم نهضت مُعتمِدةً على ذراع المقعد الذي كانت تجلس عليه وسلامة يقترب


fb.com/groups/exchange.book

منها بسرعةٍ لتستند على كتفه وهي تنظر نحو الدكتور قائلةً:

- كتّر خيرك يا دكتور، تعبناك معانا، وربنا يجعل شفاه على اديك يا رب.

نهض الدكتور حسين بدوره ليصافحها، وهو يشير بيده لها موضحًا:

- شفاه أيه يا حاجّة بس؟ للمرة الألف بقولك وبطمّنك، يوسف مش مريض لحدّ دلوقتي على الأقل، وحتى لو اكتشفنا إنّ في مرض لا قدر الله، فمتقلقيش، علاجه بإذن الله بيبقى في الجلسات النفسية اللي ياما عملتها مع حالات كتير زيه، وزي ما بقولك دايمًا، مفيش نسبة أو نتيجة معينة لحد دلوقتي أقدر أحددهالك، بس أدينا بنقول يا رب، وبنحمده على كلّ شيء في الأول والآخر.

تنهّدتْ مُتمتِمةً:

- الحمد لله الذي لا يُحمَد على مكروهٍ سواه.

ثم حيّت الرجل ودارت على عقبيْها مُتمسّكةً بيد سلامة الذي اتّجه بها نحو الباب ويدا يوسف الصغير تتشبّث بعباءتها بقوةٍ قبل أنْ تتوقّف أمام الباب وتلتفت نحو الدكتور، وكأنّما تذكّرت شيئًا قائلةً:

- احتمال يا دكتور معرفش آجي بنفسي الأسبوع الجاي عشان السلّم عندكوا صعب وأنا ميبقاش قادرة، فَيا إمّا هيجيلك مع طارق، أو مع سلامة.

هزّ الرجل رأسه أنْ لا مشكلة قائلاً:

هادي يا حاجة، ربنا يديكي الصحة.

همهمتْ قائلةً:

أنا بقول لحضرتك بس عشان لو في فلوس أو حاجة تـ..

قاطعها الرجل بابتسامةٍ مهذبةٍ وأسلوبٍ لبقٍ:

متشيليش هم ومتفكريش في الكلام دا يا حاجّة، المهم عندنا بس يوسف يبقى زي الفل.

استوعبت سبب مقاطعته، وهي تبادله نفس الابتسامة المُطعَّمة بحفنةٍ مِن الامتنان، مُتمتِمةً:

. يا رب.

ثم دارت على عقبيْها مرةً أخرى، ورحلت.

*****

في خطواتٍ متباطئةٍ، وبوجهٍ عابسٍ ممتعضٍ، دلف طارق إلى الورشة، غير آبهٍ بإشارات الترحيب التي أفصحت عنها أيدي وشفاه بعض عمال المكان، وهو يرمق الحاج عمران الجالس خلف مكتب والده بنظرةٍ سريعةٍ مُختلِسةٍ قبل أنْ تنطلق مِن داخله زفرةُ ضيقٍ حارّةٍ مُقتضَبةٍ أخرج بها ما يعتمل في نفسه من خواطر.


fb.com/groups/exchange.book

خمسُ سنواتٍ مرّت منذ رحيل والده الذي لازالت صورته الكبيرة ذات الشريط الأسود في ركنها العُلويّ تحتلُّ مكانها الثابت المُستحَقّ خلف مكتبه الذي احتلّه مَن لا يستحقّ. نعم! كما توقعتم تمامًا، لقد تزوّج عمران والحاجّة، بشكلٍ مُبسّطٍ وتلقائيٍّ، كان الأمر طبيعيًا للغاية؛ امرأةٌ وحيدةٌ مريضةٌ وثقيلةُ الحركة، بولدين لها أحدهما مريضٌ بمرضٍ نفسيٍّ يجعله غير قادرٍ على التفاعل مع الآخرين إضافةً إلى الرعاية الخاصّة التي يحتاجها، ومشروعٌ كبيرٌ كالورشة ينبغي أنْ يُديره عقلٌ واعٍ.

هكذا سارت الأمور، لتتوقّف فقط عند عقل طارق، إنّه يرفض الوضع، الحاج عمران، صديق والده الوحيد سابقًا، وزوج أمّه منذ أعوامٍ ثلاثةٍ، مازالت روح الفتى العنيد بداخله ترفض هذا الوضع المفروض، ثلاثُ سنواتٍ مرّتْ تنامتْ فيها بداخله كراهيةٌ نحو الرجل الذي أصرّ أنْ يلعب دور بديل الأب الذي لن يليق به، كراهيةٌ لا يعلم هو نفسه أسبابها، لكنها وُجِدت، وعلى الرغم من محاولات عمران المستمرّة لكسب ثقته، محاولاته التي باءت كلها بالفشل، إنها القلوب، لا تدرك المنطق، ولا تعمل تحت إمرة عقلٍ، عندما تكره فهي لا تبحث عن أسبابٍ، وحين تحبُّ، لا يُوقِفُها شكلٌ أو فعلٌ أو مكانٌ.

إنّه يحبُّ الحاج عمران صديق والده، ولكنه يكره وبشدّةٍ الحاج عمران زوج الأم، وكلاهما للأسف واحدٌ. احتقر في ذاته وبشدةٍ تلك الشخصية الحسّاسة الضعيفة التي خُلِقَ بها، تمنّى لو كان شخصًا يمكن للآخرين الاعتماد عليه، شخصًا قاسيَ القلب، حادَّ المِراس، ربّما حينها كانت الأمور ستختلف، ربما

قالت هي ستجد بديلاً مطمئنًا لقلقها، لكنّه ضعيفٌ، أبلهُ، وتافهٌ!

طارق، بابا بينادي عليك.

نطقتْها وفاء، الفتاة ذات الأعوام العشرين بشعرها البنيّ الطويل، وذلك الوجه المشرق الصبوح ذو الشفاه المكتنزة الصغيرة والعينان الخضراوان، وهي تهزّه بأطراف أناملها، فالتفتَ إليها قبل أنْ تنفرج أساريره على نحوٍ واضحٍ، تعجّب له هو نفسه، وهو يسأل:

أنتي أيه اللي جابك هنا؟

أنا لسه جاية مبقاليش خمس دقايق، مشفتكش وأنا داخلة عشان أنت مستخبي هنا في الزاوية الغريبة دي، بجيب لأبويا عامود الأكل بتاعه اللي مامتك عاملهولو، وراجعة على طول، عشان هيا لوحدها في البيت مع يوسف، المهم بس عشان متأخرنيش، أبويا بينادي عليك، روح شوفوا عايز أيه، سلام.

كانت تتحدث بسرعةٍ مفتعلةٍ كعادتها الدائمة معه، كأنّما تتهرّب مِن الإطالة معه لسببٍ ما، وما أنْ أنهت عبارتها حتى انطلقت في طريقها كنسمة هواءٍ عَبَرَتْ ولم يتبقَّ منها سوى الأثر، ظلّت عينا طارق معلقةً بها حتى اختفت في الأفق، ما باله؟ وما ذلك الشرود الذي يصيبه كلما رآها؟

«بتحبها بجد يا طارق؟» تحاشى ذلك السؤال المتنامي داخله تمامًا، كتحاشيه النظر المباشر في وجه والدها الذي استقبله في مكتبه قائلاً بلهجةٍ متسائلةٍ


fb.com/groups/exchange.book

حاول أنْ يجعلها ودودةً:

- أيه يا طارق يابني؟ ، ناديت عليك يجي عشر مرات وأنتا ولا هنا؟؟

تمتم طارق باقتضابٍ:

- معلش.

أشار عمران بيده وهو يفتح عامود الطعام الموضوع أمامه على المكتب قائلاً:

- طب يلا، روح اغسل أيدك وتعالى نفطر سوى، أمك عاملالنا الأكل بزيادة النهارده، وريحته تجوع اللي عنده تخمة.

- متشكر.

- متشكر أيه بس؟ هوا أنا بعزم عليك؟ ما تقعد نشقّ ريقنا أنا وأنت بلقمة مع بعض.

- مليش نفس، بالهنا والشفا عليك، بعد إذنك.

قالها طارق واستدار ليترك المكان، فاستوقفه الحاج عمران وهو ينهض من خلف مكتبه متجهًا إليه قبل أنْ يضع يده على كتفه قائلاً:

- مالك يا طارق؟

أزاح طارق يده عن كتفه بهدوءٍ وهو يقول:

fb.com/groups/exchange.book

مفيش، أنا كويس أهو.

رمقه الحاج عمران بنظرةٍ طويلةٍ متفحصةٍ محاولاً سبر أغواره، قبل أنْ يطرق برأسه متنهدًا تنهيدةَ يأسٍ قصيرةً وهو يتمتم:

- مفيش فايدة يعني؟

تساءل طارق بملل:

- مفيش فايدة في أيه بالضبط؟

تمتم عمران بيأسٍ:

- مفيش فايدة أنك في يوم كدا تقتنع إني مش راجل وحش؟ مفيش أمل إني أقدر في يوم أقولك يابني من غير ما أحس إنك مش قابل كوني زي أبوك؟ يابني دا أنا ربنا يعلم إني مش طمعان فحاجة منك ولا من حد، أنا مبعملش معاكوا غير اللي ضميري قاللي عليه إنه الصح مع تِركة سابهالي راجل كان فيوم من الأيام وهيفضل أخويا الكبير وأعز صاحب عرفته في حياتي.

بدا شيءٌ مِن التأثُر على وجه طارق أخفاه بصعوبةٍ وهو يغمغم:

- طب وأيه لازمة الكلام دا دلوقتي؟ بتقول كدا ليه؟

أجاب الرجل:

- بقولوا عشان تعبت، نظرتك ليا دبحاني، يوم ورا يوم وسنة ورا سنة وأنت عمّال بتبعد أكتر ما بتقرب، والعمر عمّال يجري بينا، يا طارق أنتا النهارده


fb.com/groups/exchange.book

شاب ٢٤ سنة تقريبًا، وفي يوم من الأيام هييجي سواء قريب أو بعيد، هتكون أنتا راجل البيت وهتشيل لوحدك مسئولية أختك وفاء وأخوك الصغير يوسف اللي ربنا لوحده هو العالم اللي عنده دا هيفك منه وللا هيفضل بحالته دي للأبد؟ وأنا مش عايز اليوم دا ييجي وأنت لسه شايفني بصورة الندل اللي مُصِرّ تشوفني بيها دي، أرجوك يا طارق حاول تفهم، أنا وأمك لو كنا لقينا أي وضع تاني غير دا في مصلحتكو كنا عملناه ومتأخرناش، دا كله كان عشان خاطركوا، صدقني، والله العظيم يابني أنا مبكرهك، ولا عايزك تكرهني.

كانت كلماته تجاهد للوصول إلى تلك النقطة المُغلَقة في عقل الفتى متصارعةً مع ذلك الجدار النفسيّ المُمتدّ بينها وبينه، صراعٌ مجهدٌ له، مربكٌ لطارق الذي وقف صامتًا حائرةً أجابتُه فأخرجها على هيئة همهماتٍ غير مفهومةٍ، رسمتها شفتاه بصوتٍ هامسٍ، قبل أنْ يغادر المكان بنفس الرأس المُطرِق، والنظرة اليائسة، والخطوات المتباطئة الثقيلة، مخلّفًا وراءه الصمت المرير، ولا شيء سواه.

*****

بعباءتها السوداء التي اتّشحت بها فوق جلبابٍ منزليٍّ بسيطٍ تأكيدًا للحزن البادي على وجهها المُحمرّ مِن فرط الدموع المُنسابة فوق وجنتيْن مكتنزتيْن

على الرغم مِن عمرها الذي شارف السبعين، وإنْ لم يَبْدُ هذا منطقيًا بالنسبة لي على الأقل وأنا أجلس أمامها فوق ذلك المقعد الخشبيّ الصغير، وإلى جواري كان حسام يحاول إبعاد أحد أحفادها الصغار الذي قفز متعلقًا في رقبته مرحًا وهو يصرخ بتكرارٍ مزعجٍ، جعلني أكاد أفرغ خزينة مسدسي كلها في رأسه من فرط التوتر الذي سبَّبه لي.

كان مِن الواضح أنّ تلك المرأة الجالسة أمامنا مِن أولاء الذين يمضون حياتهم كلّها في تبسيط الأمور، إنها تلك الجارة الهادئة الودود البسيطة التي أخبرَتْكَ عنها جدَّتُك يومًا، تلك التي وجدَتْها حاضرةً في كلّ المناسبات الخاصّة بكم، دون أنْ تعي سببًا منطقيًا لذلك، ودون أنْ تحاول حتى السؤال عنها.

ربما هي جزءٌ مِن العائلة، شيءٌ مِن قبيل «بنت عمة خال أبو فلان اللي كان واخد فلانة»، أو مِن مثيلاتها مِن العبارات التي لن تُجهِد عقلك أبدًا في محاولة استيعابها، ولربّما كانت مجرد جارةٍ، عاشت خلف ذلك الباب المفتوح دومًا أمامكم، مهمتها الأساسية هي منعك مِن لعب الكرة في البهو الخارجي مِن منزلكم حتى لا تتقافز كرتُك المتّسخة فوق أوراق الملوخية التي قامت بتخريطها منذ قليلٍ، وتركَتْها لتجفّ أمام العتبة المفتوحة، بالإضافة إلى تحضير ذلك القرطاس الممتلئ بخليط الملح والشطة الذي أرسلتك والدتك لطلب القليل مِنه بعد عبارةٍ مُهذّبةٍ حفظتها مع التكرار: «ماما بتسلم عليكي و بتقولك...»


fb.com/groups/exchange.book

كانت منهمكةً في بكائها وإلى جوارها جلس شابٌ في منتصف الثلاثينات من عمره، كثيف الشعر إلى حدٍّ بدا معه قريب الشبة بالغوريلات مع تلك الفانلة الداخلية التي جلس مرتديًا إياها فوق بنطالٍ قماشيٍّ مخططٍ هو الباقي من بيجامةٍ ضاع جزؤها العلويّ، أو هو لم يقرر ارتداءها بعد، بدا أنه ابنها ووالدُ بعض هؤلاء الأطفال المنتشرين في المكان مُصدِرين إزعاجًا مضاعفًا فوق إزعاج ذلك الذي مازال يحاول إجبار حسام على اللعب معه.

ربْت الشاب بجوارها على كتفيْها وضمّ رأسها إلى صدره، قائلاً بصوتٍ جِدّيٍّ وكأنما يزعجه بكاؤها أمام هؤلاء الأغراب:

- خلاص بقى يامّه، اهدي، اهدي البقاء لله.

قالها ثم التفت نحونا معتذرًا، وهو يقول:

- معلش يا جماعة، أنا آسف والله مش عارف أقولكوا ايه، بس أصل هي كت مرتبطة أوي بالحاجّة والبيت كله، فطبيعي الخبر بس يزعلها شويتين.

ثم صمت متأملاً نظراتنا المتفهِّمة، قبل أنْ يقول بهمةٍ:

- صحيح دا الواحد معندوش دم البعيد، شوف ازاي نسيتوني أعمل معاكوا الواجب، الشاي بتاعكوا ايه؟

أشرت له بيدي أنْ لا، وأنا أقول:

- لا والله متتعبش نفسك ملوش لزوم، إحنا بس هما كام سؤال هنسألهم

fb.com/groups/exchange.book

للحاجّة وهنمشي على طول، عشان من أول اليوم واحنا بنلف فجبنا آخرنا من التعب الصراحة.

ارتفع صوته بإصرارٍ، وكأنه لم يسمعني مناديًا إحدى السيدات في الخارج، ربّما شقيقته أو الزوجة على نحو شعرتُ أنّ تكراره قد يشقّق الغرفة الصغيرة مُصْفرّة الجدران التي كنا فيها قائلاً:

- إحسان، يا إحساااان، اتنين شاي وهاتي السكرية بره، بسرعة.

تدخّل حسام قائلاً وهو يدفع بعنفٍ غير مقصودٍ ذلك الصبي الذي بلّل له مساحةً ليست بالبسيطة من بنطاله:

- ياعم الله يخليك، مش عايزين شاي، إحنا عايزين بس فوطة وللا منديل وللا أي حاجة نمسح بيها الكلام اللي جه علينا دا وربنا يخليلك عيالك.

تدخّلت المرأة وقد انتهت على فورها مِن وصلة البكاء الطويلة، قائلةً بوجهها الدائري المُحمرّ وأنفاسها المتهدّجة موجهةً حديثها إلى حفيدها صاحب الحدث:

- يابن الكلب يا حيوان، أيه اللي عملته في عمك ده؟ اجري يلا روح لأمك خليها تغيرلك هدومك، غور وأنت نسخة من أبوك يا عريان يابن العريان.

وضع الصغير يديه على خصره، وهو يقول بغضبٍ طفوليٍّ:

- متقوليش كدا يا تيته، أنا مش عريان ولا بابا.


fb.com/groups/exchange.book

ردّت عليه قائلةً:

- لأ عريان! أنت وأبوك الاتنين جتولي عريانين وأنا اللي كسيتكو يا كلاب، ويلا اجري على برة بقى زي ما قلت بدل ما أقوملك.

انعقد حاجبا الرجل الجالس إلى جوارها في شيءٍ من ضيقٍ، مُنتظرًا خروج الصغير مِن الغرفة قبل أنْ يغمغم بعتابٍ:

- أيه دا يامه في أيه؟ بتهزقيني ليه قدام الواد؟

لكزته بكوعها المكتظ بقوةٍ، وهي تغمغم:

- هزقتك أيه ياوله، مانت جايلنا عريان أنتا التاني أنا مكدبتش، أنا عارفة أخويا دا مكانش يركز شوية، وهو بيجيبك؟

تدخلتُ أنا بنفاد صبرٍ مستترٍ، لقطع مشهد العلاقات الأُسَرية الدائر أمامنا قائلاً:

- معلش يا أم إحسان، احنا جاينلك كدا في نص اليوم بخبر وحش زعلك، بس أصلنا لما سألنا عند الورشة قالولنا إنك من الناس اللي ممكن يساعدونا بدرجة كبيرة عشان نوصل للي ارتكب الجريمة دي.

تنهّدتْ بحرارةٍ محاولةً استمداد كميةٍ أكبرَ مِن الدموع على مقلتيها متمتمةً:

- آاااااه يا قلبي، دا اللي عمل كدا دا حسبي الله ونعم الوكيل فيه، ربنا ما يوريه يوم تاني على وش الأرض، هوا حاساه اللي في بالي اللي جاب لأمه

وجع القلب، وللا بلاش عشان بعض الظن أثم، أنا مش قادرة أصدق لسه، والله يابني دا زي ما تكون جبت سكينة ودبحتني بيها، دول عمره...

قاطعها حسامٍ قائلاً وهو يقاوم التثاؤب:

يا حاجّة، إحنا آسفين والله، بس أرجوكي تحاولي تركزي معانا شوية، إحنا عايزين نعرف منك شوية معلومات، وياريت تطلعينا برضو على شكوكك، ومتخافيش إحنا في شغلنا بنعرف كويس نفرق بين الشك والاتهام.

هزّت أم إحسان رأسها أنْ موافقة، وهي تعدّل مِن وضع قدميْها فوق الأريكة، التي جلست عليها قائلةً بعينيْن تتنقلان فيما بيننا:

- حاضر يا حبايبي، أنا مستعدة أعملكوا أيّ حاجة ممكن أساعد بيها، قولولي بس انتوا محتاجين أيه؟

أجبتُها ببطءٍ وبمنتهى الوضوح والاقتضاب:

- احنا عايزين نعرف منك كلّ معلومة متاحة، وكل حاجة تعرفيها عن اللي كان بيحصل ورا باب الشقة اللي قدام بابك ده، كل حاجة حتى لو تافهه، ممكن؟

أجابتني بدورها ودون تردُّدٍ:

- ممكن طبعًا، وأيه اللي ممكّنوش؟

قالتها وهي تعدّل مِن وضعها أكثر، بشيءٍ مِن صعوبةٍ صنعتها أطنان الدهون


fb.com/groups/exchange.book

المتراكمة على جسدها، مستطردةً:

- بُص يا بني!

ثم بدأت تروي، باستفاضةٍ.

*****

# الفصل الثالث

# القاعدة الثانية: تأكد أن أحدًا لا يستحق

fb.com/groups/exchange.book

ومتزعليش،
أنا لما سبتك، كلّ حاجة اتغيّرت
ريحة الشوارع والدكاكين القديمة والبيوت
كإنّي ببدأ من جديد رحلة حياتي
أو بموت.

fb.com/groups/exchange.book

مطلقون عليها الجزيرة، مقاعدُها تفترش الرصيف الواسع المُمتدّ في منتصف الطريق فاصلةً بين اتجاهين مُعاكِسين للسيارات، تعجُّ كعادتها بروّادها مِن مُشاق الشيشة ومُدمني لعب الطاولة الذين اصطفّتْ سياراتهم حول المكان بشكلٍ عشوائيٍّ، لم يختلف في شيءٍ عن عشوائيتهم هم أنفسهم داخله؛ الأغاني الشعبيّة الصاخبة تنبعث مِن مكبّرات الصوت المنتشرة في المكان، وتُضفي إلى المشهد ضوضاءَ تماشت مع الأضواء الشبيهة بعيون شياطينٍ ترقص وسط الأدخنة المتصاعدة مِن الأفواه هنا وهناك.

مِن هذا الصخب، وفي أحد الأركان، جلس طارق وسلامة، يُجاوِر كلاهما ذلك البدين أصلعَ الرأس ملوّحًا بيدٍ ميّزها جرحٌ غائرٌ بطول الذراع وهو يقول بصوته الأجشّ موجّهًا حديثه إلى طارق:

- بس القهوة نوّرت مِن ساعة ما بقيت تقعد معانا هنا يا أستاذ طارق.

ابتسم طارق وهزّ رأسه قبولاً للمُجاملة الواضحة، بينما مطّ سلامة شفتيْه


fb.com/groups/exchange.book

دون اهتمامٍ وهو ينفثُ دخان سيجارته على شكلِ حلقاتٍ في الهواء، في حين أكمل صاحب الصوت الأجشّ حديثه قائلاً:

- متستغربش من أستاذ طارق اللي بقولها دي، أنا عارف إنك أصغر مني بكتير، بس حفظ المقام واجب.

ثم التفتَ إلى رابعهم حادُّ القسمات، الجالس إلى جواره ولَكَزَهُ في كتفه قائلاً:

- ابن بلد وشبهنا الأستاذ طارق، مش كده وللا أيه يا سعدني؟؟

أومأ سعدني برأسه أنْ نعم، وخرطوم الشيشة عالقٌ بين شفتيْه لا يفارقهما مغمغمًا:

- أَصْلي!

تدخُّل سلامة قائلاً بحدّةٍ بدا أنّها المعتادة بينهم:

- شبارة، خفّ تعوم، الراجل تالت أو رابع مرة يجي يقعد معانا، مش كلّ مرة تشغلُنا الشريط وتقعد تغني.

اهتزَّ جسد شبارة الضخم مع كرشه فوق المقعد، مُقهقِهًا قبل أنْ يقول:

- يا عمّ سلامة وأنت مالك؟ بحبّ الراجل يا أخي، دا أنضف واحد يجي يقعد عالجزيرة من سنين.

ثم استمرّ في قهقهته.

شارة! ذلك البلطجي صاحب الشهرة الأكبر في المنطقة والمشتبه به رقم واحد، أو يمكننا القول اختصارًا إنّه أحد أكبر أشقياء المنطقة؛ ملفُّه الأمنيّ تربّنه العديد من السابقات الإجرامية التي يحفظها رجال أمن ومخبرو الدائرة عن ظهر قلبٍ، نشاطاتُه تنوّعت ما بين مخدراتٍ وسرقةٍ وبلطجةٍ واختطافٍ، وكذا عمليات تسليم مجرمين لرجال الحكومة أنفسهم إنْ لزم الأمر وحكمتْ المصلحة في بعض الأحيان.

علاقته مع سلامة كانت مُقتصِرةً على السيجارة الملفوفة وجلسة المقهى المعتادة المطليّة بطلاءٍ مِن مودّةٍ صنعها الاعتياد ليس إلا، طارق الضيف الجالس بينهم، جديدُ العهد والدراية بتلك الأجواء، يتأمّل ما حوله كطفلٍ نابشٍ عن جديدٍ يمكنه ملء الفراغ المُحبِط الذي خلّفه له رحيل والده منذ ما يربو على العام، غيابٌ مفاجئٌ بتصريف القدر اقتصّ مِنه جزءًا لا يُستهان به مِن الأمان والشعور بأنّ هناك صدرٌ ما مُهمّته الاحتواء.

لقد اضطرّ الفتى لكشف الجزء الضئيل مِن الثقة الذي يمتلكه بداخله، في الوقت الذي باتت فيه الظروف لا تسمح بتجربةٍ سوى على أرض الواقع، يميلُ نحو سلامة أقرب الجالسين إليه قائلاً:

- الشيش هنا أيه الحلو فيها؟

رفع سلامة أحد حاجبيْه بتعجُّبٍ وهو يجيب:

- في الفواكة معرفش، أغلبية اللي هنا مبيشربوش إلا المعسل العادي، بس


fb.com/groups/exchange.book

استنى هنا؟ هوا أنتا بتشيش أصلاً؟

هزُ طارق كتفيْه وهو يقول:

- عادي يعني، هجرّب.

مطْ سلامة شفتيْه بعدم رضًا، بينما صفّق سعدني بكلتا يديه مكرّرًا:

- أَصْلي!

رمقه سلامة بنظرةٍ جانبيةٍ حادّةٍ قبل أنْ يغمغم:

- طب خلي بالك بقى، عشان هيا كلّ حاجة زفت في الدنيا بتبتدي بكلمة هجرب بتاعتك دي.

تدخّل شبارة قائلاً، وهو يمدُ يده متناولاً السيجارة مِن بين أصبعيْ سلامة:

- أيه يا سلامة مالك؟ متسيب الراجل على راحته، الدخان دا علاج يا عمنا.

رفع سلامة إصبعه مشيرًا إلى شبارة قائلاً بجدّيةٍ:

- لا، منهزرش في دي يا شبارة، فُكّك من طارق.

قالها ثم التفت إلى طارق مُكمّلاً:

- متزعلش مني يا طارق، احنا آه من دور بعض وأنا مليش سُلطة ولا أمر عليك، بس أنا بكلمك في الصح، أعذرني أنا بعتبرك أخويا، ومن الأمانة مدام انت معايا أنصحك برضو.

fb.com/groups/exchange.book

ظهرتْ في تلك الأثناء، سيارةٌ دوريةٌ مِن دوريات الشرطة الزرقاء التي يطلقون عليها اسم أتاري، توقَّفتْ بالقرب مِنهم إلى جوار سيارات رواد المقهى، وبدا مِن داخلها رأس ذلك الشاب، ببذلته البيضاء ذات النجوم على الكتفيْن وهو ينظر نحوهم مشيرًا بإشارةٍ ما جعلت سعدني يميل هامسًا لشبارة بهدوءٍ صنعه اعتيادُ الموقف:

دا شريف بيه، أنتا نضيف ولا أيه يا شقيق؟

في حين شعر طارق باضطرابٍ وقلقٍ، التقطته عينا سلامة الذي حاول طمأنته قائلاً:

- متبصش ناحيته، واقعد عادي متقلقش، إحنا كده كده شوية وهنقوم نمشي.

أطلق شبارة ضحكته الخشنة القصيرة التي اهتزَّ معها كرشه الضخم مرةً أخرى، قائلاً وهو ينهض موجِّهًا نظرةً إلى ذلك القادم:

- دا زبوني أنا يا رجالة، والإشارة دي ليا أنا، مفيش داعي للقلق، أصل أنا وحبايبي بتوع الداخلية دول عِشْرة وحبل وصال لا ينتهي ولا يتقطع، منستغناش عن بعض أبدًا.

ثم التفتَ إلى طارق وهو يغمز كاشفًا عن صفِّ أسنانه الصفراء غير المتناسقة قائلاً:

- مش قلتلك أنت أنضف واحد قعد في القهوة دي؟


fb.com/groups/exchange.book

قالها ثم دار على عقبيه، متّجهًا نحو السيارة الزائرة مؤديًا التحية للجالس بداخلها في أسلوبٍ مسرحيٍّ وهو يقول:

- شريف باشا، حبيب الكل، نورت الجزيرة، و كل الجزر المجاورة.

ببرودٍ تامٍّ، ومِن خلف نافذته، التقط الرائد شريف سيجارةً مِن علبته الخاصّة دسّها بين شفتيه وأشعلها نافثًا دخانها في وجه ذلك الأخير، الذي اقترب برأسه مِن الخارج قائلاً:

- أيه يا عم؟ أنتا تبت وإحنا منعرفش وللا زعلان مننا ولا أيه حكايتك؟

أدرك شبارة ما يرمي إليه الرجل في حديثه، ولكنه أجاب بشكلٍ طبيعيٍّ تمامًا:

- أزعل منكوا أيه بس يا باشا وأنا أقدر؟ وبعدين مانتوا الراجل بتاعكوا ملازمني على طول زي ضلي أهو، هزعل منكوا ازاي أنا بس وأنتوا ماليين عليا الدنيا كده؟

أمال الرائد شريف رأسه مِن داخل السيارة، حتى يتمكّن مِن رؤية ملامح شبارة الواقف خارجها بشكلٍ كاملٍ على ضوء أنوار المقهى المتراقصه خلفه، والتي انعكست على زجاج سيارته مخلفةً ضوضاءَ بصريةً مزعجةً، وتغيّرت نبرته الهادئة شيئًا ما إلى الصرامة، وإنْ لم يفقد في ذات الوقت أسلوبه التهكميّ الساخر قائلاً:

- أمال ما مضيتش في القسم عندنا امبارح ليه ياروح أمك؟

حاول شبارة احتواء عصبية الرجل، الذي كان يعلم جيدًا أضرارها وهو يسرع خطاه:

يا باشا مشاغل والله، غصب عني معلش.

همس التهكُّم ردّ شريف:

طب ربنا يعينك و يقويك على مشاغلك يا سيدي، آه صحيح نسيت أقولك، في عربية اتسرقت النهاردة الصبح، وشكل الموضوع رخم وهيطول، بس أنا عارف مانتا عارفني، مبحبش أسيب قضية مفتوحة كتير.

أدرك شبارة ما يرمي إليه الرجل بوضوحٍ أكبر هذه المرة، فابتلع ريقه وهو يحاول الحفاظ على ابتسامته بصعوبةٍ قائلاً:

طب ليه كدا بس يا شريف باشا؟ ما أحنا مع بعض زي الفل يعني؟

رمقه شريف بنظرةٍ باردةٍ وهو يقول:

متتكررش تاني، عشان مطلعش أيمان اللي خلفوك وأجيبك ملفوف بملايه، خلّص قعدتك هنا، وتعال القسم كمّل سهرتك معاهم زي كل يوم، وللا تحب أبعتلك اللي ياخدك؟ يعني، لو مشغول برضو إحنا ممكن نسهلها عليك.

رفع شبارة يده في تحيةٍ متوسّلةٍ، مزَجَها مع ضحكةٍ مُجامِلةٍ قصيرةٍ أطلقها وهو يقول:

- لا ياباشا، ربنا يخليك، أنا هاجي لوحدي.


fb.com/groups/exchange.book

لاح على شفتيْ شريف شبحُ ابتسامةِ المُسيطِر، ثم دار بعينيه راصدًا المكان للحظةٍ قبل أنْ يقول متسائلاً:

- واضح إنّ في ضيف جديد معاك في القعدة.

أجاب شبارة على الفور ودون أنْ يلتفت إلى حيث ينظر:

- آه يا ريس، ده الأستاذ طارق، ابن الحاج عبدالحميد صاحب ورشة النجارة اللي على أول الشارع الله يرحمه، بيجي يقعد معانا يفك نفسه بس، راجل نضيف، ومحترم أوي.

تمتم شريف، وبصره مازال معلّقًا نحو تلك النقطة خلف شبارة:

- أفادكم الله يا سيدي، دا على أساس إن في نملة في المنطقة هنا أنا معرفهاش. عموما، طالما قعد معاك، يبقى حكاية نضيف دي مبقتش مضمونة.

قالها، ثم أشار إلى السائق الجالس جواره بالتحرك فأدار محرّك السيارة استعدادًا للانطلاق قبل أنْ يستطرد:

- مستنيينك.

قالها، فانطلقت السيارة مبتعدةً وسط الزحام في حين دار شبارة عائدًا إلى رفاقه، وابتسامته غير ذات المعنى تصاحب وجهه الدميم مُستقبِلاً كلاً مِن طارق وسلامة وهما ينهضان مِن جلستهم فهتف باستنكارٍ:

أبدا على فين؟

اله، سلامة بعضًا من الأوراق النقدية إلى جوار أكواب الشاي والقهوة الموسوعة أمامهم وهو يقول:

الهابة علينا إحنا كدا. نستأذن عشان عندنا كام مشوار نعملهم.

..ه شبارة بابتسامةٍ ماكرةٍ، ثم التفت نحو السعدني ملقيًا غمزةً عابرةً وهو يقول:

..حوْر.

هزْ سعدني رأسه أنْ نعم، وهو يبادله الغمزة نفسها، في حين وقف طارق يتابعهم دون استيعابٍ للحظةٍ، قبل أنْ يوجِّه شبارة حديثه له قائلاً:

أبه يا أستاذ طارق؟ منتا قاعد معانا منورنا ياعم، سيبك من حوارات سلامة دا، قعدتنا حلوة والله ومتخوفش.

همْ طارق بقول شيءٍ ما، قطعه صوت سلامة وهو يتدخَّل قائلاً:

ببيييييييه، هنلقّح بقى بالكلام و نغمز ونهمز والحركات دي، يا شبارة فكك، يلا بينا يا عم طارق عشان كدا مش هنخلص واحنا مش عواطليه زي العالم، دي احنا ورانا شغل.

قالها وهو يجذب طارق مبتعدًا، قبل أن يستطرد:

- وبعدين صحيح يا عم الصايع، هيا دي يعني أول مرة الحكومة تجيلك هنا


fb.com/groups/exchange.book

وأنا معاك؟ يا صاحبي أنا عارف إنك زبالة و ميجيش من وراك إلا الزبالة.

قالها بلهجةٍ ضاحكةٍ، فانفجر شبارة مُقهقِهًا وهو يلقي بجسده المكتظّ فوق مقعده هاتفًا:

- آه يابن الـ...

ثم أشار لهم مُودِّعًا، في حين انطلق الاثنان في طريقهما سويًا؛ سلامة وطارق، ذلك الثنائيّ الذي كوَّن صداقته بوفاة الحاج عبدالحميد زكريا، صداقةٌ لم يكن مِن المتوقع لها أنْ تكون؛ سلامة الذي طالما رأى في طارق ذلك الفتى المُدلَّل، الطريّ ابن أبيه، والذي لا يفقه شيئًا عن أيّ شيءٍ، وطارق الذي كان يعتقد دومًا أنّ اعتماد والده على هذا الأخير كان بكلّ تأكيدٍ في غير محلّه.

كان شعورًا هو مزيجٌ بين الغيْرة والحنق لم يحاول أبدًا تحليله، يتسلَّل إليه كلما شاهد والده يكلِّف سلامه بأعمالٍ مختلفةٍ ومعقّدةٍ في المكان دون أنْ يسعى للجوء إليه أو تكلفته بإحداها، وعلى الرغم من إدراكه للسبب، وأنّه نابعٌ مِن تكاسُله وإهماله، إلا أنّ هذا الأمر كان يسبِّب له الحنق، وكلما أبدى اعتراضًا عليه كان ردُّ والده الدائم والمحفوظ عن ظهر قلبٍ «سلامة دا واد جدع».

- هوا مين بقى ده اللي جه لشبارة واحنا قاعدين هناك؟!

سؤالٌ خرج مِن بين شفتيْ طارق انتزع به نفسه مِن خواطره، وجَّهه إلى

لامه السائر إلى جواره فأجاب:

.ا الرائد شريف، ضابط في القسم.

.٨٠ طارق حاجبيْه فضولاً ترجمه على الفور إلى سؤالٍ:

ملب ودا كان عايز منه أيه؟

هزْ الأخير كتفيه بلامبالاةٍ مغمغمًا:

معرفش والله، بس هيكون عايز أيه يعني؟ تلاقيه عليه مراقبة مخلصهاش وللا عامل مصيبة أو حاجة.

مصيبة؟

ا.زرها طارق بدهشةٍ تناسبت مع حدقتيْ عينيْه المتسعتيْن بفضولٍ مشتعلٍ أطفأ جذوته سلامة وهو يكمل:

شبارة دا أصله بتاع كله، فطبيعي في كل خرابة هتلاقيلو عفريت، سرقة عربيات وشقق ماشي، مخدرات ماشي، نسوان ماشي، بلطجة ماشي، يمكن القتل بس هوا الحاجة الوحيدة اللي شبارة لسه مجربهاش، فزي مبقولك، وارد تلاقيه راشق في أي حاجة. بص يا طارق أنا عايز أقولك الناس دي أنت تعرفهم عادي آه، لكن تغوط معاهم دا يبقى أكبر غلط.

توقف طارق لحظةً، تطلّع خلالها إلى سلامة محاولاً استيعاب الأمر، قبل أنْ يهزّ رأسه وهو يقول:


fb.com/ groups/ exchange.book

- بس بني آدم عجيب شبارة ده، شخصية فعلاً مثيرة للاهتمام.

قالها ثم عاد ليكمل طريقه إلى جوار سلامة، في الطريق المزدحم الذي أخذ يبتلعهما شيئًا فشيئًا وسط المباني القديمة شبه المتهالكة، التي احتضنت بداخلها آلاف القصص والحكايات خلف النوافذ المنتشرة بين الأزقة التي قطعاها في سيرهما حتى اختفيا خلالها تمامًا.

*****

# النمسا، ١٩٨٧ م

بالنسبة له، كان الأمر أشبه بحلمٍ لا ينبغي أبدًا الاستيقاظ منه؛ المناظر الطبيعية الخلّابة مِن حوله على امتداد الطريق، وهو يقبع ساكنًا وسط بقية زملائه في تلك العربة المُنطلِقة بهم في طريقها إلى نهر الدانوب، أحد المعالم المُميَّزة للعاصمة النمساوية فيينا.

كانوا كرفقةٍ مِن طلبة الطبّ العرب، الذين جاءوا سعيًا وراء الزمالة مِن تلك الجامعة المعروفة فيينا، على مدى شهورٍ فائتةٍ، اقتصر محور حياتهم فقط على إطار الجامعة والسكن المُخصَّص للطلبة المُغتربين، وتَرَكَّز كلُّ اهتمامهم بين أوراق الكتب والمراجع المتراكمة في غرفهم وعلى رفوف مكتبة الجامعة العملاقة، تلك العوينات التي زيَّنت وجوه معظمهم رغم

fb.com/groups/exchange.book

سمر أعمارهم إنْ دلّت على شيءٍ فستدلُّ على ذلك؛ لا وقت لديهم للمرح! لا وقت لديهم للتجوُّل إلّا لمجرد جلب بعض ما يحتاجونه لعشاء الليلة، الهدف هو استثمار الوقت لمعرفة المزيد حول مجالهم، وفقط.

المدينة الجميلة الهادئة بطبيعتها الساحرة، على مدى شهورٍ مَضَتْ عليهم لم يتأمّلوها سوى عبر زجاج نوافذ مُشبّرة مِن أثر أمطار الشتاء الثلجية في الخارج، أغلقتْ على غرفهم التي عكفوا داخلها فوق أوراقهم ومَراجِعِهم ليلَ نهارَ، في لحظات تأمُّلٍ نادرةٍ، أجبرهم عليها أرقٌ أو تعبٌ أو إجهادٌ أحيانًا وربما شجنٌ أو حنينٌ إلى الوطن في أحيانَ أخرى.

واليوم اتّخذوا القرار، معظمهم لن يتمكن مِن المواصلة دون التقاط الأنفاس لبرهةٍ، إنّهم يحتاجون لبعضٍ مِن الترفيه، القليل منه، ولأجل كلّ ما سبق، هم الآن داخل العربة، منطلقين إلى وجهتهم، ومِن بينهم كان ذلك الشاب المُهندم، بشعره المُجعّد المائل للاصفرار، والذي مشْطه نحو الجانب، وتلك النظارة الطبية التي احتلت الجزء الأكبر من وجهه الممتلئ شيئًا ما، ربّما مِن أثر الهواء النقيّ الذي داوم على استنشاقه على مدى الشهور الماضية، مُرتديًا ذلك البالطو الصوفيّ الطويل أسود اللون لاتّقاء صقيع خريفٍ لم يعتدْه في موطنه الأصلي، كان يُدعى حسين رسلان.

الطالب المصريّ خرّيج الدفعة الأخيرة مِن كلية الطب في جامعة القاهرة، متخصّصٌ في مجال الطبّ النفسيّ، جلس يتأمّل الطبيعة الخلّابة مِن حوله


fb.com/groups/exchange.book

بانبهارٍ، غير آبهٍ أو مُشارِكٍ في مزاح زملائه حوله، وتلك النكات التي أخذوا يتبادلونها طوال الرحلة، كان مِن أولاء الأشخاص الذين يمكنك اعتبارهم مِن أصحاب الحسّ الفنيّ، على الرغم مِن أنّه لم يكن يملك أيًا مِن المواهب التي تؤهّله لوصفه بذلك؛ لم تكن لديه موهبةٌ كالرسم مثلاً، أو العزف، أو أيٍّ مِن ذلك، ولكنه كان متأملاً محترفًا، صامتًا أغلب الوقت، يتسرّب مِن غرفته دومًا في الليل، على غير عادةٍ وطبيعة أقرانه، عبر الراديو الصغير الخاصّ به، ذلك الصوت الخفيض الدافئ الشجيّ، لأغاني كوكب الشرق أمّ كلثوم وموسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب.

أصدقاؤه كانوا يعتبرونه الشخص المُنعزِل غريب الأطوار، بينما هو لا يرى في نفسه سوى إنسانٍ حيٍّ وله هدفٌ، تسلّلت رائحة النهر إلى أنفه في تلك اللحظة التي أخذته فيها خواطره بعيدًا، فتنبّهتْ عيناه بحثًا عن مصدره ليراه متلألئًا مِن بعيدٍ يعكس زرقة سماءٍ صافيةٍ فوق مكانٍ أوشكوا على الوصول إليه، لقد وصلوا تقريبًا، توقّفت العربة، وهبطوا منها مُترجّلين نحو وجهتهم،

ها هو ذا نهر الدانوب أمامه يمتدُّ، يا لها من نسمةِ هواءٍ منعشةٍ! وتلك القوارب المختلفة تنتظرهم في مقدّمته لتصطحبهم في رحلة الأحلام خلاله.

الجميع اتّجهوا نحو قاربٍ واستقلوه، بينما هو كالعادة فضّل اختيار الوحدة واستقلّ أصغر القوارب الموجودة دونهم، القوارب تتحرّك، الجوُّ المنعش كأنّما يدغدغ كلّ خلاياه لتنتعش، مدّ يده إلى حقيبته الكبيرة نسبيًا ملتقطًا منها كاميرته الشخصية التي أخذ يلتقط بها صورًا مختلفةً للمكان مِن حوله.

إنها المرة الأولى التي تأتي فيها لزيارة النهر؟

انتزعه ذلك السؤال المُنبعث خلفه، مِن تأمُّله ومشاهداته، فالتفت نحو مصدره قبل أنْ تتّسع عيناه بانتعاشٍ أكبر، كانتْ أمامه صاحبة السؤال، ببشرتها ناصعة البياض، وملامحها الدقيقة، وشعرها الذهبيّ القصير، فوق زوجٍ مِن العيون الزرقاء اللتيْن بدتا له في زرقتهما شديدتيْ القرب مِن زرقة النهر، الذي يتهاديان مع قاربهم الصغير فوقه، ربّما كان هذا بالفعل أقربُ تشبيهٍ، لقد احتوته عيناها دون مبالغةٍ، كانت رائعة الجمال، شيءٌ ما فيها جذبه بشدةٍ، لم يكنْ مِن ضمن هؤلاء المتيّمين الذين يؤمنون بنظريات الحبّ مِن أول نظرةٍ وما إلى ذلك، ولكنْ يبدو أنّ جوًّا ساحرًا كهذا، بإمكانه أنْ يطفو بمشاعرك الإيجابية كلّها نحو القمة.

- عذرًا، كنت أقول، هل تلك هي المرة الأولى التي تأتي فيها لزيارة النهر؟

كرّرت سؤالها بلغتها، وهي تبتسم ابتسامةً رقيقةً أمام وجهٍ بدت لها مُتجمّدًا متسعَ العينيْن مِن الانبهار، فاستفاق مِن غيبوبته الذهنيّة بحرجٍ قائلاً بلغةٍ مُكسّرةٍ لم تلتئم مكوناتها بعد:

- آه آسف، بالفعل إنها المرة الأولى لي.

كرّرت ابتسامتها مرةً أخرى، أو ربّما اتّسعت أكثر، فوق وجهها الذي بدا له أنه بطبيعته يبتسم، ثم قالت وهي تمدُّ يدها نحوه للمصافحة:

- أنا هيلين، إنه اسمي.


fb.com/groups/exchange.book

مدّ يده نحوها بدوره، وسَرَتْ في جسده قشعريرةٌ في برودة الثلج مع ملامسة الكفّ الرقيق، وهو يقول:

- وأنا حسين، حسين رسلان.

كرّرت الاسم بهدوءٍ، قبل أنْ تسأل:

- أنت عربيٌّ إذن؟

هزّ رأسه أنْ نعم قائلاً:

- نعم، أنا مصري.

كانت أيديهما مازالتا متشابكتيْن، ولم يحاول أحدٌ منهما أنْ يفصلهما وهما يتطلّعان كلٌّ إلى الآخر، بينما هي تقول بصوتٍ غايةٍ في الرقة:

- تسعدني معرفتك حسين.

أجاب على فوره ودون لحظةِ تفكيرٍ:

- تسعدني معرفتك هيلين.

ومِن هذه اللحظة، بالنسبة إليه وربّما بالنسبة إليها أيضًا، بدأت الرحلة، أكثر رحلات العمر إمتاعًا وروعةً، على الإطلاق.

*****

fb.com/groups/exchange.book

أنه يا سلامة؟ الدكتور النهاردة قاللك أيه؟

قال إنه محتاج يشوفه تاني الأسبوع الجاي.

*****

في حجرته الصغيرة المُغلقة التي لا يزورها الضوء إلا كضيفٍ خَجِيٍّ خجولٍ، وأمام المرآة المُواجِهة لفراشه تمامًا، جلستْ هي كعادتها خلال السنوات العشر التي تلت ارتباط والدها والحاجّة ومِن ثم انتقالها معه إلى ذلك البيت الكبير، بالنسبة لها كانت الحجرة مِن أكثر الأماكن التي شعرت فيها بأمانٍ منح ذلك الصغير الصامت صاحب الملامح التي تحمل براءةً اشتاقت لها وسط خضمّ الحياة.

كانت تبدو كجزءٍ مِن لوحةٍ زيتيةٍ مِن لوحات دافينشي وهي تمشّط شعرها الطويل المُنسدِل أمامه فوق كتفيْها كشلالٍ أثار ظمأه نحو ذلك الذي لم يُدرِك كُنهَه بعد وهي تقول:

- تفتكر يا يوسف هيعجبني المرادي؟

لم تنتظر إجابته وهو يتمدَّدُ فوق فراشه متأملاً إياها بعينيْن تلتهمانها وكأنّما يبحث عن كنزٍ ما مدسوسٍ بين مسامها، إنّه النموّ الفسيولوجي يتخلّله فارضًا سيطرته التلقائية عبر أعوام العمر المُضافة إليه، في حين استطردت هي قائلةً:


fb.com/groups/exchange.book

- طب لو عجبني؟ تفتكر أنا هعجبه؟

صمتت لوهلةٍ، التفتَتْ فيها إليه وقرأت الإجابة في عينيْه قبل أنْ تُطلِق ضحكتها القصيرة الرائعة قائلةً:

- آه طبعًا، منا عارفة إني أصلاً زي القمر، أكيد هعجبه.

قالتها ثم صمتَتْ لوهلةٍ، كانت ملامحها تبتسم، وإنْ بدا بين تقاسيم البسمة على وجهها حزنٌ دفينٌ لم يَخْفَ عليه ولسببٍ ما أراحه، نهضت متجهةً نحو دولاب ملابسه الخاصّ لتفتحه مُلتقِطةً بعض الملابس مِن داخله مُكمِلةً:

- القميص الأحمر دا على البنطلون الأسود هيبقوا تحفة عليك، يلا اعدللي نفسك كدا عشان أساعدك تغير هدومك، هنطلع سوى دلوقتي، تروح تقعد معاهم وأنا هدخل بعدك بصينية العصير، لو معجبناش العريس، يبقى زي ما اتفقنا، هقلب عليه الصينية باللي فوقيها.

قالتها وهي تجهِّز له القميص، بينما كان الضيف في الخارج يجلس مُشبكًا أصابع يديه ببعضها بعضًا على مقعده في حجرة الضيافة، وأمامه جلس طارق الذي رسم فوق وجهه علاماتٍ مِن عدم الترحيب باتَتْ واضحةً وضوح دخان سيجارته المُنبعِث في المكان، وإلى جواره كان كلٌّ مِن والدته التي أخذتْ تسعُل مِن أثر الدخان المُنتشر، والحاج عمران الذي كسر حاجز الصمت بعبارة الترحيب المُعتادة والمُكرّرة دائمًا في مثل تلك المواقف:

- منور يا باشمهندس.


fb.com/ groups/ exchange.book

همم الرجل بإحراجٍ واضحٍ:

المكان منور بيكوا يا عمي.

هزّ الحاج عمران رأسه، وافترّ ثغرة عن ابتسامة ترحيبٍ قبل أنْ ينقل بصره نحو زوجته قائلاً:

ما تقومي يا أم طارق تشوفيلنا العروسة، هيا اتأخرت كدا ليه؟

ابتسمت هي الأخرى بدورها، وهي تقول بلهجةٍ مُجامِلةٍ للضيف المُرتبك:

تقل عرايس بقى، أنت فاهم.

ابتسم الرجل، بينما كانت تهمُّ بالنهوض لولا أنْ استوقفتها يدُ طارق الذي أشار لها بالبقاء في مكانها قائلاً:

سيبوها براحتها، أكيد بتحضّر نفسها هتستعجلوها ليه؟

ثم قال موجّهًا حديثه إلى الضيف:

- مقلتلناش بقى يا باشمهندس، حضرتك شفت وفاء فين؟

ارتبك الرجل مِن السؤال الصارم الموجّه دون ألفةٍ، وخرجتْ كلماته بشكلٍ مُبعثَرٍ غير متناسقٍ وهو يقول:

- والله أنا مشفتهاش غير مرتين تلاته كدا، وهي بتاخد الباص بتاع الصبح للجامعة، وساعات كنت بلمحها وهي راجعة.


fb.com/groups/exchange.book

رفع طارق أحد حاجبيْه بتهكُّمٍ قائلاً:

- مم، جميل! مراقبها بقالك فترة يعني؟

زادتْ عبارة طارق التهكُّمية مِن ارتباك الرجل، الذي بدا واضحًا في تردُّدِه وهو يجيب:

- لأ يا أستاذ طارق، العفو، مراقبها أيه بس؟ الآنسة وفاء بنت محترمة والمنطقة كلها تشهدلها بكدا، وأنا اللي شجعني إني آجي أتقدم كلام والدتي عنها، أنا شرف ليا بجد إني أناسب ناس زيكوا محتـ..

ابتلع الجزء الباقي مِن جملته مع مقاطعة طارق له بسؤالٍ جديدٍ بنفس الأسلوب الحادّ:

- وسيادتك بقى مقلتلناش، عندك شقة وللا لأ؟ وناوي تجيب شبكة بكام؟

زادتْ أسئلة طارق وأسلوبه مِن التوتُّر الطبيعيّ المسيطر على الضيف الذي أخذ يبحث في عقله عن إجاباتٍ لتلك الأسئلة مع تفسيرٍ منطقيٍّ لهذا الأسلوب الذي يتعامل به طارق، بالإضافة إلى منديلٍ في جيبه لمسح قطرات العرق القليلة التي انتشرت فوق جبينه، لولا أنْ أنقذه مِن بحثه صوت الحاج عمران، وهو يقول:

- أيه يا طارق يابني؟ داخل حامي في الراجل كدا ليه؟ واحدة واحدة يابني، الكلام ميبقاش قفش كدا؟

اسقلتْ نظرات طارق التهكُمية نحو الحاج عمران، وهو يقول بلهجةٍ شبه ساخرةٍ:

فين القفش دا يا حاج؟ هوا الراجل مش جي يتجوز برضوا ولا بيقطع تذكرة سينما؟

ابتسم الحاج عمران ابتسامةً قصيرةً محاولاً ابتلاع الأسلوب المستفزّ الواضح في الحديث، بينما تدخّل الضيف اعتقادًا مِنه أنّ تدخُله يناسب رغبته في تلطيف الأجواء:

مفهاش حاجة يا حاج عمران، الراجل بيتكلم في الصح.

مطّ طارق شفتيْه ولوّح بيده قائلاً:

- أهو الراجل نفسه أهو، مش مضايقاه الأسئلة.

ثم التفت إليه مرةً أخرى مكملاً:

- ها بقى؟ قوللي، معاك اللي تتجوز بيه؟ وللا جي تجرب حظك؟

تدخّلت والدته هذه المرة، وهي تهتف بغضبٍ:

- في أيه يا طارق؟ عيب كدا!

رمقها طارق بنظرةٍ ناريةٍ استمرّت لثوانٍ، قبل أنْ يهزّ رأسه أنْ نعم، قائلاً:

- صح، معاكي حق، هوا عيب.


fb.com/groups/exchange.book

ثم التفتَ إلى الزائر، وهو يقول بذات اللهجة التهكُمية:

- معلش يا بشمهندس، أنا بعتذر لحضرتك عن قلة الأدب اللي صدرت مني، مكانش يصح الواحد يسأل عن حجات زي دي، في مواقف زي دي.

كان الارتباك التامّ هو المُتملّك الوحيد للرجل في تلك اللحظة، فاندفع متسائلاً بشيءٍ مِن حدّةٍ صَنَعَها ارتباكه:

- هو في أيه بالضبط يا أستاذ طارق؟ وليه الأسلوب دا؟

خرجت الجملة مِن بين شفتيْه بشكلٍ اندفاعيٍّ، وحملت بوضوحٍ نبرة توتُرٍ جاهَدَ منذ بداية الجلسة للسيطرة عليها وإخفائها، التقطها طارق كنمرٍ ظلّ مختبئًا ينتظر لحظة الانقضاض قائلاً:

- طب اهدى بس على نفسك واتكلم بالراحة بس وباحترام، عشان نعرف نفهم أنت بتقول أيه.

لم يَعُدْ هناك مجالٌ للتراجُع، بعد أنْ نجح طارق في استفزاز الرجل الذي ردّ بغضبٍ وحدّةٍ أكبر مِن سابقتها:

- بعد أذنك يا أستاذ طارق، أنا بتكلم طول الوقت بمنتهى الاحترام.

أطلق طارق ضحكةً قصيرةً ساخرةً، في حين تدخّل الحاج عمران مرةً أخرى هاتفًا:

- طارق، الزم حدودك، واتكلم كويس مع الراجل، دا ضيف عندنا.

صفق طارق بكفيه بشكلٍ مسرحيٍّ مُغمغِمًا:

الله الله الله! أنا شكلي الوحيد اللي وجوده هنا مش مرحب بيه.

مالك الضيف نفسه مرةً أخرى مستعيدًا رباطه جأشه، وهو يقول:

ازاي بس يا أستاذ طارق؟ دا أنت صاحـ..

قاطعه طارق هذه المرة بمنتهى الصفاقة والبرود قائلاً:

بعد إذنك، متتدخلش في اللي ملكش فيه، خليك ساكت عشان متحرجش نفسك.

امتقع وجه الرجل، وعَلِقَ لسانه في حلقه عاجزًا عن النطق للحظةٍ، قبل أنْ ينهض مِن جلسته دفعةً واحدةً، وهو يقول:

- لا، دا واضح إنّ أنا اللي وجودي هيعمل مشكله في المكان، أنا بعتذر عن دا، وبعد إذن الكل، أنا همشي.

نهض الحاج عمران محاولاً اللحاق بالرجل الذي اندفع إلى الخارج، بينما رمقت

الوالدة طارق بنظرة استنكارٍ، وهذا الأخير يسترخي في مقعده مغمغمًا ببرودٍ:

- وماله يا حبيبي، إذنك معاك.

قالها وهو يرمق بطرف عينه يوسف الذي دلف إلى المكان مع وفاء، وهي


fb.com/groups/exchange.book

تحمل الصينية وأكواب العصير، وبنظرةٍ واحدةٍ في المكان، أدركت الأخيرة الوضع بأكمله، فانطلقت مِن داخلها

زفرةُ ضيقٍ لم تُظهِرها، بينما رمق يوسف طارق بنظرةٍ طويلةٍ لم يلحظْها هذا الأخير وهو يشير بيده نحو الصينية التي تحملها وفاء قائلاً:

- وأهو كمان، العصير وصل في وقته، ناوليني يا عروسة كباية أبلّ ريقي أحسن ابن الرزلة اللي كان هنا نشفهولي.

قالها ثم انفجر ضاحكًا بمرحٍ غير مبررٍ، لم يشاركه فيه أيٌّ مِن الموجودين، كان منتشيًا وحده في تلك اللحظة، وكان هذا يكفيه.

*****

- السادة الحضور يقدروا يتفضلوا، البوفيه مفتوح.

قالها مُنظِّم الحفل عبر مكبّر الصوت الخاصّ بالقاعة، فاتّجه المدعوون في صفٍّ غير منتظمٍ لتلبية نداء بطونهم، بينما تسلّلتُ أنا مِن بين الجميع نحو الحمّام لالتقاط أنفاسي وجمع شتات أفكاري بعيدًا عن كلّ ذلك.

كانتْ عيناي تبحث بلهفةٍ بين كلّ الوجوه عنه، لقد نجح في إثارة فضولي بكلماته المقتضبة المتهكّمة، ولأقصى الدرجات، دلفتُ إلى الحمّام، وتوقّفتُ أمام المرآة مُتطلّعًا إلى ملامح وجهي التي حملت الكثير مِن التوتُّر قبل أنْ

أفتح الصنبور أمامي واضعًا رأسي المُشتعل بالأفكار أسفله دون اكتراث بتسريحة شعري التي شوّهها بالفعل رقصُ المعوّقين الذي أدّيتُه قهرًا وسط المُلحّين في الخارج محاولاً تهدئة النيران المشتعلة داخله.

يبدو أنّ هناك خطأً ما، نظرتُه وكلماته وتلك الثقة التي تحدّث بها كانت تشير إلى ذلك، لقد غرّر بي، ولكنْ كيف؟ حاولتُ اعتصار عقلي بحثًا عن إجابةٍ والماء البارد مازال دون جدوى منهمرًا فوق رأسي تمامًا كأسئلتي المُحيّرة، ما الذي أتى به إلى هنا؟ وكيف؟ وما هدفه بالضبط؟ طوال الفترة في الخارج وأنا أتساءل في داخلي عن معنى الأمر برمّته، وكأنّما كان يعلم تمامًا ما يدور في ذهني، استشعرتُ به يدلف إلى المكان خلفي، بنفس خطواته البطيئة، وتلك النظرة الواثقة التي تجعلك موقنًا أمامه بأنّك الطرف الأضعف، رفعتُ رأسي مِن تحت الصنبور، وتطلعتُ إليه مِن خلفي عبر المرآة دون أنْ ألتفت، قائلاً بعصبيةٍ:

- عايز أيه؟ أنت مراقبني وللا حاجة؟

اتسعت ابتسامته وبدا لي أنّ بريقًا ما لمَعَ في عينيْه وهو يقترب مِن الحوض إلى جواري غاسلاً يديْه ببرودٍ، وهو يقول:

- أنت اللي عايز مش أنا.

التفتُّ نحوه مُغمغِمًا بعصبيةٍ بدتْ واضحةً خلف توتُّري الذي حاولتُ بجديةٍ إخفاءه:


fb.com/groups/exchange.book

- وأنا هعوز منك أنت أيه؟

هزّ رأسه دون أنْ يلتفتَ نحوي، مستكملاً غسيل يديْه بلامبالاةٍ وهو يغمغم:

- عايز تعرف الغلط فين؟ الفضول باين في عنيك وبيقول أنك هتموت وتعرف.

كان قد انتهى مِن غسل يديْه، فأغلق الصنبور أمامه ثم سحب لنفسه منديلاً مِن تلك العلبة الموضوعة على الرخام أمامه، مسح به يديْه مستطردًا:

- عمومًا، تمنياتي بحياة سعيدة.

قالها وهو يهمُّ بالرحيل، فاستوقفتُه أنا صائحًا بنفاد صبرٍ:

- استنى!

توقّف في مكانه ملتفتًا نحوي، وابتسامته كظلٍّ لا يفارق شفتيْه دون أنْ ينبس ببنت شفةٍ، تأملتُ ملامحه بعصبيةٍ واضحةٍ قبل أنْ أتمتم متسائلاً:

-أنت مين بالضبط؟ وحقيقتك أيه؟

نظر في عينيّ مباشرةً، وكأنّما يخترق أغواري ببصره ونظرته النافذة التي جعلتني أكاد أتراجع لولا ضيق المساحة مِن خلفي، وهو يجيب ببرودٍ بدا كأنّه خرج من أعماق بئرٍ سحيقةٍ:

- أنا الحقيقة اللي مقدرتش تشوفها.

انعقد حاجباي بترقُّبٍ وأنا أتمتم متسائلاً:

لقصد أيه بالضبط؟

التقط شهيقًا طويلاً مِن الهواء ملأ به صدره قبل أنْ يزفره بهدوءٍ قائلاً وقد لمعت عيناه بمتعةٍ لا حدود لها:

متأكد إنك عايز تعرف؟

ولسببٍ ما، وعلى الرغم مِن فضولي الشديد ونَهَمي للحقيقة، سَرَتْ في جسدي قشعريرةٌ باردةٌ وأنا أتأمّل عينيْه الواثقة التي بدا وكأنّها تخترقني من رأسي وحتى أخمص قدميّ، قشعريرةٌ وقلقٌ وتوترٌ وخوفٌ جعلتني أتردد أمامه للحظةٍ قبل أنْ أستجمع مقومات ثباتي الانفعاليّ، لأتساءل عمّا لديه.

*****

# فبراير، ٢٠٠٥ م

ارتفع رنين جرس الباب في منزل الحاج عمران بشكلٍ متّصلٍ مُزعِجٍ، جعل الحاجّة تعتدل مِن رَقدَتها فوق الأريكة المُخصّصة لها في الصالة أمام التلفاز قائلةً:

- شوفي مين اللي مستعجل وجايلنا الساعة دي يا وفاء، دا تلاقيه الواد سلامة، أنا حافظة خبطته.


fb.com/groups/exchange.book

كانت وفاء بالفعل في تلك الأثناء تتّجه نحو الباب لتفتَحه أمام سلامة، الذي دلف إلى الداخل بسرعةٍ مُلقيًا كومةً ثقيلةً مِن الأوراق كان يحملُها فوق رأسه أرضًا قائلاً بإجهادٍ مِن بين أنفاسه المتلاحقة وهو يحاول بذراعه مسح بعض العرق المتصبِّب فوق جبينه:

- صباح الخير يا ست وفاء، صباح الخير يامّه.

رمقته الحاجّة بنظرةٍ مُتفحِّصةٍ مِن خلف عويناتها سميكةِ العدسات، ثم سألت:

- أيه اللي جايبك النهاردة؟ هو مش الدكتور قال لك الجلسة الجاية هتبقى التلات الجاي؟ وأيه اللي أنتا جايبوا معاك دا؟

أجابها وهو يُطلِق زفيرًا طويلاً لتهدئة أنفاسه:

- آه منا مش ناسي، ودول يا حاجّة شوية ورق دشت لأستاذ يوسف كان طلبهم مني آخر مرة واحنا مع بعض.

هزّت رأسها بفهمٍ في حين انحنت وفاء لالتقاط الكومة، وهي تقول:

- آه، دا خلّص اللي جبتهمله الشهر اللي فات كلهم، وبقاله كام يوم بيسألني على غيرهم، أنا هروح أدخلهالو.

قالتها وهي تميل نحو الكومة، فاندفع سلامة سريعًا ليلتقطَها قبلها وهو يقول:

fb.com/groups/exchange.book

لا والله ما يصحّ، عنك إنتي. هدخلهالو أنا يا أستاذة، تقيلة عليكي.

قالها وهو يحمِلُها ويتّجه بها نحو غرفة يوسف، بينما ارتفع صوت الحاجّة مناديًا، وهي تقول:

سلامة، أما تخلص تعالالي، عايزاك.

التفتَ إليها وأومأ برأسه وهو يقول:

حاضر يا حاجّة، عنيا.

قالها ثم مدّ يده لفتح باب غرفة يوسف، ودلف إليها حاملاً ما في يده قبل أنْ يُغلِق بابها خلفه بإحكامٍ قائلاً بمرحٍ وعيناه تحاولان اعتياد عتمة المكان:

- أيه يا برنس؟ جايبلك كمية ورق مش قليلة المرة دي، ورينا بقى إبداعاتك، عايزين نتفرج.

كعادته تطلّع يوسف إليه بنظرةٍ باردةٍ دون أنْ ينبسّ ببنت شفةٍ، فاقترب الآخر واضعًا الكومة على المنضدة القريبة منه مغمغمًا:

- أموت وأعرف أنتا جايب موهبة الرسم دي منين؟ مش قادر أستوعب، أنت لا اتعلّمته، ومعتقدش برضو إنها اتنقلت لك وراثة، فإزاي ولمين طلعت فنان كده؟ أنا مش بحسد والله بس عايز أفهم، فممكن بعد إذنك يعني تفهمني؟

قالها وهو يعلّق بصرة بوجه يوسف الذي لم تتبدّل ملامحه الباردة وهو


fb.com/groups/exchange.book

يقول:

- مـ شـ هـ تفـ همـ

تساءل سلامة بفضولٍ حقيقيٍّ:

- أيه الرخامة دي؟ مش هفهم ليه؟ وبعدين هوا مش احنا أصحاب وأسرارنا مع بـ...

- سلامة.

ابتلع ما بقي له مِن تساؤلاتٍ عند سماع صوت الحاجّة تنادي عليه من الخارج، فاندفع مهرولاً نحو الباب وهو يجيب:

- أيوه يا حاجّة؟

ثم التفت إلى يوسف مؤكّدًا قبل أنْ يخرج:

- خلي بالك أنا مش هنفّض للموضوع، وهتفهمني يا إما مش هسيبك ألا أمّا تعلّمني الرسم زيك كده بالضبط.

ثم خرج مغلقًا الباب خلفه مرةً أخرى متجهًا نحو الحاجّة، التي عاجلته قائلةً بلهجةٍ مستاءة:

- يا واد، أنا مش قايلالك عايزاك؟؟

حكّ رأسه بإحراجٍ مقتربًا منها، وهو يقول:

أوه يا أمي مَنا ملحقتش، كنت بدخّل الحاجّة بس لأوضة يوسف.

قالت بضيقٍ قائلةً:

كل ده؟

أجابها بسرعةٍ محاولاً التبرير:

يا حاجّة، دا انا يدوب لسه داخل.

لوّحت بيديها بضيقٍ قائلةً:

يدوب أيه؟ أنت بقالك مش أقل من ساعة إلا تلت قاعد معاه جوه في الأوضة وناسيني خالص.

كان سلامة يُدرك تأثير السِّنّ والمرض عليها؛ هذا الجسد العجوز الواهن، أضحى فريسةً ضعيفةً بين براثن كلّ وحوش الشيخوخة التي كان الزهايمر أحدها. كان يدرك ذلك، ولذا تدارك الأمر وأجابها بهدوءٍ دون الدخول في مناوشاتٍ يعلم أنّها ستطول بلا جدوى:

- معلش يا حاجّة طب، أنا آسف.

قالها وهو ينحني مُقبّلاً يدها استعدادًا للرحيل، فعالجته بلهجةٍ آمرةٍ:

- اقعد.

نفّذ الأمر فورًا وعاد إلى وضعه وهو يتمتم:


fb.com/groups/exchange.book

- وآدي قعدة.

مالت هي نحوه وخفضت صوتها شيئًا ما، وهي تقول:

- أخبارهم أيه؟

تساءل:

- هما مين دول؟

رمقته بنظرة استنكارٍ حادّةٍ، فارتبك مستوعبًا وهو يقول:

- آه، آسف افتكرت! همّا الحمد لله كويسين.

صمتت لحظةً قبل أنْ تسأل:

- ومع بعض؟

مطّ سلامة شفتيْه وهو يحرّك رأسه أنْ لا، قائلاً:

- العادي، الحاجّ كالعادة بيحاول يقرّب، وطارق شكله مش ناوي.

أطرقتْ برأسها بحزنٍ، فربّتَ هو على يدها قائلاً:

- الله؟ نتي هتندّميني على صراحتي وللا أيه؟ وحياة يوسف عندك ما تزعلي. وبعدين ما هما كدا من زمان، مش حاجة جديدة يعني، فاحمدي ربنا بس عالحال وربنا المستعان.

تنهّدت وهي تهزُّ رأسها أنْ نعم، مُغمغمةً:

fb.com/groups/exchange.book

•هالل حق يابني، أمر الله وراضيين بيه، ربك يعدّل الحال من عنده.

،••م سلامة:

•اهم بالله.

ـ ـمـ لحظةً بعد عبارته الأخيرة، التقط فيها أنفاسه قبل أنْ يستطرد وهو

،هم بالرحيل مرةً أخرى:

دأمريني بحاجَة يا حاجّة؟ عشان أنا يدوب أرجع الورشة.

لا يا حبيبي متحرمش، عايزاك تخلي بالك بس من أخوك طارق.

في عنيا يا حاجّة؟

قالها ثم اتّجه نحو الباب، الذي أسرعتْ وفاء بفتحِه له وهي تقول:

نوّرت يا سلامة، تاعبينك معانا إحنا فمشاوير للدكتور، وطلبات ليوسف معلش.

تطلّع إليها مبتسمًا وهو يقول:

عيب يا أستاذة وفاء، يوسف دا أخويا الصغير، وانتوا أهلي.

قالها ثم رحل في طريقه عائدًا إلى الورشة.

*****


fb.com/ groups/ exchange.book

# أخميم، محافظة سوهاج، ديسمبر، ١٩٩٠ م

كعصفورٍ مُحمّلٍ بأثقال الكون، تباطأت خطوات الفتى ذو الخمس عشرة عامًا وهو ينهض مِن فوق فراشه، متحرّكًا إلى خارج غرفته في تلك الساعة المتأخرة مِن الليل صوْب ذلك الباب المُوصد على أصواتٍ هامسةٍ تنبعث مِن خلفه، كانت قدماه تنتقلان مِن خطوةٍ إلى الأخرى بمنتهى الصعوبة، باديةً له المسافة بينه وبين الباب القريب وكأنها آلاف الأميال، أصواتُ الضحكات المُنبعثة مِن خلفه تمتزج مع صوت أقرانه وزملاء دراسته في داخله، مُصدِرةً ذلك الضجيج النفسيّ المزعج.

- اجري ياله شوف أمك فين.

- هيّا الحاجّة عاملة أيه دلوقتي؟

مطارقُ مسمومةٌ انهالت على رأسه الصغير مُهشّمةً كلّ المشاعر الإيجابية في داخله، هُم على حقٍّ، جميعهم على حقٍّ، وهو يعلم، إلى متى سيظلُّ هاربًا مِن الحقيقة رافضًا مواجهتها كنعامةٍ حمقاءَ بين التراب دفنت رأسها؟ وكيف يصمُّ أذنيه عن كلّ الأصوات وعيناه رغم الإغماض تريان الحقيقة الجليّة بعين الضمير، لا مفرٌّ مِن مواجهة الحقيقة، لا مفرّ!

توقّف في مكانه للحظةٍ، التفت بعينه صوب المطبخ إلى جواره، ذلك السكّين الضخم الموضوع على أحد الرفوف، أفكاره المشتّتة تمنعه مِن


fb.com/groups/exchange.book

الدولاب، هل دلف إلى المطبخ والتقط السكين بالفعل أمْ لم يفعل؟ لا يعلم، هو غيرُ مدركٍ لكلّ ما يحدث، قدرةٌ ما كانت تحرّكه نحو الباب المُوصد، حاملاً السكين أو دونه، هذا لن يصنع الفارق، يقولون إنّ صورًا ومشاهدَ ما في العقل البشريّ، قد لا تمحوها قرونٌ، إنه بصدد التقاط إحدى تلك الصور، المشهد الذي لن يفارقه ما بقي له من العمر.

بيد سمراءَ صغيرةٍ مازالت تحمل الكثير مِن البراءة أمسك مقبض الباب، وبأنفاسٍ متلاحقةٍ فاق صوتها صوت الضحكات والأفكار المتشابكة في عقله مع ذلك العرق الغزير على جبينه أداره،

فانفتح.

*****


fb.com/groups/exchange.book

fb.com/groups/exchange.book

# الفصل الرابع

# القاعدة الثالثة: في حياة كلٍّ منهم سرٌّ، قد تحتاجه

fb.com/groups/exchange.book

ومتزعليش

مِن قساوة الدنيا وعنادها العجيب

أنا كنت فاكر نفسي أقوى من النصيب

وكنت بتّريق على اللي مكملوش.

fb.com/groups/exchange.book

# القاهرة، نوفمبر، ٢٠٠٩ م

ارتسمتْ مِن خلال الملامح الجامدة على وجه يوسف ابتسامةٌ هادئةٌ وهو يتأمّل وجه أخيه الأكبر الذي جلس أمامه على ذلك المقعد في ذلك الكازينو الفاخر، يتطلّع إلى مياه النيل المُمتدّ إلى جواره، ويستنشق الهواء العليل المختلط برائحة الماء المتلألئ تحت أشعة الشمس الدافئة التي تميِّز هذا الفصل بين الفصول الأخرى مِن السنة، قبل أنْ يلتفت إلى وفاء الجالسة إلى أمامه قائلاً:

- أيه رأيك في ذوقي بقى، عجبك المكان؟؟

أومأت وفاء برأسها أنْ نعم، وهي تبحث في حقيبتها عن منديلٍ أخرجته لتمسح به فم يوسف الملوّث ببقايا الطعام مُجيبةً:

- آه، حلو أوي، وشكله مش رخيص يعني، بس الصراحه، أنا قلقانة حبتين،


fb.com/groups/exchange.book

أول مرة ننزل نخرّج يوسف في مكان بعيد كدا عن البيت، الحاجّة هارياني اتصالات من ساعة ما خرجنا.

ابتسم طارق قائلاً:

- انتي هتقوليلي على أمي؟ منا عارفها.

ابتسمت مُشيحةً بعينها بعيدًا عن نظراته المتفحّصة، وهي تقول:

- حقها برضو، يوسف محتاج معاملة خاصة وبعدين في الغالب هوا يدوب مشوار الدكتور اللي بيروحه يا معاها يا مع سلامة، فتلاقيها غير كدا مش متطمنة، ابنها الصغير بقى أنت فاهم.

غمغم في شيءٍ من الضيق المفتعل:

- وأنا ابن الجيران، مش كده؟

أطلقتْ ضحكةً قصيرةً قائلةً:

- لأ، مش قصدي والله، بس أصل يوسف.

قاطعها وهو يلوح مُشيحًا بوجهه مرةً اخرى صوب الماء مُغمغمًا:

- يوسف يوسف يوسف، يادي يوسف!

ثم التفت نحوها مرةً أخرى بحركةٍ حادّةٍ مستطردًا:

- يا وفاء يوسف دا أخ ويا الصغير، فاهمة يعني أيه أخويا الصغير؟ يعني

أنا أنا من أكتر الناس اللي هيخافوا عليه وهتهمهم مصلحته، وعمري ماهعمل حاجة تضرّه أكيد، فاهدي بس أنتي وخلينا قاعدين مستمتعين بالمنظر والجو الجميل اللي إحنا فيه دا، دي هيا مرة كل فين وفين اللي بخرجه فيها، وصُدَف كمان، لو سلامة مشغول، أو أمي تعبانة ومش قادرة تبذل مجهود.

أجابته وهي تتابع ببصرها احتياجات هذا الأخير:

- معاك حق، خلينا قاعدين شوية، لسه قدامنا نص ساعة كمان تقريبًا قبل ما الدنيا تغيم والمغرب يدّنْ.

مطّ طارق شفتيْه بشيءٍ مِن ضيقٍ حقيقيٍّ لم يحاول إخفاءه، وهو يتراجع في مقعده، بينما أكملت هي مُوجِّهةً حديثها إلى يوسف الذي جَفَل قليلاً مع محاولتها مسح فمه:

- مبسوط بالمكان يا يوسف؟

لم يُجِبْها يوسف سوى بإيماءةٍ لا معنى لها، وعيناه تدوران في أرجاء المكان بغير هدًى، كانت عبارتها الموجَّهة ليوسف بمثابة محاولة هروبٍ بنظراتها التي ظنّتها مفضوحةً مِن أمام طارق، إنها سعيدةٌ إلى الحدّ الذي لا يمكن وصفه بوجوده معهم، لكنها لن تبديَ ذلك.

لحظاتٌ مِن الصمت مرّتْ على ثلاثتهم قبل أنْ تقطعها وفاء قائلةً وهي تنهض حاملةً حقيبة يدها الصغيرة:


fb.com/groups/exchange.book

- معلش بقى يا طارق، إحنا عشر دقايق كدا ونتحرك عشان بس لو الطريق زحمة نوصل في النور، أنا هوصل للحمام اظبط نفسي وآجي نقوم على طول.

لم يكنْ خوفها من التأخير هو السبب الحقيقيّ وراء رغبتها في الرحيل كما أخبرته؛ خوفها كان نابعًا من داخلها، ذلك الخوف من استفاقة مشاعرها نحو طارق التي صارعت لإبقائها مكتومةً بداخلها. وهو الآخر، كان ضيقه في تلك الغصّة التي تمنعه من البوح، ذلك الحاجز الفاصل بينهما والذي يحتاج لمجازفةٍ في تخطّيه، هو غير مستعدٍّ لها. رفع عينه نحوها بنظرةٍ يائسةٍ مُحبَطةٍ وهو يقول:

- يعني مفيش فايدة برضو؟

همّتْ بقول شيءٍ ما، لكنه أشار لها محاولاً رسم اللامبالاة على ملامحه:

- روحي روحي، على ما تيجي أكون دفعت الحساب ونتحرك.

هزّت كتفيْها بلا معنًى وهي تحاول البحث عن عبارةِ تبريرٍ مناسبةٍ لم تجدْها، فانطلقتْ نحو وجهتها في حين أطلق هو زفرةً حارّةً من أعماقه قبل أنْ يتأمّل يوسف قائلاً:

- أيه ياعم أنت؟ عاجبك كدا؟ ادينا ماشيين اهو، مبسوط؟

ابتسم يوسف متمتمًا بلسانٍ ثقيلٍ تتقطّع من بين شفتيه الحروف:

اااه.

،ام طارق حاجبيْه بدهشةٍ وهو يتساءل:

ا رزل؟ مبسوط من أيه؟ إننا ماشيين؟

هزْ يوسف رأسه أنْ لا.

أمال أيه؟

سفس النبرة المتقطَعة أجاب:

و فـ اا ء.

مطْ طارق شفتيْه بعدم فهمٍ، متسائلاً:

أيه مالها وفاء؟

تمتم يوسف:

- هنا.

عقد طارق حاجبيْه في محاولةٍ لفهم المقصود، وهو يتساءل مرةً أخرى بشيءٍ مِن الحذر:

- ما هي معانا على طول، أيه المشكلة؟

لم يتلقَ جوابًا مِن يوسف الذي عاد لصمته وتأمّلاته في الفراغ، فصمت للحظةٍ التهمتْ فيها علامةُ استفهامٍ كبيرةٍ الجزء الأكبر مِن عقله وتفرّغ


fb.com/ groups/ exchange.book

الجزء الباقي منه لصياغة نفس السؤال بشكلٍ آخر لتكراره مرةً أخرى، لولا أنْ عاجله يوسف على غير عادته بالإجابة وهو يعاود النظر نحوه وكأنّما قرأ ما يجول بخاطره سابرًا كلّ أغواره، قائلاً بلهجةٍ بَدَتْ في أُذُنِ طارق صارمةً على الرغم مِن تقطُّعِها:

- يـوسف ... بيحب ..... وفاء.

صُعِق طارق مِن الإجابة، وكادت تُلقي به مِن فوق مقعده، ولكنه حاول إخفاء هذا بصعوبةٍ بالغةٍ خلف ضحكةٍ قصيرةٍ مرتبكةٍ أطلقها مُضفيًا عليها لمحةً مِن السخرية وهو يغمغم وكأنّ شيئًا لا يعنيه مِن الأمر:

- بتحبها ازاي يعني؟ ماحنا كلنا بنحبها، هيّا أصلاً طيبة وبتاخد بالها منك. بصراحة يا بختك يا يوسف، محدش يلاقي أخته الكبيرة بتعمل معاه كل ده وميحبهاش الصراحة، أنت معاك حق.

- يـوسف .... بيحب ..... وفاء.

كرّر يوسف جملته بنفس الطريقة، وكأنّما يودُّ تأكيد معنًى غير الذي قصده طارق في كلامه، مِمّا جعل طارق يبتلع ما تبقّى بين شفتيْه مِن حديثٍ وهو يعي تمامًا ما يقصده أخوه الأصغر فتراجع في مقعده، في حين عاود الآخر التطلُّع نحو الفراغ بعينٍ شبه جامدةٍ، وابتسامةٍ تركها فوق ملامحه لتتّسع، وتتّسع، وتتّسع.

*****

أمام المكتب في مواجهتي، جلس الحاج محمدين، العجوز الصعيديّ صاحب محلّ البقالة المواجهة لورشة الحاج عبد الحميد، بوجهٍ رَسَمت التجاعيد فوقه كلّ خرائطها، مرتديًا جلبابه أبيض اللون مُحرّكًا إحدى قدميْه بتوتّرٍ وعصبيةٍ وهو يرتشف رشفةً مِن فنجان القهوة الدافئ في يده محاولاً التقليل من حدّةِ توتّره قبل أنْ يلتفت إليّ قائلاً:

لا مؤاخذة يا بيه، أنا صحيح راجل كبير، لكن عمري فحياتي ما دخلت قسم شرطة أو عملت محضر حتى، فيعني تلاقيني مش على بعضي ومشدود حبتين.

ابتسمتُ ابتسامةً هادئةً وهززت رأسي في محاولةٍ لطمأنته وأنا أقول:

مفيش حاجة تقلق يا حاج، أنت جي هنا بس عشان تساعدنا، كلّ الحكاية إننا عندنا شوية أسئلة واحتمال نلاقي عندك أنت إجاباتها، مش أكتر ولا أقل.

ارتشف الرجل رشفةً أخرى مِن فنجان القهوة، وقد بَدَتْ على وجهه أمارات ارتياحٍ، وقلّ توتّره إلى حدٍّ ما، ثم قال مكملاً حديثًا كان قد بدأه:

- ربنا يعلّي مقدارك يا أيمن بيه.

هززتُ رأسي بلا معنًى وأنا أشير له بألّا داعي لإضاعة المزيد مِن الوقت في تلك الأحاديث الهامشية، فسعل سعلتيْن متتاليتيْن قبل أنْ يُخرِج مِن جيبه منديلاً قماشيًا مسح به فمه ليُعيده مرةً أخرى إلى موضعه مستطردًا:


fb.com/groups/exchange.book

- المهم، زي ما قلت لحضرتك، وفاء بنت معاشتش طفولتها، أمها ماتت بعد خلفتها بست سنين، وأبوها الله يرحمه، أياميها مكانش راجل قادر وصاحب أملاك، كان كلّ رزقه الفلوس اللي طالعاله من شغله في الورشة مع عبد الحميد، الله يرحمهم هما الاتنين، فيعني مكانش في مجال أصلاً لا للعب ولا للدلع، وسبحان الله، البنت في سنها الصغير ده، بقت مالية الدنيا على أبوها، اتعلمت تعمل كل حاجة، اللي بيها إن أبوها ميحسش بفراغ بعد موت والدتها.

صمت لحظةً وبدا على عينيْه السارحة في سقف الحجرة أنّه يسترجع بعض الذكريات مستطردًا:

- كانت بالنسباله زي ملاك نازلة من السما، تعويض من ربنا على اللي خسره، ساعات كانت تعدّي عالورشة وهي صغيرة شايلاله شوية أكل في العامود بتاعه يتغدى بيهم، وكنت أحب أنا بقى أوي أصطادها وهيا طالعة من عندهم أمسكها ألعب معاها وأديها ملبّس أو بسكوت من عندي، كت يا دوب عيلة ٩ سنين أو أقل، بس كان يبان عليها وعلى نظراتها، إنّ عقلها أكبر من سنها بكتير، عمري ما شفتها بتضحك ضحكة العيال اللي في سنها، لأ، كت بتضحك ضحكة تانية، ضحكة بتاعتنا احنا الكبار، فاهم قصدي يا أيمن بيه؟ ضحكة اللي بيضحك عشان محتاج يحس إنه لسه قادر يضحك، أمّا الواد طارق بقى ده فكان حكاية.

صمت لحظةً هزّ رأسه خلالها وكأنّما يستفيق مِن بحر ذكرياته قائلاً:

معلش يابني، أنا شكلي بسرح بالكلام في حاجات ملهاش لازمة، اعذرني.

ردخلتُ قائلاً:

لا يا حاج أبدًا، هوا دا اللي احنا عايزينوا، التفاصيل مهمة جدًا بالنسبالنا، الفضل على راحتك خالص وكمل.

أعاد الرجل فنجان القهوة الفارغ فوق الصينية المعدنية الموضوعة على الطاولة القصيرة أمامه، ثم عاد لوضعية جلوسه المُريحة ليكمل حديثة قائلاً:

- ماشي يابني، المهم، الدنيا مشيت سنين عالوضع دا عادي، مفيش حاجة بتتغير فيه إلا الزمن، والعمر اللي بيعدي ويغيّر في الملامح، لحد ما أبوها اتجوز الحاجة أم طارق، ومن ساعتها الحياة زي ما تقول كدا اتبرجلت، أو جايز مش للدرجة يعني، بس أنا أعتقد إنّ العداوة اللي زادت بشكل واضح ما بين طارق وأبوها خصوصًا في الكام سنة الأخيرة دول وبعد موضوع التوكيل اللي سمعت عنه أثّرت على حاجات كتير أوي في حياتهم، واللي عرفته برضو إنّ بعدها طارق سابلهم البيت بخناقة وخد معاه أخوه الصغير يوسف غصب وعِنْد في الكل.

صمت مرةً أخرى احترامًا لصوت رنينِ هاتفي الخاصّ الذي ارتفع عند تلك النقطة، فالتقطته مِن جيبي وأنا أشير للرجل أنْ عُذرًا قبل أنْ تلتقط عيناي اسم المتصّل وأضعه على أذني مجيبًا:

- آلو.


fb.com/groups/exchange.book

صمتتُ للحظاتٍ استمعتُ خلالها إلى وابلٍ مِن الشكوى أطلقته خطيبتي كعادتها على الطرف الآخر للمكالمة في أذني، قبل أنْ أجيب بصوتٍ خفيضٍ في محاولةٍ لجعل حياتي الشخصية بعيدةً عن مرمى أذن ذلك العجوز الجالس أمامي:

- آه طب ماشي، مفيش مشكلة، قوليلها اللي هيا عايزاه، الطقم البيج مش عاجبها خلاص.

صمتتُ لحظةً أخرى قبل أنْ أجيب بنفس الصوت الخفيض:

- آه أكيد، لأ منسيتش، أيوه هخلص بس شغل وأشوفك.

استمعتُ لها قبل أنْ أجيب بدهشةٍ وأنا أمدُّ يدي لالتقاط ساعتي الملقاة فوق المكتب:

- أيه دا فعلاً؟ هيا جت خمسة ونص؟

اكتملت المكالمة ببعض التمتمات والهمهمات، تخلّلتها أشياء مِن قبيل «مليش غيرك وإنتي عمري»، وما إلى ذلك مِن الأمور التي يعلم كلُّ شابٍّ أنّ لها مفعولاً كالسحر في تسيير العلاقة، ثمّ تطلعتُ إلى الرجل الذي بدا كضيفٍ ثالثٍ في المكالمة وهو يقول بتلقائيةٍ دونما حرجٍ مِن الاعتراف بذلك:

- اتأخرت عليها شكلك.

ادتُ أهمّ بالدفاع عن نفسي وتبرير الموقف له، قبل أنْ أدرك على فوري سداجة ذلك وأنا أبتسم في وجهه مغمغمًا:

سُكلنا مش هنشبع من قعداتك وحكاويك دي يا حاج، بس احنا كدا النهاردة طوّلنا عليك، وصراحة أنا فعلاً كنت هضيع معادي مع خطيبتي. نستأذنك بس تِمْضي في آخر الورقة دي عاللي حكيته، ولو لينا نصيب، ووقتك يسمح، نشوفك بكرة تاني.

غمغم الرجل وهو ينهض متجهًا نحو الكاتب الجالس على مكتبٍ مجاورٍ لي، ليلتقط منه قلمًا خطّ به توقيعه فوق الورقة المقصودة:

أمرك يا أيمن بيه، واحنا ميرضيناش نزعّل منك خطيبتك.

قالها ثم استطرد بابتسامةٍ حانيةٍ:

- ربنا يخليهالك يابني.

لم أدرِ حينها، لم بَدَتْ دعوته بالنسبة لي، وكأنّها موجّهةٌ إلى تلك الفتاة الرقيقة التي لمعت عيناه تأثرًا وسط حديثه منذ قليلٍ عنها، إلى وفاء، وفاء عمران.

*****


fb.com/groups/exchange.book

## الإسكندرية، ١٩٨٨ م

بمنتهى البساطة بعد عامٍ واحدٍ، وبشكلٍ بدا للجميع سريعًا، ارتبط حسين وهيلين. تزوجا في النمسا، دون تلك التعقيدات الروتينية المعروفة لدينا، مُشارِكًا أهله الفرحة بمجموعةٍ مِن الصور أرسلها لهم كأمرٍ واقعٍ لا سبيل فيه للنقاش مع أحدٍ، مُمضيًا معها الشهور الأخيرة المتبقّية مِن إقامته في فيينا قبل أنْ يعود معها إلى أرض الوطن.

بالنسبة لهيلين، بدأ الاختلاف التدريجيّ في كلّ شيءٍ مع عودتهما إلى مصر؛ لقد أنهى فترة دراسته هناك في النمسا، وحصل على الزمالة المرجوّة، وكان مِن الطبيعيّ أنْ ينتقلا سويًا للعيش في البيئة التي نشأ فيها. في بادئ الأمر كانت منجذبةً إلى ذلك العالم الجديد، الشوارع والبيوت والوجوه الجديدة المختلفة بالنسبة لها، والحياة الصاخبة الممتلئة بزحام الأحداث، مازالت غير متأقلمةٍ تمامًا على الوضع الجديد، ولكنها تحاول. هي تحبُّه، وربّما اعتمادًا على هذا فقط يستطيعان إكمال الطريق.

مرّتْ عليها الشهور كفترةِ اختبارٍ أجهدها خلالهم عدم استيعابها التامّ للوضع الجديد، إضافةً إلى عدم اتّساع صدر أهله لها، كانوا كمعظم العائلات المصريّة المحافظة، غير مقتنعين بفكرة أنْ يقضي ولدهم ما بقي له مِن العمر مع امرأةٍ لا تتحدّث نفس لغته؛ عاداتها مختلفةٌ، تقاليدها مختلفةٌ،

واالبرها مختلفٌ.

مش كنت خدت فاطمة بنت خالتك أحسن؟

الد تمّت هذه الزيجة بغير رضًا تامٍّ مِن جهتهم، وانعكس ذلك بطبيعة الحال على تعامُلِهم معها، نقاطٌ عدةٌ لم تتلاق بينهم على مدى عامٍ كاملٍ مرَّ عليهم سويًا كان مِن أهمّ نتائجه ذلك التضخُّم الواضح في بطنها والذي أعلن عن اقتراب وصول زائرٍ جديدٍ سيُضاف في كشف قائمة العائلة. غمرت السعادة حسين بشكلٍ كبيرٍ، هو في انتظار مولوده الأوّل الذي أثبتت الأشعة أنّها أنثى، سيكون أبًا بعد بضعة أشهرٍ مِن الآن، لم يغفل أبدًا رغم انشغاله في عيادته التي فتحها بعد أشهرٍ قليلةٍ مِن عودته، ذلك الحاجز النفسيّ القائم بين زوجته هيلين وبقية الأسرة.

كان يدرك منذ البداية، وتأكّد بالمحاولة، أنّ تأقلُمهم سويًا هو أمرٌ يكاد يكون مستحيلاً لا وجود له تمامًا كالعنقاء والخلّ الوفيّ، وأنّ الفصل بينهم هو وضعٌ حتميٌّ مطلوبٌ لا شكّ في ذلك، لهذا لم يَجِدْ بُدًّا مِن البحث عن سكنٍ آخر يجمع بينه وبين زوجته والطفلة القادمة بعيدًا عن بيت العائلة الكبير.

بالفعل وجد، وانتقل معها إلى بيتهم الصغير الجديد، لتبدأ مرحلةٌ جديدةٌ من المشاكل:

في وطني كنت أرتدي ملابسَ كهذه، وهنا في وطني هذا غير مسموحٍ به،


fb.com/ groups/ exchange.book

لماذا لا يمكنني التنزّه بمفردي أثناء غيابك؟

- ليس هذا بالأمر المفضّل أو الآمن في مثل تلك الظروف.

- حسين، أنا أشعر بوحدةٍ قاتلةٍ.

- هيلين، صبرًا، طبيعة الحياة هنا تختلف كثيرًا عما اعتدتِ عليه هناك في وطنك. الحريّات هنا لها إطارٌ معينٌ لا يمكننا إغفاله أو التساهل فيه، والعمل هنا أدرك أنّه يستنزف معظم وقتي، ولكنّ هذا هو الطبيعي في بداية الطريق، ربّما بعد فترةٍ سنتمكن من تهيئة الوضع بما يناسب، وهذا يستدعي من كلينا الصبر. ربّما مِن المناسب أنْ نبحث لكِ عن وظيفةٍ لشغل وقت فراغك يمكنك القيام بها في البيت.

وهكذا، تمرّ الشهور، وتصل سيلفيا، الضيفة الجديدة، طفلةً رقيقةً غايةً في الجمال، هكذا أسموها، تلك الروح الجديدة التي أَحْيَت بداخله شعورًا لم يخامره مِن قبل، لقد صار أبًا، وبطبيعةٍ لم يُدرِكها من قبل أو لم يشأ يومًا ما أنْ يفكّر فيها، ازدادت مسئولياته، وزاد تركيزه على عمله وعيادته لتغطية المسئوليات المتجدّدة، وبالتالي تضاعف على هيلين إحساسها بالوحدة، وضغط الفتور المتنامي داخلها.

سنةٌ أخرى تمرُّ، تتبعُها شهورٌ تنامت خلالها أزمتُهم المحسوسة مع تنامي الطفلة الجديدة أمام أعينهما يومًا بعد يومٍ، كلاهما يتذكّر ذلك اليوم الذي استندت فيه أمامهما على الحائط لتقف على قدميْها، ثم تتوجّه بخطواتٍ

مهنزة بطيئة نحوهما سيرًا قبل أنْ تسقط بين حضنيْهما مبتهجةً لتلك الخطوة فخورةً بنفسها. أوّل كلمةٍ نطقت بها، العلامات على الحائط التي وضعوها لقياس طولها على مرّ الفترات، أشياء لن ينساها كلاهما.

حتى ذلك اليوم الكئيب الذي أوقف فيه حسين سيارته أسفل البيت عائدًا من يومٍ عملٍ طويلٍ مُجهِدٍ في العيادة، كان يحمل بين يديه ذلك النوع المفضل لدى سيلفيا من الشوكولاتة، صعد به إلى البيت ودقّ جرس الباب منتظرًا، لا أحد يجيب، ضغطه مرةً أخرى، وأخرى، لا شيء، مِن العجيب أنْ يكونا نيامًا في مثل هذا الوقت! مدّ يده إلى جيبه بحثًا عن مفتاحه الخاص، أخرجه ودسّه في الفتحة المخصصة وهو يدير المقبض، انفتح الباب، المكان مظلم، مدّ يده إلى زرّ الإضاءة ليفتح النور، كلّ شيءٍ في مكانه، الوضع هادئٌ، الأثاث مرتبٌ ونظيفٌ على نحوٍ مريبٍ لم يعتده في وجود طفلةٍ تعبث دومًا بكلّ شيءٍ، أطلق لحنجرته العنان مناديًا وهو يتجه بخطواتٍ مُجهَدةٍ قلقةٍ نحو الداخل:

- هيلين، زوجتي الحبيبة، لقد عدتُ مِن العمل، سيلفيا، سيلفي، استيقظي، حان وقت اللعب.

كان مع كلّ خطوةٍ يخطوها إلى الداخل، يتزايد بداخله القلق مِن عدم وجود أيٍّ منهما في المكان، دارت عيناه في أرجاء الغرف الخالية تمامًا، تفاقم قلقه حتى وصل إلى حدّ الذعر وهو يدور في المكان الخالي مناديًا بصوتٍ أعلى:


fb.com/groups/exchange.book

- هيلين، هيلييين، أين أنت؟

لا أثرَ لهما، أيّ أثرٍ، الدواليب فارغة تمامًا مِن ملابسها وملابس الطفلة، لقد رحلت وتركت المكان خاليًا مرتبًا نظيفًا وكلّ شيءٍ في موضعه على أكمل وجهٍ. رحلتْ بمنتهى الهدوء واللباقة وكأنّما أرادت أنْ تخبره بأنّ فراقهم كان على الرغم مِن قسوته هادئًا، جميلاً، إضافةً إلى تلك الرسالة الورقية التي وجدها ملقاةً فوق مائدة الطعام الزجاجية أمام باب المنزل، والتي لم يلمحها لحظة دخوله، مدّ يده المرتعشة نحوها، قرأ على ظهرها تلك الجملة القصيرة المكتوبة بأحمر الشفاه الخاصّ بها:

«إلى حبّي الأول حسين»

بحزنٍ شديدٍ، وخوفٍ أشدّ، وتوترٍ جعل يده ترتعش بشكلٍ أكبر مع أنفاسه المتلاحقة ودقّات قلبه التي بَدَتْ له مسموعةً وهو يقلِب الوجه الآخر من الورقة ليطالع ما فيها، ولتنهار أحلامه كلها أمامه، بشكلٍ مفاجئٍ، ودفعةً واحدةً.

*****

بملامحي السارحة، وذهني الشارد، جلستُ في مواجهة خطيبتي داخل ذلك المطعم الفاخر الذي انبعثتْ تلك المقطوعة الموسيقية المعروفة مِن أحد أركانه، والمِلْعَقة في يدي تُداعب الصحن الممتلئ بالطعام أمامي على

ا- ـصاء دون أنْ ترتفع مرةً واحدةً منذ بداية الجلسة إلى فمي.

ا..ـ أهزُّ رأسي فقط بين الحين والآخر مُصدِرًا بعض الهمهمات مُحاولاً مشاركتها في حديثٍ لم أستوعب حرفًا مِنه وهي تتكلم بانفعالٍ مُفعَمِ البهجة وتلوّح بيدها قائلةً:

ومفرجتكش بقى عالطقم المدهَب اللي نقيته مع ماما امبارح، تحفة، وأصلاً مش هتصدق السعر، أنا واثقة انوا هيعجبك أوي.

قطعتْ كلماتها وهي تغرس شوكتها في قطعة اللحم المقدَّد أمامها، قبل أنْ ترفعها نحو فمها لتمضُغها على عجلٍ مُكمِلةً:

على فكرة القاعة اللي شفناها آخر مرة دي مش عاجباني أوي، اللي قبلها كت أحسن، خلينا نشوف برضو قاعات تانية يمكن... صح ونسيت أقولك، انجي بنت عمي بتقولي لازم نروحلها، شركة السياحة اللي شغالة فيها عاملة بروجرامات وعروض هايلة لشهر العسل، متنساش تفضّي نفسك كمان يومين كدا نخطف نفسنا ونروح، ماما أصلاً كانت عايزانا نروح أنا وأنت النهاردة، بس أنا قلتلها إنّ حبيبي في نصّ الأسبوع بيبقى راجع من شغله تعبان فاعمل حسابك على آخر الاسبوع كده، وللا أنت أيه رأيك؟

هززتُ رأسي مجيبًا باقتضابٍ، وعقلي غارقٌ بين صورِ وأوراقِ القضية التي تركتُها خلفي على مكتبي في القسم:

- أيوه.


fb.com/groups/exchange.book

أزاحتْ خصلةٌ سارحةٌ انسدلتْ فوق جبينها وهي تتناول جزءًا آخر مِن الطعام مُكمِلةً:

- عايزين نعمل شهر عسل برا مصر، بيقولك السياحة أسعارها بقت هايلة الفترة دي، وأعرف ناس صحابي كتير دلوقتي كلهم قضوا الهني مون بتاعهم في أسبانيا وتايلاند، شرم والكلام دا بقت موضة قديمة، إحنا عايزين نتبسط بقى، دا شهر في العمر يا حبيبي، أنا عارفة طبعًا إنك هتبقى مبسوط معايا في أي حتة، مش كدا يا أيمونتي؟

بنفس اللهجة والطريقة المقتضبة أجبتُ:

- أيوا.

عقدتْ حاجبيْها بدلالٍ غاضبٍ متسائلةً:

- أيوه أيه؟

تنبهْتُ مع استفهامها المفاجئ وأنا أتمتم ببطءٍ حَذِرٍ:

- أيوه عاللي بتقوليه، كله جميل.

- جميل أيه بس يابني؟ أنت شكلك مش معايا أصلاً ومش مركز في حاجة ماللي بقولها خالص.

لحظةُ صَمْتٍ وعقلي فيها يحاول البحث عن إنكارٍ لحالة الشرود المسيطرة عليَّ، قبل أنْ أستسلم معترفًا بوضوحٍ:

بصراحة، آه، أنا دماغي مش هنا أصلاً.

مطّت شفتيْها في شيءٍ مِن الضيق قائلةً:

دماغك مش هنا؟ أمال مع مين يا أستاذ؟ وطبقك دا اللي مكلتش منه ولا لقمة، يا ترى في حاجة في كلامي سدّت نفسك؟ وللا أيه؟

هززتُ رأسي نافيًا، وكأنّما أنفض الأفكار عنها قائلاً:

لا أبدًا يا حبيبتي، أنا مفيش حاجة ممكن تسدّ نفسي وأنا معاكي، بس القضية اللي شغال عليها بس اليومين دول واكلة كلّ تفكيري، وحاسس إنّ في حلقة مفقودة في القصة مش عارف أوصل فيها لحل، بالنسبالي القضية دي من التحديات اللي لو حليتها هتفرق معايا كتير أوي.

رفعتْ أحد حاجبيْها بتعجُّبٍ وفضولٍ وهي تنتهي مِن مضغ أحد كرات اللحم في فمها متسائلةً:

- قضية؟ قضية أيه دي؟ أوعي تكون قاصد قضية البنت اللي لقيتوها مقتولة من أسبوع دي؟

أطلقتُ تنهيدةً طويلةً خرجتْ مِن أعماقي وأنا أتراجع في مقعدي مغمغمًا:

- أيوه هيّا.

تساءلت بتعجُّبٍ:

- أنتوا لسه شغالين فيها؟ لسه معرفتوش مين الجاني؟


fb.com/groups/exchange.book

أخرجتُ علبه سجائري من جيبي ثم التقطتُ واحدةً مِنها دسستُها بين شفتيّ وأشعلتُها نافثًا دخانها في المكان المغلق وأنا أقول:

- لأ لسه، بصّي هو الموضوع مش موضوع إننا معرفناش مين الجاني، إحنا تقريبًا إلى حدٍّ ما عرفناه، بس المشكلة إننا مش عارفين نوصلله، وبعدين مش عارف أنا ليه القضية دي بالذات حاسسها زي ماتكون قضية تخصني أنا، مش مجرد قضية أنا ماسكها وخلاص.

مالتْ نحوي برأسها قائلةً باهتمامٍ:

- طبْ ما تحكيلي، ممكن أقدر أساعدك.

ابتسمتُ ابتسامةً هادئةً وأنا أتأمّلها للحظة، قبل أنْ أمدَّ يدي ماسحًا على رأسها قائلاً:

- متشغليش بالك، إحنا مش خارجين هنا عشان نتكلم في الشغل.

أزاحتْ يدي عن رأسها قائلةً في شيءٍ مِن العناد:

- أنت مش واثق في ذكائي وللا أيه؟

تساءلتُ ببساطةٍ وأنا لا أزال مُحافظًا على ابتسامتي:

- ليه بتقولي كدا؟

ضمّت شفتيْها وعقدت حاجبيْها أنْ غاضبةً، وهي تقول:

- مش عايز تحكيلي أنت أيه اللي محيرك، مش ممكن تفكيرنا سوى في

الموضوع يفرق؟

صمتتُ لحظةً مقلبًا الأمر في رأسي، كنتُ كمَنْ يبحث عن نقطةِ بدايةٍ لحلقةٍ مكتملةِ الاستدارة،

الحيرة هي الراعي الرسمي لتلك القضية التي عجزتُ تمامًا فيها رغم كلّ الأوراق وأقوال الشهود التي لديّ، كنتُ بالفعل بحاجةٍ لمن يمدُّ لي يد العون، عقلٌ جديدٌ، ربما تتمكّن تلافيفه مِن حلّ تلك العُقَدِ التي عجز عقلي عن إيجاد حلٍّ منطقيٍّ لها.

تراجعتُ في شيءٍ مِن استسلامٍ أمام طلبها وأنا أنفث نفسًا آخر مِن دخان سيجارتي ملأت به المكان قبل أنْ أحسم أمري بداخلي وأقول:

- بصي يا ستي.

اعتدلتْ هي بدورها وهي تلتقط منديلاً ملقًى أمامها على الطاولة مسحت به أطراف شفتيها قائلةً:

- بصّيت.

يقولون إنّ وراء كلّ عظيمٍ امرأةٌ، تركها خلفه، ولم يحاول إشراكها في أمور حياته المصيرية، إلّا بالقَدْرِ المحسوب، مددتُ يدي في جيبي مخرجًا علبةً حمراءَ صغيرةَ الحجم فتحتُها ثم أدرتُها في اتجاهها قائلاً في لهجةٍ نجحتُ في أنْ أجعلها ساحرةً:


fb.com/groups/exchange.book

- بحبك.

اتّسعت عيناها بسعادةٍ غامرةٍ وتراجعت برأسها وهي تتطلّع إلى ذلك الخاتم الذهبي الراقد داخل العلبة، قائلةً بلعثمةِ الفرحة وقد نسيت تمامًا كلّ ما يخصّ القضية أو حيرتي:

- إنت، مجنون!

مددتُ يدي ملتقطًا الخاتم لأضعه بين أصابعها طابعًا قبلةً حانيةً فوقها وأنا أكرّر

بصدقٍ منتشيًا بتلك اللحظة:

- بحبك.

اتّسعت ابتسامتها بدورها يصاحبُها شعورُ الطير المحلّق نحو جنّته قائلةً:

- وأنا بموت فيك.

*****

# القاهرة، ١٩٩٨ م

- العقد ده جابتهولي أمي الله يرحمها يوم جوازي، قلب دهب دليل عالحب اللي يعيش طول العمر، وفنصّه حجر اللازورد دا يحمي صاحبه من العين، خديه يا وفاء البسيه ومتقلعيهوش من رقبتك لحد ما ربنا يوريكي نصيبك

في يوم من الأيام، عليكي دلوقتي هيبقى أحلى، وأنا مش هلاقي أغلى منك أديهولوا، حافظي عليه يا بنتي.

*****

# مايو ٢٠٠٥ م

ألقتْ مسئولة الاستقبال ذات التعليم المتوسط في ذلك المركز المخصّص لرعاية المسنّين نظرةً جانبيةً مرتبكةً على سلامة المتّجه نحوها في خطواتٍ واسعةٍ سريعةٍ، وملامحَ حملت الكثير من الغضب وهي تحاول دفن رأسها بين مجموعةٍ من الأوراق أمامها هروبًا مِن مواجهة ذلك الأخير الذي ضرب الرفَّ الرخاميّ أمامها براحتيْه بقوةٍ، وهو يصيح في وجهها غاضبًا:

- فين الحمار المسئول عن الدار دي؟ دا أنا هوديكوا كلكوا في داهية يا غجر.

التفتَتْ نحوه وبدا الارتباك واضحًا على نبرتها، وهي تنهض من مقعدها وتشير بأصابعها نحوه قائلةً بصوتٍ مرتعشٍ فشلت في أنْ تجعله أكثر صرامةً:

- أيه اللي أنت بتقولوا دا يا أستاذ؟ ميصحش الألفاظ دي هنا بعد أذنك.

لوّح سلامة بذراعيْه في وجهها، وهو يصيح:

- بلا أستاذ بلا زفت، أنا مش جاي لابسلك شورت وكشكولي فإيدي يا أبلة،


fb.com/groups/exchange.book

ركزي كويس معايا، أنا ابن شارع ومفهمش في شغل القصّ واللزق ده.

تدخّل أحد الموظفين في المكان مع صوته العالي قائلاً:

- في أيه يا أستاذ؟ أيه اللي حصل بس، أهدى كدا حضرتك و تعال نتفاهم.

قالها وهو يضع يده على كتفه، محاوِلاً سحبه بعيدًا عن الأنظار، فدفع سلامة يده بقسوةٍ وهو يهتف بغضبٍ:

- أوعى أيدك دي، أستاذ أيه يا شوية حرامية؟ دانا هفضحكوا هنا، فين المدير بدل ما أطربقلكوا المكان عاللي فيه.

كان صوته المرتفع قد اجتذب معظم الموجودين في المكان مِن زوّار ونزلاء، وكذلك عددًا مِن المشرفين وعُمّال النظافة في المكان الذين التفّوا حوله، وبعضٌ منهم يحاول تهدئته بينما تدخّل أحدهم قائلاً:

- طب بس نفهم هوا أيه المشكلة بالضبط؟ عشان نعرف نحلها.

أجابه سلامة وأنفاسه تتلاحق من فرط الانفعال والغضب:

- البني آدمة الغلبانة اللي مبتقدرش تتحرك ولا بتشوف عندكوا جوه دي، خدمة أيه ورعاية أيه اللي أنا بدفعلكوا عليها فلوس، عشان ترموها كده من غير نضافة؟ ولا حمّى بقالها أسبوعين؟ وحتى الأوضة نفسها والملايات ريحتها كلها بول وقرف! هما اللي عندكوا دول معتبرينهم حيوانات وللا أيه بالضبط؟ أنا مش فاهم؟؟

تبادل العاملون النظرات المرتبكة بين بعضهم بعضًا وكلٌ منهم يحاول نفي التهمة عن نفسه، بينما تدخّل آخر:

إزاي حضرتك بس؟ دا مستحيل، إحنا عندنا تفتيش يومي بيتمّ، حضرتك تقصد أنهي نزيل بالضبط؟

بدا للرجل أنّ سلامة على وشك أنْ يبصق في وجهه وهو يزفر بضيقٍ واضحٍ مُشيحًا بوجهه للحظةٍ، قبل أنْ يجيب بنفاد صبرٍ:

- الحاجّة وديدة نور الدين.

هزّت إحدى عاملات النظافة في المكان رأسها قائلةً:

آه، ماما وديدة.

ثم استطردت موجّهةً حديثها إلى سلامة قائلةً:

- دا احنا في الدار هنا كلنا بنحبها، دي بركة الدار، ومعلش عمومًا حضرتك ممكن يكون حصل تقصير لأيّ سبب من الأسباب الفترة اللي فاتت، أو تكون أنت جيت بس في وقت مش مناسب، بس وعد مني ليك، أنا بنفسي هروح دلوقتي أشوف كل اللي هيا محتاجاه، والمرة الجاية لما تيجي إن شاء الله تنوّرنا مش هتلاقي في نفسها حاجة ومتعملتش...

تدخّل موظفٌ آخر مؤكّدًا على كلامها:

- إحنا بنكرر لسيادتك أسفنا بجد، و دا مش هيحصل تاني أبدًا أنا بأكّدلك.


fb.com/groups/exchange.book

زفر سلامة بحنقٍ والغضب نارٌ تتأجّج في داخله وإنْ قلّتْ جذوتها إلى حدٍ كبيرٍ مع ردّ الفتاة عاملة النظافة، قبل أنْ يسحب نفسًا عميقًا مِن الهواء المحيط ملأ به صدره، ثم قال بلهجته الغاضبة:

- أقسم بالله، أنا لو جيت تاني ولقيت منظر زي اللي شفته النهاردة دا في أوضتها، صدّقوني طربقة المكان على دماغكوا مش هتبقى مبالغة، تمام؟

هزّ بعضٌ منهم رأسه، بينما تمتم متحدّثهم اللبق قائلاً:

- إنْ شاء الله مش هتلاقي حاجة تانية هنا تزعلك.

ثم أشار لفتيات النظافة بيده آمرًا:

- يلا يا بنات دلوقتي كدا بسرعة مش عايزين نتأخر أكتر، مقشّة وجاروف فإديكوا وتمسحوا الأوضة كويس بالمطهر، وانتي لمّي كلّ الملايات اللي مش نضيفة في المكان وابعتيها المغسلة، وبدلولهم ملايات مالمغسولة، ويلا يا راندا هتاخدي ماما وديدة تحمّيها حماية كويسة كده وتخليكي معاها عشان بفرض إنها احتاجت منك أي حاجة خلال اليوم.

رمقه سلامة بنظرةٍ تهكّميةٍ خاصةٍ مُدركًا في قرارة نفسه أنّ كلّ ما يحدث أمامه هو مشهدٌ تمثيليٌ مكررٌ بالنسبة لهم لامتصاص غضبه الهادر، وعلى الرغم مِن تحرُّك الفتيات بالفعل لتنفيذ العمل، إلّا أنّ هذا الأخير ظلّ واقفًا يراقبهم للحظاتٍ قبل أنْ يرفع إصبعه الموجّه نحو ذلك الفتى اللبق قائلاً بنبرةٍ تحذيريةٍ:

أنا أقسمت، المرة الجاية مش هتعدي.

قالها ثم دار على عقبيْه مغادرًا المكان.

*****

علت شمس النهار البِكر، وضباب الفجر نديُّ الرائحة لا زالت بعضُ آثاره في الجوّ لم تنقشع، كتيجانٍ زيّنت رؤوس المباني القديمة في تلك الحارة، وأضفتْ على جدرانها برودةً استقاها الفتى الصغير، ذو السبعة عشر عامًا، بظهر كفّه الذي تركه سارحًا فوق الجدران ماسحًا عليها أثناء السير وكفّه الأخرى تُعانِق يد والده طويل القامة، عريض المنكبيْن، مهندم المظهر إلى الحدّ الذي يجعلك تتصوّر للوهلة الأولى أنّه غريبٌ عن تلك المنطقة، يسيران أحدهما إلى جانب الآخر عبر الأزقّة، يتّجهان يمينًا ويسارًا مع الطريق في رحلته.

ثم هاهي ذي تظهر من بعيدٍ؛ اليافطة الخشبية البيضاء مكتوبٌ فوقها بالخطّ اليدويّ الرائع: «عبدالحميد للنجارة وتجارة الأخشاب»

مال الأب نحو أُذُنِ الفتى قائلاً:

- وأدينا وصلنا يا طارق، شفت بقى أزاي مش بعيدة حتى لو اتاخدت مشي؟

أومأ الفتى برأسه أنْ نعم، مُخفيًا ضيقه من عدم إتاحة الفرصة له في القيادة


fb.com/groups/exchange.book

هذا اليوم، في حين ظهر سلامة الذي بدا وكأنّما تفاجأ بوجودهم قائلاً وهو يلقي سيجارةً كانت في يده بعيدًا وينفث بقية دخانها مِن بين شفتيْه على استحياءٍ:

- صباح الخير يا حاج، صباح الخير يا طارق، أيه انتوا جايين بدري النهاردة يعني.

لم يُعِرْه طارق اهتمامًا وهو يبحث ببصره عن الحاج عمران، الذي ما إنْ لمحه حتى انطلق نحوه، بينما اقترب والده مِن سلامة وجذبه مِن أُذُنه قائلاً باستياءٍ أبويٍّ:

- برضو سجاير؟ يابني أنتا لسه صغير عالكلام دا، إحنا مش قلنا نبطل الزفتة دي وإحنا صغيرين كدا أحسن؟

انكمشتْ ملامح سلامة مِن ألم الجذبة، وقال وهو يحاول تخليص أذنه:

- خلاص يا حاجّ، خلاص. بجدّ هبطل إن شاء الله.

في نفس اللحظة التي كان فيها الحاج عمران، بملابسه المخصّصة للعمل، وتلك النظارة المتّصلة بخيطٍ أسودَ سميكٍ مُعلّقٍ على رقبته، يربّت على كتف طارق مُرحّبًا وهو يقول ويده الأخرى مُمسكةٌ بقلم رصاصٍ، أخذ يخطُّ به بعض العلامات على ألواحٍ من الخشب تراصّتْ أمامه:

- أهلاااااان طروووووق حبيبي، صباح الخير.

ام اتجه بنظره نحو مدخل المكان متسائلاً:

أمال بابا فين؟

أجاب طارق بسرعةٍ بدا معها أنّه على عجلةٍ مِن أمره:

بابا داخل ورايا أهو، المهم بس قبل ما ييجي، هوا روي عامل أيه؟

أفصحتْ ملامح عمران عن ابتسامةٍ، متأمّلاً وجه طارق المُهتمّ، ثم مال نحوه مُتصنّعًا السرية وهو يغمز قائلاً بصوتٍ خفيضٍ:

روي في الحفظ و الصون، وزي الفل، دا حتى عمال ينبح في المنور على طول ومنيمنيش طول الليل.

تساءل طارق بقلقٍ:

- بينبح ليه طب؟ ما يمكن جعان.

هزّ عمران كتفيْه وهو يعتدل لمعاودة إكمال عمله:

- لا متقلقش، وفاء قايمة بالواجب وزيادة، دي تقريبًا بقت تحضرله الأكل بتاعه قبلي، أدي يا سي طارق روي بتاعك، شكله هيطردنا مالبيت قريب.

قالها بلهجةٍ مرحةٍ، لم يبادله فيها طارق الذي استمرّ في جدّيته واهتمامه وهو يلقي سؤاله التالي قائلاً:

- طب واللبن اللـ..


fb.com/groups/exchange.book

قاطعه عمران قبل أنْ تكتمل جملته:

- أيوه يا طارق، وفاء بتديله اللبن اللي أنتا جايبهولنا معاه، وبتسخنه كويس زي ما أنت فهّمتها، ومتقلقش، أنا فاكر، الموضوع دا سرّ بيننا أنا وأنت ووفاء، عشان الحاجّة وبابا مبيحبوش الكلاب، ولو عرفوا هيخلوك ترجعوا الشارع تاني، عارف.

حاول طارق التعليق على كلام الرجل بشيءٍ ما، ولكنه لم يجدْ، فخرجت مِن بين شفتيْه بعض الهمهمات بلا معنًى، ثم ابتعد مُتلفتًا حوله بحيْطةٍ صبيانيةٍ، تزامنت مع دخول والده إلى المكان وتحية العُمّال له، في نفس اللحظة التي كانت فيها وفاء تعدو إلى داخل المكان فارتطمتْ به وهو يعود بظهره إلى الخلف وسقط مِن يدها عامود الطعام الذي أحضرته لوالدها أرضًا مُطلِقةً شهقةَ فزعٍ مع الارتطام الذي أسقط طارق أيضًا بدوره قبل أنْ تقول:

- أيه دا؟ أنا آسفة، معلش يا طارق.

لم يَبْدُ على طارق أنه استاء مِن سقطته، وهو يتطلّع إليها مبتسمًا قائلاً بحدّةٍ مصطنعةٍ:

- أيه يا بنتي؟ هوا في حد يدخل بيجري كدا؟ أيه بتهربي من إبليس؟

مطّتْ شفتيْها بحرجٍ قائلةً:

- لا مش إبليس، بس أصل عم حمدين البقّال بيغلس عليّا كلّ ما أعدّي مِن هنا زي مانتا عارف.

همغم بحنقٍ مراهقٍ غيورٍ:

أنا مش فاهم الراجل دا، يعني هوا قاصد يضايقك وللا أيه؟

هزّتْ كتفيْها أنْ لا أدري، وهي تنحني لالتقاط الطعام الذي سقط منها على الأرض، فتابعها ببصره حتى انتهت، ثم مدّ لها يده وهو لايزال في موضعه على الأرض مغمغمًا:

- آه، الأكل مهم طبعًا، خليني أنا كده عالأرض بقى لحدّ ما يجي حدّ يحس إنّ ليا قيمة ويمدلي ايدو يقوّمني.

احمرّت وجنتاها خجلاً، وبدا عليها الارتباك وهي تبحث حولها عن رفٍّ تركتْ فوقه الطعام قبل أنْ تمدّ يدها نحوه قائلةً بخجلٍ رقيقٍ:

- آه، أنا آسفة بجد مقصدش.

تشابكتْ أصابعهما وهو يحتوي كفّها الرقيق بكفّه، معتمدًا على يده الأخرى وقدمه لينهض دون أنْ يُفْلِتها، مُعلّقًا عينيْه خلال ذلك بعينيْها الخضر في لحظةٍ زادت مِن حمرة الخجل على وجهها الصغير، قبل أنْ يقول ببطءٍ خرج مفعمًا بالمشاعر الصادقة على الرغم من صغر سنّيْهما:

- تصدّقي إنتي أمورة أوي يا وفاء.

انطلقتْ عيناها تحاول الهروب مِن النظر إليه، وهي تنتزع يدها مِن بين كفّه خجلاً مُتمتمةً:


fb.com/groups/exchange.book

- مش للدرجة دي.

تأجّج الشعور البريء بداخله، وشعر بنشوةٍ عجيبةٍ سَرَتْ في عروقه، اتسعت على إثرها ابتسامته حتى أوشكت أنْ تملأ وجهه كلّه، في حين عادت هي لتلتقط الطعام مرةً أخرى، والتفتت مُتّجِهةً نحو والدها قائلةً:

- هروح أنا بقى أدّي الأكل لبابا وأمشي، أنت مش عايز حاجة؟

أجاب:

- عايز أقع تاني.

ابتسمتْ بدورها قبل أنْ تقول وهي تهمُّ بالرحيل:

- على فكرة أنا واخدة بالي من روي أوي، عشان عارفة أنه يهمك.

ردَّ قائلاً:

- وعلى فكرة أنا مطمّن على روي أوي، عشان عارف انو معاكي.

نظرت إليه، ونظر لها، ثم تركها لترحل، وعيناه ترصدان كلّ خطواتها حتى اختفت عن مدى نظره تمامًا.

وآه على صباح أتاك محمّلاً بروح وفاء، هي لحظاتٌ، حَبَتْ فيها مشاعرهم نحو النضوج، لحظاتٌ لا تُنسَى، أبدًا.

*****


fb.com/groups/exchange.book

# القاهرة ١٩٩٩ م

افتح بقك شوية يا يوسف، المعلقة صغيرة وكدا هنقعد اليوم كله عشان الملبق يخلص.

ملفتْها وفاء بعصبيةٍ غيرِ مألوفةٍ، وهي تمدُّ يدها بملعقة الطعام نحو فم يوسف الممتلئ بكميةٍ مِن الأكل، أخذ يحاول على مضضٍ مضغها متأملاً وجهها الذي حمل كثيرًا مِن الحزن في هذا اليوم، وهو يجلس على طرف سريره كأنّما يسألها عمّا بها دون كلماتٍ.

سؤالٌ استشفَّته هي مِن نظراته الصامتة، فتنهَّدت تنهيدةً طويلةً وهي تُزيح الطعام جانبًا فوق المنضدة المجاورة للسرير، وتغمغم:

- أمك عايزاني أتجوزه.

عاجلتها نظرته بسؤالٍ آخر، فاستطردت مُوضِّحةً:

- بس طارق مبقاش هو طارق.

تبدَّلت ملامح يوسف وامتلأت نظرته بمشاعرَ هي مزيجٌ مِن الفضول والقلق وهي تكمل وكأنما تحتاج لإفراغ مشاعرها:

- بصراحة أنا مش عارفة، ومحتارة زيك كدا بالضبط، انتا عارف؟ مِن زمان، وإحنا صغيرين، وقبل ما أبويا وأمك يتجوزوا ونبقى عيلة واحدة، كنت أمّا


fb.com/groups/exchange.book

أروح أودّي لأبويا الغدا بتاعه في الورشة، أستهبل وأروح بدري أوي عن المعاد، وأقصد أطول هناك برضو متلككة بأي حجة عشان أفضل أطول وقت ممكن قاعدة، أبويا نفسه كان يستغرب من كدا، وكان يتفاخر وسط الكل، شايفين وفاء بنتي؟ شايفين عوض ربنا عن غياب مراتي؟ وفاء، البنت والأم والزوجة، وكل حاجة في دنيتي.

كانت الابتسامة ترتسم على وجهها وهي منطلقةً في روايتها، وعيناها كأنّما ترى الماضي الذي ارتسم أمامها في فراغِ الغرفة بكلّ ما اشتمل عليه مِن شذى البراءة قائلةً:

- أنا بس اللي كنت عارفه سبب دا، وكنت فاهمة أنا بعمل كدا ليه؟ كلام في سرك، كنت بروح عشان أشوف طارق، كنت بحب أراقبه من بعيد، أخوك كان جميل وهو صغير، أجمل وأنضف ولد في المنطقة، غير العيال المتربّة الغامقة اللي كانوا ماليين الشارع، أو جايز عيني أنا بس اللي كت شايفاه كده، شاب صغير، ابن ناس، وصراحة كنت بحس ساعات منه إنه برضو عينه عليا، طبعًا مكانش ينفع أصارحه بكدا أو أروح أتكلم معاه، أو يبان عليا أي حاجة، كوني بنت أولاً، وتاني حاجة مكانتش الظروف تسمح بكده، لا الظروف ولا المستوى الاجتماعي صراحة، هو أبويا آه كان صاحب والدك الحاج عبدالحميد الوحيد ودراعه اليمين، بس أبويا كان عنده حساسية كبيرة في المواضيع اللي زي دي، أبويا بقى وأنا حافظاه. مش عارفة هتفهمني وللا لأ، بس الناس اللي زي أبويا دول عمرهم مايحبوا يكونوا في موضع شبهات

أو بخلّوا حدّ مهما كان قريب منهم يشك ولو للحظة إنهم ممكن يكونوا مامعانين فيه، عشان كدا مكانش ينفع أصلاً.

سمتتْ مرةً أخرى، التقطتْ خلالها أنفاسها المفعمة بالأفكار والذكريات، وتأمّلت وجه يوسف المُتلهِّف لسماع المزيد رغم ملامحه الباردة، ثم اكملت وقد تغيَّرت نبرة صوتها مع لمحة الأسى التي اقترنت بها:

الأيام فِضلِت تغيّر فينا، أشكالنا وأفكارنا الطفولية البريئة اتغيّرت، زي ما بكون الزمن مبيغيرش الوشوش بس، لأ والقلوب كمان، هما بيقولوها كده ساعات، حكم الزمن، الغبرة اللي بتغطي على لمعة أي حاجة حلوة فحياتنا لحد ما تطفيها، متهيألي دا تقريبًا اللي حصل بيني وبين طارق، ولمّا حصل وبقينا عيلة واحدة، حسيت ساعتها إنّ يمكن دي لعبة نصيب جت بإديها تبرْوز الحلم وتلمعهولنا من جديد، حسيت من جوايا إنّ الأمل رجع تاني، وإنّ الأيام جايالي بحلمي اللي اتأخر عليا كتير، مِالآخر ومش هكدب عليك، كنت بموت فيه، بس مع الأسف، الأيام برضو أثبتتلي إنّ الحلم مبقاش ينفع، ومش بسبب المستوى أو تخوّفات أبويا، مبقاش ينفع لأنه أصلاً كان مجرد حلم، واللي كنت فاكراه فرصة، كان بالعكس سبب لأني أشوف أكتر قد أيه حلمي دا مستحيل. بعد ما أبويا والحاجّة اتجوزوا، طارق اتغيّر أوي، وأبويا اللي كان بالنسباله صديق والده الوحيد والراجل الطيب اللي بيحبه وبيثق فيه، أصبح بين يوم وليلة جوز أمه الخاين الأناني اللي طمعان فيه.

ذرفتْ دمعةً ساخنةً مِن عينها التقطتها عينا يوسف، فمال نحوها مادًا يده


fb.com/groups/exchange.book

إلى وجنتها ليمسحها بأصابعه، وهي تقول مُحاوِلةً السيطرة على مشاعرها الجامحة التي تغلَّبت عليها في تلك اللحظة:

- مبقاش ينفع، مبقتش نفسيتي متقبلة من جوايا إني أشيل مشاعر حب ناحية بني آدم بيكره أبويا بالشكل دا، أو على أقل تقدير شايفُه بشكل مش صح، كانو اتنين جوايا فضلوا بيتخانقوا مع بعض، محتارة ما بين مشاعري اللي عايزاه، و عقلي اللي رافض حتى التفكير في الموضوع.

طارق أخوك إنسان أكتر من رائع، ساعات ببقى نفسي أطبطب عليه وأقوله متخافش، كل اللي هنا بيحبك ومحتاجلك، وساعات تانية بكره حتى وجوده في المكان، وببقى عايزة أضربه وأقوله إنّ أبويا ميستاهلش منك نظرة زي دي، لأنّ أنت اللي متستاهلش إنسان محترم زيه بيحاول يعوضك عن كلّ حاجة خسرتها.

صمتتْ عند هذا الحدّ مِن الحديث وقد يئست عيناها مِن محاولات حبس الدموع المتجمِّعة على مقلتيْها، فأطلقت لها العنان مُجهِشةً في بكاءٍ حارٍّ، حاولت كفكفة ما تستطيع منه بيديها مُلقيةً رأسها فوق صدر يوسف الذي طوّقها بذراعه بهدوءٍ، وعلى وجهه نفس الملامح الباردة بينما عقله المرتبك يحاول فكّ طلاسم ورموز تلك المشاعر والتعريفات التي لم يألفها يومًا ما.

عن حبٍّ يتحدثون، عن ألمٍ، وعن رغبةٍ بلا أمل، حفنةٍ مِن المشاعر المتناقضة بالنسبة إليه ارتبطت بعالمهم الذي فشل تمامًا في التفاعل معه، فقد كان له

عالمٌ آخر يدركه ويبدو كلّ ما فيه منطقيًا، عالمٌ خاصٌ، ومختلفٌ.

*****



fb.com/ groups/ exchange.book

fb.com/groups/exchange.book

# الفصل الخامس

# القاعدة الرابعة: الأحمق فقط يمكنه تصديق أي شيء

fb.com/groups/exchange.book

ومتزعليش،

أنا لسه فاكر وقفتك وسط البنات

فاكر هدومك وابتسامتك والكلام

حتى السكات

لو كان فراقنا صحّى فيكي كام وجع

أنا كل ليلة بتدبح من الذكريات

fb.com/groups/exchange.book

- إنتي عملتي كده فعلاً؟ كتبتيلوا توكيل بكلّ حاجة؟

- أيوه عملت كده يا طارق، ومش فاهمة ولا قادرة أفهم أنت اعتراضك على أيه بالضبط؟

- وعمرك ما هتفهمي، عمرك ماهتفهمي.

*****

عزيزي حسين،

أكتب لك رسالتي الأخيرة، بقلبٍ ينفطر حزنًا وألمًا، وأنا في غاية الأسف، أعلم أنّك ربما لن تسامحني بعد قراءتها إلى الأبد، وأدّعي أنني أستطيع استشعار كمّ الألم المُعتمِل في نفسك لحظة قراءتها.

لقد حاولتُ .... استجمع كلّ قدرةٍ بداخلك لتصدّقني إنْ كان مازال بداخلك


fb.com/groups/exchange.book

تجاهي أيّ مساحةٍ

للتصديق، تذكّرْ كلّ اللحظات الرائعة التي قضيناها سويًا، كلّ ذكرياتنا على مدى الأعوام الجميلة الماضية، إنْ كان بإمكانك أنْ تفعل، فمبرّراتي وحدها قد لا تكفي، لقد حاولت بأقصى ما أمكنني أنْ أستمرّ، ولكنّ كلّ شيءٍ هنا مختلفٌ؛ الثقافة واللغة والعادات والتقاليد، كلها عكس ما اعتدتُ ونشأت عليه في موطني.

هنا مازلتم قابعين على أسسٍ تخطّيناها نحن منذ عقودٍ، الأمور كلّها تسير أبطأ ممّا اعتدتُ سيرها عليه هناك، الفرصة هنا لتبدُّدِ كلّ ما هو جميلٌ سانحةٌ ومتوفرةٌ بشكلٍ لا يمكن استيعابه، ومحاولة تحسين الوضع يكاد يجابه في الصعوبة حدّ المستحيل، لهذا، ولأسباب أخرى أتمنى أن يستدعيها الجزء المتسامح من عقلك قررت الرحيل.

لا، لم تكن الفكرة وليدة لحظةٍ عاندتُ فيها نفسي، لقد فكّرتُ مرارًا وتكرارًا على مدى شهورٍ مضت، تراجعت كثيرًا عن القرار، وعاودت التفكير فيه مِن مختلف الجوانب، لقد كان ارتباطنا منذ البداية هو أكبر الأخطاء، لن يمكننا الاستمرار مُتحدّيَيْن كلّ الاختلافات الواقعية بيننا، إنْ استمررنا في خداع أنفسنا اليوم أو غدٍ، سيأتي حتمًا ذلك اليوم الذي لن نستطيع فيه إلّا الاستفاقة على حقيقة الفشل المؤلم، إنّ ما بين يديك اليوم، هو الواقع الذي كنا نحاول إغفال قدومه في لحظةٍ ما، ثقافتكم هنا هي تغليب المشاعر بشكلٍ دائمٍ، وثقافتي أنْ أجابه الأمور بمنطقيةٍ وعقلٍ مُجنبة المشاعر

لمساحتها الأضيق.

لقد قررتُ الرحيل، وهو قرارٌ نهائيٌ لا رجعة فيه، وأرجو مِنك أنْ تشجّعني عليه بدلاً مِن تأنيبي، في تلك اللحظة التي تقرأ فيها كلماتي تلك، أكون أنا بصحبة ابنتنا سيلفيا، على متن الطائرة المتجّهة إلى النمسا، أرجوك، لا تحاول تتبعنا أو البحث عنا، ليس مِن منطلق الخوف، فأنت تدرك أكثر مني أنّ حقوق حضانتي لها في وطني مكفولةٌ، وهذا أيضًا ليس بمبدأ التهديد، أنا لم ولا ولن أطلب منك أيّ تحمُّلٍ ماديٍّ أو معنويٍّ لتكاليف تربيتها، ولا أرغب فيما تطلقون عليه تعويضًا أو ما شابه، أنا فقط أريدك أنْ تتفهم، وأنْ تمضي في حياتك متقدمًا إلى ما هو أفضل.

دعْ سيلفيا لي، إنها آخر ما تبقّى لي مِن ذكراك، وتأكّدْ أنني سأحافظ عليها كما لو كنتُ معي، إنها الجزء الأجمل مِن ذكرياتنا سويًا، دعها لي، وأنت لك المنزل بجدرانه وكلّ ركنٍ فيه شاهدٌ على ذكرى رائعةٍ بيننا.

لقد رحلتُ يا حسين، وأؤكد لك بكلّ صدقٍ، أنك الرجل الوحيد الذي أحببته، وأنك مِن أجمل الأشياء التي حدثت لي في حياتي كلها، انتبه لنفسك جيدًا، وتذكّرْني كلّما ضاق بك الحال، أو انْسَنِي للأبد، إنْ آلمتك الذكرى.

حبيبتك الوفيّة هيلين.

مع حبّي، وداعًا.

*****


fb.com/groups/exchange.book

بملامحَ مجهدةٍ، وعينٍ شديدة الاحمرار، جلستُ خلف مكتبي الذي تناثر فوقه ملفُ القضية المكتظ بعديدٍ مِن الأوراق والصور مع بعض روايات الشهود المختلفة، مستندًا بذقني على راحتي وأنا أطلق زفرةً حارةً طويلةً، كلّ شيءٍ أمامي يؤكّد الحقيقة الوحيدة الأكثر منطقيةً في منظوري؛ إنها جريمة قتلٍ، بدافع الانتقام، أطراف الخيوط كلّها تتشابك في حلقاتٍ مفرغةٍ تدور حول نفسها، تبدأ وتنتهي عند نفس النقطة والشخص.

طارق عبدالحميد زكريا، ذلك المضطَهد الذي لعب دور ضحيةٍ صنعتها الظروف المحيطة؛ رفْضَه لزواج أمه بعد رحيل والده جعله يَزِنُ كل الأمور بميزانٍ حاقدٍ أعمى زيّف له الحقائق، وجذبه وراءه في طريقٍ مِن الكراهية انطفأت فيه إنسانيته وتنامت في داخله خلاله الرغبة في تدمير كلّ مَن كانوا السبب في ذلك حتى وإنْ كانوا الأقرب إلى قلبه.

لقد اختفى بعد جريمته دون أنْ يترك خلفه أيّ دليلٍ أو ثغرةٍ قد أتوصّل مِن خلالها إلى معرفة مكانه، متى ينتهي هذا الأمر؟ متى؟

انتزعني مِن تفكيري صوت طرقاتٍ منتظمةٍ على باب المكتب، فُتِحَ عقبها الباب ودلف إلى المكان رجلٌ أصلعُ الرأس، حادُّ الملامح ذو شاربٍ نحيلٍ وذقنٍ ناميةٍ، يرتدي قميصًا أبى كرشه الضخم أسفله إلّا أنْ تبقى بعض أزراره مفتوحةً، وبنطالاً مِن نفس اللون فوق حذاءٍ بُنّيٍّ تآكلت مقدمته بشكلٍ حاول أنْ يخفيه بكميةٍ مِن طلاء التلميع، تقدّم بخطواتٍ ثابتةٍ نحوي مؤديًا

التحية بصوته الحادّ:

تمام يا فندم، حضرتك طلبتني.

نظرتُ إليه بشرودٍ للحظةٍ قبل أنْ أهزّ رأسي وأعتدل في مقعدي ماسحًا بيدي على شعري الذي تطفّلتْ بين خصلاته السوداء بعض شعيراتٍ بيضاءَ أضفت إليّْ وقارًا زائدًا قبل أنْ أقول:

- محمود، مش كدا؟

أومأ الرجل برأسه أنْ نعم، وهو يقول:

- تمام يا فندم، تحت أمرك.

تأملتُه للحظةٍ بصمتٍ قبل أنْ أقول مجاملاً:

- مبروك الأول لأختك، زمايلك قالولي إنّ فرحها قريب، متنساش تبقى تبعتلنا دعوة نيجي نعمل الواجب.

ابتسم الرجل وهو يقول:

- أكيد يا أيمن باشا، دا أنت تنورنا.

- أنت بقالك اد أيه شغال هنا؟

ألقيتُ السؤال بشكلٍ مباغتٍ، فعقد الرجل حاجبيْه مُحاوِلاً الوصول لسببه بينما يجيب:


fb.com/groups/exchange.book

- من ٩ سنين تقريبًا يا فندم.

تأمَّلتُ انعكاس صورتي فوق اللوح الزجاجي الموضوع فوق المكتب، عابثًا في أحد تلك الدمامل الكبيرة التي نَمَتْ مؤخرًا فوق وجنتي قائلاً:

- هايل.

ثم اعتدلتُ مرةً أخرى ونظرت نحوه وأنا أستطرد:

- يعني أكيد هتفيدنا بمعلوماتك، أنت عارف إني مكملتش في خدمتي هنا غير شهرين بس، وطبيعي هحتاج اعتمد على حدّ قديم في المكان، جايز تقدر تنقذني من الحيرة اللي أنا غرقان فيها دي بدل منا عمّال ألف حوالين نفسي كدا بقالي أيام.

بَدَتْ عينا الرجل وكأنّما تألّقتا بشيءٍ مِن حماسةٍ، وهو يجيب:

- تحت أمرك يا فندم.

أشرت له بالجلوس قائلاً:

- أنت واقف ليه طب؟ اقعد يا محمود.

اقترب وجلس فوق أحد المقاعد، بينما اخترتُ أنا مِن داخل الملفّ أمامي إحدى الصور أخرجتها ورفعتها نحوه متسائلاً:

- تعرف مين دي؟

رمق محمود الصورة بنظرةٍ سريعةٍ، ثم أجاب دون تفكيرٍ:

دي وفاء عمران، بنت الحاج عمران صاحب ورشة النجارة اللي في شارع الشيخ ريحان.

أشرتُ له بيدي أنْ استمر، فأكمل:

آنسة لحد دلوقتي، أو ده اللي أنا أعرفه، بيقولوا إنها اتجوزت واتطلقت من سنتين كدا أو أقل، بس مش معروف إذا كت دي اشاعة ولا لأ، عايشة مع أبوها في بيت مراته من وهيا عندها ١٥ سنة تقريبا، وأعتقد إنها معدية الـ ٣٧ دلوقتي. هادية وملهاش في المشاكل، بيتقال إنها أصلاً مش اجتماعية للدرجة اللي تخليها تكوّن علاقات بسهولة من برا نطاق عيليتها، فضلت لفترة كبيرة من حياتها مكتفية بدور الرعاية لأخ صغير مريض اسمه يوسف، يعتبر أخوها وهيا اللي مربياه، بس هوا في الحقيقة مش أخوها الشقيق.

صمتَ لحظةً التقط خلالها أنفاسه بعد أن انتهى مِن جملته الطويلة، قبل أنْ يستطرد متسائلاً:

- بس أنتا يا فندم بتسأل عنها ليه؟ هيا عملت حاجة؟

مططتُ شفتيّ بتعجُّب، وأنا أقول:

- معقولة عندك كل المعلومات دي ومتعرفش أنا بسأل عنها ليه؟

تطلَّع إليَّ بحيرةِ مَن لا يفهم، فاستطردتُ:

- لا معملتش حاجة يا محمود، لقيناها مقتولة في شقة بس.


fb.com/groups/exchange.book

انكمشتْ ملامح الرجل وتراجع في مقعده وهو يطلق تنهيدةً حارّةً، بَدَتْ لي مفتعلةً على نحوٍ ما، مغمغمًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

أوضحتُ تعجُّبي مرةً أخرى وأنا أكرر:

- بس برضو غريبة جدًا تبقى عندك كل المعلومات دي عن العيلة ومتبقاش عارف

معلومة زي دي.

تمتم موضّحًا:

- يا فندم بيت الحاج عمران دا من البيوت اللي متسمعلهاش صوت، بيت هادي ومقفول على اللي فيه، وبعدين أنا بقالي فترة كنت في أجازة من الشغل عشان بجهز لموضوع أختي ده، فجايز بُعدِي عن المنطقة فوّت عليا كتير، بس هوا الكلام دا حصل امتى وازاي؟ حادثة وللا سرقة وللا أيه بالضبط؟ دي كانت بصحتها وزي الفل.

تخطّيْتُ تعجُّبي بشيءٍ مِن اللامبالاة وأنا أجيبه:

- من أسبوع بالضبط، وميتهيألّيش إنها جريمة سرقة، الطريقة متدلش على كده.

بَدَتْ علامات التأثُّر على وجه الرجل مُكرِّرًا تلك التنهيدة الحارّة النابعة مِن أعماق صدره، وهو يحكُّ أرنبة أنفه بإصبع السبابة في لحظةِ صمتٍ استغلّها

افهم الموقف كلّه، قبل أنْ يلتفت إليَّ مُغمغِما:

بعني وفاء عمران اتقتلت، وحضرتك ماسك القضية دي؟

مال طرف شفتي بابتسامةٍ أهديتُها له تهنئةً على ذكائه وبديهيته المُستفزّة، وأنا أميل نحوه قائلاً بنفس الهدوء:

- بالضبط كده، ومش هخبي عليك، أنا واصل لمشتبه فيه واحد بس مش عارف أوصله، قلت جايز بخبرتك والسنين اللي قضيتها في المنطقة دي تقدر تساعدنا أو توصّلنا لأي حد قريب ممكن يدلنا على مكانه، هو أنت أكيد تعرفه مادام عارف أخوه، اسمه طارق عبد الحميد.

جفل محمود بعينه عند سماع الاسم بشكلٍ لم ألحظه جيدًا، قبل أنْ يهزّ رأسه وهو يبادلني نفس النظرة المبتسمة المرحِّبة بالأمر، في لحظةِ صمتٍ قطعها وهو يضرب سطح المكتب براحته معتدلاً في مجلسه ليكون مواجهًا لي، وهو يقول:

- تمام يا فندم، أنا هقولك كل اللي أعرفه عن طارق ده.

مِلْتُ نحوه أكثر وأنا أتمتم:

- وأنا معاك، كلّي آذان صاغية.

ثم بدأ يروي، كلّ شيءٍ، ومنذ البداية.

*****


fb.com/groups/exchange.book

## سبتمبر، ٢٠١٠ م

مِن أمام الورشة، وبيدٍ تقطر عرقًا، سحب كرسيّه المُفضّل في المكان وجلس يراقب الشارع أمامه

متابعًا الآتي والراحل بعينٍ خاويةٍ وقلبٍ لا يخلو مِن الأوجاع، يا له من بائسٍ! اتّفقت كلّ الظروف على قهره، منذ رحيل والده وكلُّ شيءٍ حوله ينحدر ويهوي إلى جُبٍّ سحيقٍ لا قرار له، وذلك الكهل الجالس على مكتب والده في الداخل، ذلك الذي فرض لنفسه عنوةً دور الأب، لازال لا يعترف به، ولن يعترف به، ولكنّه رغمًا عنه واقعٌ يعلمه الجميع وتؤكّده السنوات التي تمرُّ مُصِرّةً على إذلال إرادته وأمله في أنْ ينتهي كلّ هذا.

وفاء، الجانب الأجمل بين كلّ تلك الجوانب القبيحة، اللغز الممتع الذي لم يَسْعَ يومًا لإيجاد حلٍّ له، سؤالٌ أحبَّ أنْ يظلّ مُعلّقًا في رأسه كمسابقةٍ استمرارُها يعني تجدُّدَ الأمل في الفوز،هو أنت بتحبها يا طارق؟

سؤالٌ لا يعلم هو ذاته إجابته، هو حقًا لا يعلم، لماذا يسعى لإيقاف أيِّ مشروعٍ لها في الارتباط؟ حبٌّ؟ أم أنّه ذلك الجزء الأنانيّ في داخله الرافض لفرحةِ مَن سواه؟ لماذا يتسلّلُ الحنق داخله نحو أخوه الأصغر يوسف كلّما شهد اهتمامها به؟ أهي الغيرة؟ أم الخوف مِن أنْ ينجرف أخوه إلى تلك الأحضان المزيّفة، التي احتلّت وفرضت نفسها داخل ذلك الحيّز الأسريّ

الذي تركه والده فارغًا بعد رحيله؟

وكيف يهوى مَن كانت إحدى المعطيات لوضعٍ طالما كرهه؟ ربّما حاول إقناع نفسه بذلك، في أحيان كثيرة، كان يخامره الشعور بأنّ أحدًا منهم لم يخطئ، وأنّ الحاج عمران، هو بالفعل البديل الوحيد والمناسب بعد رحيل والده، ولكنّ طبيعته العنيدة الرافضة لكلّ مفروضٍ وأمرٍ واقعٍ، كانت تقطع جذور تلك الأفكار قبل أنْ تنمو.

مراتٌ عدةٌ، عبر سنواتٍ مَضَتْ، خامرته الرغبة في أنْ يستلقي بجسده باكيًا بين ذراعيْ الرجل وأنْ يناديه كأبٍ حُرِمَ مِن مناداته وهو لم يزل فتًى صغيرًا لم يتجاوز بعدُ العشرين من عمره، ولكنّه كان يقاوم تلك الرغبة، طالما وأد مشاعره تلك في مهدها حتى جفّ المنبع، وامتلأت أركانه بالصدأ، وماتت في أعماقه كلّ المشاعر الإيجابية، لقد نما على أنْ يكره هذا الرجل، يكرهه بصدقٍ ولا يكاد يطيق رؤيته، والسبب هو أيضًا لا يعلمه، هو لا يعلم سوى أنّ مشاعرَ دائمةً بالضيق والحنق واليأس والغضب صارت مُصاحِبةً له كالظلّ في كلّ مكانٍ يحاول الهروب إليه.

مشاعرُ لا ينهيها نومٌ، ولا يهدئها عقارٌ، ولا يبدّدُ سحابتها السوداء أدخنة سجائر الحشيش التي صارت مِن عاداته مؤخرًا، تلك التي حاول النبش خلالها عن أيّ خلاصٍ دون جدوى.

- طارق، يا طارق.


fb.com/groups/exchange.book

بصوته المُجهد، انتزعه الحاج عمران مِن خواطره بغتةً جعلته يلتفت إليه بنظرةٍ نارية، التقطتها عينا ذلك الكهل الذي شاب شعره بالكامل وغَزَتْ التجاعيد كلّ ركنٍ مِن أركان وجهه وهو يُكمِل ملؤُحًا بيدٍ رسمت العروقُ البارزةُ عليها خطوطَ الزمن، بينما اليد الأخرى مُمسكةٌ بعصاه التي صار لا يقوى على السير دونها.

- يابني، قوم اتحرك بدل منتا قاعد كده في وش الباب، العربية أهي قدامك منزله نقلة خشب والرجالة بسبب قعدتك دي مش عارفين يدخُلوها.

بنظرةٍ تحمل الكثير مِن الحنق وبعينٍ كاد يخفيها سواد الإرهاق المُحيط بها، تطلّع إليه طارق قبل أنْ يهزّ كتفيه بلامبالاةٍ قائلا:

- أيوه طب أنا أيه المطلوب مني؟

أجابه الحاج عمران بحنقٍ واضح:

- يعني هو المفروض تمد أيدك معهاهم وتساعدهم، ما دا كله مالك في الأول والآخر، بس يعني بما إنّ أنت عمرك ما هتعمل كدا وأنا عارفك، فكل أملنا بس إنك توسّع بالكرسي اللي أنتا قاعد علية دا من قدام الباب، عشان إحنا محتاجين مساحة وإحنا بندخُل الحاجَة، دا بعد إذن سيادتك.

قالها في صيغةٍ تهكُّم لم يُعِرْها طارق اهتمامًا، وهو ينهض متثاقلاً مِن مقعده متمتمًا بكلماتٍ غير مفهومة، رامقًا الحاج عمران بنظرةٍ جانبيةٍ استفزّت ذلك الأخير وجعلته يصرخ بغضبٍ:

أنت أيه؟ أيه البرود دا اللي أنت فيه؟ هو المال دا مش مالك؟ كل يوم لبجي تفضل قاعد كدا ومتعملش حاجة؟ دا إذا جيت. أهمّ حاجة عندك بس سهراتك مع ناس بايظة آخر كل يوم عالقهوة وسجايرك اللي عمال تحرق فيها ليل نهار ومخلية صحتك في النازل، بالضبط زي حال الورشة اللي نازل هوا كمان، ويا ريتك تفوق، الدنيا بتبوظ والورشة بتخسر، وأنا كبرت ومعدتش بقدر أتحرك وأقضي المصالح بنفسي زي زمان، وأنت ولا هنا، ولا على بالك، كأنك مفيش، سنين على كده ومفيش فايدة، أنت أيه؟

كان الرجل يُخرِج ما يجيش بداخله مِن حنقٍ وغضبٍ في وجه طارق، مِمّا جعل أنفاسه تتلاحق وصدره يتحرك هبوطًا وصعودًا مِن فرط الانفعال، الذي استقبله طارق ببرودٍ، وبمنتهى اللامبالاة وهو يزيح المقعد بعيدًا، ثم نظر إلى الحاج عمران قائلاً:

- الكرسي أهو اتشال، قصّر بقى في الكلام وروح شوف اللي وارك، عشان هيا مش طالباك النهارده.

فار الدم في عروق الرجل الكبير مِن الأسلوب المُهين الذي تحدّث به طارق أمام الجميع، وكَعَرَضٍ مِن أعراض الشيخوخة التي جعلته سريع الغضب، مدّ يده الخالية وجذب طارق مِن ياقة قميصه صائحًا:

- أنت ازاي تتكلم معايا بالطريقة دي؟ فين احترام الـ..

ولم يكمل عبارته، قطعتها شهقةٌ قصيرةٌ انطلقت مِن بين شفتيْه وهو يسقط


fb.com/groups/exchange.book

أرضًا إثر لطمةٍ عنيفةٍ بَدَتْ غير مقصودةٍ في صدره من ذراع طارق الذي اتّسعت عيناه ارتباكًا، وهو يقول في توتُّرٍ: - أنت السبب، قلتلك قصر في الكلام، قلتلك.

تدخّل الرجال في المكان للتهدئة، وبعضهم يساعد العجوز ذاهل العينيْن، على النهوض وبصره معلّقٌ في وجه ذلك الشاب الذي تراجع إلى الوراء مُفسِحًا لنفسه المجال وسط العيون المُستهجِنة، قبل أنْ ينطلق مبتعدًا عن المكان بكلّ ما فيه.

لا ينبغي أنْ يبقى الوضع على ما هو عليه، لابُدّ لشيءٍ ما أنْ يتغيّر، وإنْ أَبَت الظروف إلّا أنْ تأتي له بكلّ ما يقهر، فسيرحل هو، سيبتعد عنهم تمامًا، وسيختفي بعيدًا متواريًا بكلّ يأسه وهمومه عن الأنظار، ومهما كلف الأمر.

*****

في الحديقة الخاصّة بدار المسنين، جلس سلامة فوق ذلك الكرسي المصنوع مِن الخشب فاردًا ذراعيه على مَداهُما مُستنشقًا الهواء النديّ في ذلك الصباح الذي بدا أكثر إشراقًا مِن سابقيه، وهو يدندن بخفوتٍ لحنًا استهواه، مُتطلّعًا إلى أرقام الساعة الظاهرة أمامه على شاشة هاتفه المحمول مُحدّثًا نفسه: «لم يتبقّ سوى ساعةٍ بالتقريب، وينتهي الدكتور مِن جلسته مع يوسف الصبي المريض ذي الأعوام الأربعة»

رفع صوته مناديًا إحدى المُعالِجات المنتشرات في المكان مِن حوله، قائلاً بنفاد صبرٍ:

يا أستاذة، أنا قاعد مستني هنا الحاجة وديدة بقالي ربع ساعة، قالولي إنهم هينزلوهالي في الجنينة نفطر سوى.

هزّت المُعالِجة كتفيْها بحيرةٍ قائلةً، وهي تتابع الحالة المسئولة عنها في المكان:

- مش عارفة، بس طالما قالولك يبقى زمانها نازلة، معلش أنت عارف إنّ ماما وديدة بس حركتها صعبة شوية.

همّ بإلقاء عبارة لومٍ ما، ولكنه قطعها وهو ينظر إلى وديدة التي ظهرت على مدى بصره تهبطُ مِن سلّم المكان بعصاها الخشبية مستندةً إلى كتف إحدى الفتيات، التي أخذت تفسح لها مجال السير أمامها مُتّجهين نحوه، فنهض بدوره وعدّل لها مِن وضع المقعد الخاص بها لتجلس عليه بمساعدةٍ مِن كليهما قبل أن ينحني أمامها على الأرض بالقرب مِن قدميها قائلاً:

- ازيك يا أمي، عاملة أيه دلوقتي؟

شعر للحظةٍ أنّها تتطلع إليه عبر عينيْها العمياويْن من خلف نظارتها الشمسية الداكنة، وهي تمدُّ يدها نافرة العروق مِن أثر السِّنّ نحوه مربّتةً على رأسه قائلةً بصوتٍ واهنٍ:

- الحمد لله يا ابني، أنا بخير، أنت مين؟


fb.com/groups/exchange.book

أجابها سلامة بسرعةٍ:

- أنا سلامة يا أمي، سلامة ابنك.

تدخّلت المُعالِجة المُتابِعة لحالتها في تلك اللحظة قائلةً بلهجةٍ مرحةٍ:

- ياللا بقى يا ماما، متهيألي كده هتفطري بقى مع الأستاذ سلامة ومش هتتعبيه معاكي زي ما بتعملي فينا.

قالتها وهي تضع الطعام أمامهما، قبل أنْ تلتفت إلى سلامة مستطردةً:

- والنبي يا أستاذ سلامة تشوفلنا هيّا مالها، بقالها كام يوم كدا رافضة الأكل ومطلعة عنينا عشان تاكل أي حاجة، وياريت لو مجيتك بتفرحها كدا متتأخرش علينا كتير.

قالتها ثم انطلقت مبتعدةً عن المكان، فالتفت هو إلى المرأة العجوز الجالسة أمامه قائلاً برقةٍ متناهيةٍ:

- مالك يا أمي؟ ليه مبتاكليش، هوا في هنا أي حاجة مضايقاكي؟

أشاحت بوجهها دون أنْ تنبسَ ببنت شفةٍ، وإنْ بدا الحزن مرتسمًا بين تجاعيد وجهها الذابل، فربّتَ على يديْها مُكررًا بإصرارٍ:

- قوليلي مالك يا أمي؟ اتكلمي معايا، متخبيش حزن جواكي، أنا مش عايزك زعلانة أبدًا.

انسابت الدموع ببطءٍ مِن عيونٍ انطفأ نورها واهتزّ صوتها المرتعش بتأثيرٍ

من الحزن والأعوام، قائلةً بنبرةٍ حملت الكثير من الألم:

ولادي، ولادي يا ابني، مِن ساعة ما جابوني هنا وهما زي ما يكونوا ما صدقوا يرموني، محدش فيهم حتى فكر يسأل عليا.

انصرت جملتُها قلبه كقبضةٍ مِن ثلجٍ، مُتمتِمًا وهو يحاول مقاومة دموعه:

منا ابنك يا أمي، أنا بسأل عليكي، أنا مش هسيبك أبدًا.

تمتمت بضعفٍ دون أنْ تقصد إيذاء مشاعره:

- يابني مهما كان، دول من دمي.

كانت كلماتها كأنصالِ سكاكينَ حادّةٍ تخترق قلبه في ألفِ ألفِ وَضْعٍ، ألمه النابع مِن أعماقه منعه مِن أنْ يُجيب بكلمةٍ فَنَدَّتْ مِن بين شفتيه تنهيداتٌ مُنكسرةٌ التقطتها أذنها وأحسّت بها، فغمغمت وهي تحرّك يدها فوق رأسه بحنانٍ تشتاق إليه كلّ خلاياه:

- أنت اللي مالك يابني؟ وأيه حكايتك بالضبط؟ أنا عمري ما سألتك عن نفسك قبل كده، بس أنا برضو عايزة أفهم، أنت ظهرتلي منين؟ وعرفتني ازاي؟ وأيه السر اللي وراك؟

كان جسده يهتزّ تحت يديها من بكاءٍ لم يقوَ على السيطرة عليه، فصمتتْ وهلةً قبل أنْ تكمل:

- يابني، أنا ممكن أكون مبشوفش الوشوش، بس أنا بشوف المشاعر، واللي


fb.com/groups/exchange.book

شايفاه إنّ جواك سرّ مخبيه عن كل اللي حواليك، والسر دا صدقني لو مخرجتوش هيقتلك، انت بتحاول تثبت لنفسك أيه من معرفتي، وللا محتاج أيه بالضبط؟ أيه اللي ضايع منك وبتحاول تدور عليه في المكان هنا، أيه اللي خايف الناس تشوفوا؟ اتكلم، اتكلم و متكتمش جواك.

بصعوبةٍ، حاول وسط دموعه أنْ يُجيب فخرج صوته متقطعًا مع البكاء، وهو يقول:

- مفيش يا أمي، مفيش، أنا بس معرفش ليه مبحسش بالأمان غير وأنا هنا، أنا مبلاقيش البني آدم اللي فيا غير وأنا معاكي.

ثم صمت لحظةً، انحنى فيها برأسه فوق قدميْها ليقبّلها متشبثًا بها وهو يقول، وبكاؤه يعلو فوق صوت كلماته مستطردًا:

- متسيبينيش يا أمي، أرجوكي متسيبينيش.

قالها، تاركًا لدموعه العنان كسيلٍ يغسل به كلّ ما احتوته دواخله من الألم، والحزن.

*****

# يناير، ٢٠١١

امتلأت الميادين، واهتزّت الشوارع مِن وقع أقدام الحشود عليها، وأصواتهم

الهادرة تهتف عدلاً

وحريةً.

إنها الثورة كما لم تشهدها أو تتحدّث عنها كتب التاريخ من قبل، ثورةٌ بكْرٌ، انبثقت من فوهة بركان القهر الكامن في القلوب، ثورةٌ هدفها الحياة، ومصلحتُها الشخصية تتلخّص في العيش، والحرية، والعدالة الاجتماعية، الأوضاع تشتعل، والأرواح يتأجّج اشتياقها لأملٍ ظنّته اقترب، تلك الصخرة الثقيلة الراسخة فوق رؤوسهم تحجب عنهم شمسًا نسوا أمر وجودها آن لها أنْ تتنحّى بعيدًا تاركةً للضوء مجالاً للعبور، الأنفاس التي باتت مختنقةً بكمٍّ من الظلم والجهل والمرض احتوته و تكتّمت عليه على مدى أعوامٍ، انطلق زفيرها طويلاً قويًا صامدًا على الرغم من كلّ التضحيات.

كان الناس وكأنّهم يتكاثرون في الشوارع، من كلّ الأعمار، ومختلف الفئات، أحداثٌ جديدةٌ كلّ يومٍ، أبطالٌ جددٌ كلّ يومٍ، تضمّ صورهم إلى جانب صورِ مَن سبقوهم في أعلامٍ مرفوعةٍ على الأعناق، ومطبوعةٍ فوق جدرانٍ ساكنةٍ، بدا وكأنما نبضت بدورها مفصحةً عن حياةٍ جديدةٍ آن لها أنْ تبدأ.

نيرانٌ اشتعلت لم ينطفئ دخانها بعدُ تحت الرماد المُتراكِم، ولازالت رائحتها تزكم الأنوف، نيرانٌ أضرمت جذوتها أيضًا في أساريرِ وفاء، الفتاة التي تخطّتْ عقدها الثالث بأعوامٍ، ثمانية عشر عامًا مضتْ، وهي لازالت وحيدةً، دون شريكٍ، الكثير منهم جاءوا، تقدّموا، ثم رحلوا، وتحت اسم النصيب تعدّدت


fb.com/groups/exchange.book

الأسباب والعلل، يقولون إنّ طارق كان السبب في ذلك، ويعتقد آخرون أنّها السبب. وهي لا تهتمُّ برغم تلك التجاعيد التي بدأت على استحياءٍ في وضع رُتوشِها الطفيفة فوق تفاصيل وجهٍ كان بالأمس القريب يانعًا صبوحًا، وكفعل نيران الثائرين في شوارع المدينة في الخارج، هكذا فعلتْ، دون إرادةٍ منها، نيران الاحتياج بداخلها إلى كيانٍ داعمٍ يحتويها، إلى شريكٍ تُفضي له بكلّ الرغبات، إلى رجلٍ.

وذلك الشاب الذي يصغرها بأكثر مِن خمسة عشر عامًا، يوسف، هذا الذي طالما عاملته كطفلها الصغير، بشكلٍ ما يتغيّر، تمامًا ككلّ ما حولها، حتى طارق الذي أدركتْ بعد رحيله فقط إلى أيّ حدٍّ كان وجوده يمثّل أملاً قويًا مُعلّقًا في الركن الأعمق مِن عقلها الباطن، في داخلها رحلت الطفلة بلا رجعةٍ وإنْ أنكرت، واستيقظت الأنثى، بكلّ التفاصيل والرغبات، بكلّ الاحتياج لأذرعٍ تحتويها، تربُتُ عليها، تغمرها أمانًا، أصبحت في أشدّ الاحتياج إليه.

هي في الحقيقة أضعف بكثير مِمّا يظنّ الجميع، هي ليستْ بتلك الصلابة التي يظنونها، هي في النهاية، وإنْ حاولت التماسُك، مجرّد امرأةٍ على وشك الانهيار تمامًا، أمامها ذلك الفتى الصغير الذي لم يَعُدْ كذلك، مازال يرقد في حجرته المظلمة وحيدًا صامتًا هادئًا، مازال يستقبلها بابتسامته العذبة كلّ صباحٍ، مازال لا يشعر بالأمان كما اعتاد دومًا مع أحدٍ سواها، ومازالت تشاركه في كلّ شيءٍ؛ طعامه، شرابه، وحتى تبديل ملابسه.

تسلل ليلاً كعادتها كلّ مساءٍ، منذ الصّبا حين يغيب في نومه، لتطبع قبلتها الحانية فوق جبينه الندىّ قبل أنْ تسحب الغطاء فوق أجزاءِ جسده المكشوف، كلّ هذا مازال يحدث، بنفس الأسلوب، فقط اختلف الشعور بشكلٍ لم تلحظْه هي ولم تسعى بقصدٍ إليه؛ ابتسامته لم تَعُدْ بالبراءة التي اعتادتها فيه، وقُبْلَتها الحانية اختلطت برغبةٍ تحاشَت التفكير فيها مع تلك الارتعاشة الخفيفة التي سَرَتْ في جسدها عندما أمسك يدها السارحة فوق جبينه في ليلةٍ دلفت فيها إليه متسللةً كعادتها:

أنت لسه صاحي؟

قالتها بصوتٍ رقيقٍ، وهي تتأمّل ابتسامته التي بَدَتْ لها في تلك اللحظة وكأنّما ارتسم الشيطان بين تفاصيلها وهو يهزُّ رأسه أنْ نعم، وتوتّرت كلُّ خلجةٍ مِن خلجاتها مستشعرةً النيران في يدها التي احتواها بكفّه قبل أنْ تستطرد:

- طب مش هتنام؟ الوقت اتأخر وأنت كدا سهرت كتير.

بصوته الهادئ ولكنته المتقطّعة، أجاب:

- مـ شش جايـ لـ ي نـووووم، خـ للـ يكي جمـ بيييي.

خرجتْ حروفها مِن بين شفتيْها مرتبكةً، وهي تتمتم:

- أيوه بس، الوقت اتأخر، و...


fb.com/groups/exchange.book

لم تجدْ ما تكمل به جملتها، فصمتت، عيناها تراقب عينيْه التي بَدَتْ لها أكثر احتواءً وثقةً في تلك اللحظة، وكفُّها منحصرٌ كسجينٍ بين أصابعه المتشبِّثة بها، بمنتهى الإصرار.

*****

- بتحبّها؟ واضح إنك نسيت.

- منسيتش، ومعرفش، بس هو إحساس مش قادر أفسره.

*****

## القاهرة، يناير، ٢٠١٣ م

نُصِبَ الصوان، رحلتْ تلك التي لم يعرفوا عنها سوى أنّها أمُّ طارق، حتى اسمها الحقيقي كان أغلبهم يجهله، جاءت ورحلت بهدوءٍ، لم تشأ أنْ تُزعِج أحدًا في ليلتها تلك التي قضتها وحيدةً على فراش يوسف الخالي في غرفته تبكي بحرقةِ أمٍّ مكلومةٍ، كانت تحرقها تلك النظرة الساخطة التي رمقها بها طارق منذ ما يربو على الشهر وهو يجذب يوسف مِن يديْه راحلاً به.

- لا يا طارق، مش هتاخد أخوك كمان، مش هتسيبوني لوحدي انتوا الاتنين.

كانت تقولها بلهجةٍ باتت أقرب إلى التوسُّل مِن وسط دموعها، وهي تحاول

الفصل بينه و بين أخيه الأصغر بجسدها الثقيل بطيء الحركة، وعلى الرغم من ذلك، أكمل هو طريقه بعينٍ مغرورقةٍ، ولسان حاله يجيب دون صوت:

منا مش سايبك لوحدك، عندك جوزك اللي اخترتيه، كفاية عليكي.

كانت تفهم كيف يفكّر طارق، لقد كان عنيدًا، أعْمَتْهُ الكراهية، وغطّى الغضب جزءًا كبيرًا مِن مساحة الطيبة المتأصّلة فيه، يريدهم أنْ يشعروا بالفرق، يعلن اعتراضه بشكلٍ ظنّ أنّه الأصح، والأقوى، والوحيد، سيحرمهم من يوسف، سيأخذه ليحيا معه بعيدًا عنهم، كعقابٍ ارتآه مناسبًا للجميع، من بين شفتيْ وفاء المرتعشة حزنًا وعيناها غير المصدقتيْن مع يدٍ تشبثّت بذراع طارق قبل أنْ يعبُر الباب راحلاً:

- سيب يوسف يا طارق، متاخدوش معاك.

التفتَ إليها متأمّلاً وجهها للحظاتٍ قصيرةٍ، قبل أنْ يُفلِت يدها وهو يقول بصوتٍ بدا وكأنّما يأتي من جُبٍّ سحيقٍ:

- يوسف أخويا يا وفاء، قلتهالك قبل كده.

ثم دار على عقبيه خارجًا ومعه يوسف، يتكرّر المشهد كلّه في خيالها كفيلمٍ معروضٍ، وهي تجهش ببكائها الحارّ فوق سرير ابنها المريض الغائب، كلّ ليلةٍ، حزنًا مريرًا مكتومًا تألّم له القلب حتى هدأ، ودموعٌ جفّت مع انطفاء بريق منبعها، ماتت أمّ طارق، أقيم العزاء، وانتهى الأمر.


fb.com/groups/exchange.book

ومِن بين الزحام المعتاد في تلك المنطقة، بخطواتٍ مِن قَدَمٍ تعرف طريقها جيدًا، اتّجه سلامة نحو طارق، الجالس وحيدًا على مقعدٍ في ركنٍ مِن أركان القهوة قبل أنْ يمدّ يده فوق كتفه مُربّتًا، التفت إليه هذا الأخير وتطلّع له بنظرةٍ خاويةٍ حملت الكثير مِن اليأس قبل أنْ يعود إلى وضعه متمتمًا:

- هاتلك كرسي وشوف تشرب أيه.

لم يكنْ سلامة ينتظر مثل ذلك الإذْن، وهو يسحب بالفعل كرسيًا وضعه في مواجهته وجلس عليه قائلاً:

- دا لو ميعطلكش، بس عمومًا أنا مش جاي أشرب حاجة ولا أتضايف.

مطّ طارق شفتيْه دون أنْ يجيب وهو يتحاشى النظر إليه، وسلامة يكمل بنبرة عتابٍ:

- البقية في حياتك، ملاقيتكش بتستقبل العزا في الصوان قلت أجيلك أعزيك هنا.

أجابه طارق وهو يغمض عينيه أسًى:

- عايز أيه يا سلامة؟

أجاب سلامة مُلوّحًا بيده:

- هعوز أيه يعني؟ أنا جي أقولك البقية في حياتك.

غمغم طارق:

سعيكم مشكور.

تنهد سلامة تنهيدةً عميقةً، قبل أنْ يستطرد:

كانت طيبة أوي، الله يرحمها.

ردّ طارق بنبرةٍ حاول أنْ يجعلها ثابتةً ومقتضبةً:

الله يرحمها ويرحم الجميع.

مجيتش عزاها ليه؟

باغته السؤال المباشر الذي ألقاه سلامة على مسمعه، على الرغم مِن توقُّعه، ولم يُحِزْ له إجابةً واضحةً، فخرجت مِن فمه الهمهمات المُشتَّتة المُمتزجة بقوله:

- معلش، مشاغل.

رفع سلامة أحد حاجبيه باستنكارٍ غاضبٍ وهو يكرِّر:

- مشاغل؟ محضرتش عزا أمك عشان مشاغل؟!

برق التأفُّف متسللاً إلى نفس طارق، فزفر بضيقٍ وهو يجيب:

- منا قلتلك من الأول عايز أيه يا سلامة؟ جي تقطمني وتقلب عليا المواجع ليه؟

ضرب سلامة سطح الطاولة الخشبية الموضوعة أمامهما بكفّ يده بقوةٍ،


fb.com/groups/exchange.book

وهو يقول

غاضبًا:

- لأ، أنا جي أفوقك يا طارق، عايزك تفوق، أنتا مش شايف نفسك ولا شايف السكة اللي أنت فيها دي واخداك على فين؟

التقطت عيناه الغضب النابع مِن ملامح هذا الأخير، فبادر مستطردًا:

- زعلان أوي أنت من كلمة الحق؟ عايز اللي يطبطب عليك، يقول لك برافو يا طارق باشا! أنت كدا زي الفل، لكن اللي جي يفوقك دا يبقى ابن كلب وملوش لازمة عندك.

أطرق طارق رأسه دون أنْ يتكلم مقدمًا الفرصة للحظة صمتٍ أنْ تحتل المشهد بينهما، قبل أنْ يقطعها سلامة مرةً أخرى مشيرًا إليه وهو يقول:

- اسمع يا طارق، احنا الاتنين قد بعض آه، وأنا عارف إنك من جواك شايفني أقل منك، ومش مكاني لا هنا ولا في أي وقت إني أنصحك أو أقولك الغلط فين والصح فين، أنا بالنسبالك وفنظرك مجرد صبي شغال في الورشة اللي أنت صاحبها، بس اللي متعرفوش، إنّ اللي قدامك ده، شاف من الدنيا أكتر ما أنت شفت بكتير، واتـ..

قاطعه طارق عند هذه النقطة بضحكةٍ ساخرةٍ قصيرةٍ مُتهكّمةٍ، وهو يقول:

- الورشة اللي أنا صاحبها؟

أشار سلامة لطارق، وهو يقول:

اه يا عم، الورشة أنت صاحبها، و كلها ليك في الآخر مش لحد تاني.

التقط طارق سيجارةً من العُلبة الخاصّة الملقاة أمامه، ودسّها بين شفتيْه قبل أنْ يشعلها نافثًا دخانها في الهواء بشكلٍ عصبيٍّ قائلاً:

اه صح، بأمارة توكيل شامل عاملاه واحده ماتت لواحد بيكرهني، الوريثة الوحيدة الشرعية ليه هيا بنته، وبعدين أنـ..

لم ينتظره سلامة ليكمل عبارته، وهو يهتف بغضبٍ:

يا عم ومين اللي قال أصلاً إنّ الراجل بيكرهك؟ وبعدين حتى ولو، دا برضو اللي يخليك متروحش تاخد العزا في أمك؟ دا يخليك تاخد أخوك المريض من وسطهم بالعافية وتروح مع نفسك تأجر شقة بعيد عنهم؟ دا يخليك تـ..

لم يكن قد انتهى بعدُ من عبارته، عندما نهض طارق من مقعده بحركةٍ فجائيةٍ صارخًا وهو يلقي السيجارة من فمه بعيدًا:

- لأ، دا يخليك أنت تيجي دلوقتي و تكلمني في اللي ملكش فيه.

تعلّقت عينا سلامة به واختنقت الكلمات في حلقه، وطارق يكمل:

- اسمع ياد أنت! كويس، إذا كنت نسيت نفسك ونسيت الفرق اللي بيننا، خد بالك أوي إني منسيتش، وبعد إذنك بقى عشان أنا مش فاضي للهري بتاعك دا، هتمشي وللا أمشي أنا؟


fb.com/groups/exchange.book

بذهولٍ مكتومٍ، وعينٍ مُتّسعةٍ، تطلّع سلامة إلى ملامح طارق الثائرة للحظةٍ قبل أنْ يُتمتِم:

- لا متمشيش أنت، أنا اللي همشي، دا أنت حتى أنتيمك الجديد اللي أنا للأسف عرّفتك عليه متعود يقابلك هنا.

قالها وهو ينهض راحلاً في خطواتٍ ثقيلةٍ، قبل أنْ يلتفت إليه مرةً أخرى قائلاً، وهو يشير بيده:

- بس أوعى تنسى يا طارق، إنّ حتى ده أنا حذرتك منه. سلام!

ثم دار على عقبيْه مبتعدًا عن المكان، حاملاً بين طيّات خطواته المتثاقلة كلّ الألم، وكلّ الحزن.

*****

بعينٍ أظلم أمامها كلُّ شيءٍ، عاش حسين.

مرّتْ عليه الأيام و الشهور والأعوام غير قادرٍ على النسيان، في كلّ ليلةٍ كان يقضيها وحيدًا بين جدران المنزل الخالي حوله، دمعت عيناه.

الحزن يعتصر قلبه اعتصارًا، والأشجان تحاصره في كلّ مكانٍ يهرب إليه، يفتقدهما بشدةٍ، يفتقد هيلين، حبّه الأول والأوحد، ويفتقد سيلفيا، ابنته الوحيدة التي لم يُحالفه الحظ في الاحتفاظ بها إلى جواره وبين أحضانه

المتلهّفة لها، وأمام عينيْه الظمآنة لابتسامةٍ مِن بين شفتيها، وأُذُنِه المتشوّقة لصوتها وهي تنطق باسمه، حاول مرارًا و تكرارًا الاتصال بهما والوصول إليهما دون جدوى، ودون كللٍ أو ملل.

كانت هيلين هناك تغيّر مكانها باستمرارٍ، هربًا مِن بحثه المضني المستمرّ عنهما، كان المجال الوحيد المتاح له للحصول على معلوماتٍ عنهما، هو بعض الخطابات والصور التي كانت ترسلُها له بين الفترة والأخرى، كبرت ابنته أمامه في خياله فقط وعبر الصور، انحفر الحزن بين تجاعيد وجهٍ دفنَه بين الكتب والمراجع العلميّة في ساعات عملٍ أطول، مُعتقِدًا أنّه خلالها سيتمكّن مِن الهروب أو النسيان، دون جدوى.

حتى ساعات العمل الطويلة، والنجاح المستمرّ المتطوّر، لم يكن قادرًا على تغطية الفجوة العميقة التي احتلّت جزءًا كبيرًا مِن مشاعره بفقْدِهم، سيظلُّ دومًا على حاله، يسعى لسعادةٍ مكتملةٍ لن يصل لها أبدًا دونهما.

هيلين، تلك المرأة التي سرقت حلمًا لم يكنْ ليتخيّله دونها، هو حتى لا يقوى على لومها، فهي خلقت الحلم، وهي رحلت به، وكأنما أدانته بالحبّ، ليقضي هو العمر الباقي سدادًا لدَيْنِه، استسلامٌ كسيرٌ دون رضًا غلبه الواقع، فصار ينتظر بين الوقت والآخر تلك الرسالة القادمة بلا موعدٍ مسبقٍ تحمل بين طيّاتها صورًا جديدةً لابنته التي تكبر دون أنْ تعلم أنّ هناك، بعيدًا عنها في قارةٍ أخرى، أبٌ يحيا كمدًا بفقدانها.


fb.com/groups/exchange.book

هيلين أخبرتها أنّ والدها توفي، فرصتها في الصغر على تخطّي الأمر أكبر وأسهل بكثيرٍ مِن أنْ تحتلّ مشاعر فقدانه بسبب المسافات وهو حيٌّ، الجرح الدفين المؤلم في مشاعرها وهي كبيرةٌ،

بالنسبة لها هو ميتٌ، وبالنسبة له هي الحياة.

الأيام تمضي، الأمور تختلف، كلّ الأشياء تتطوّر وتتبدّل وتختلف، إلا المشاعر الكامنة في داخله نحوهما، على المستوى العملي كان اسمه يزداد تألقًا يومًا بعد يومٍ، مدى نجاحه يتّسع مع اتساع مساحة الحنين بداخله: انتقل إلى سكنٍ جديدٍ في القاهرة هروبًا مِن ذكرياته كأرنبٍ أبيضَ فوق الإسفلت يحاول تضليل نسرٍ محلّقٍ. كانت ذكرياته تحتويه، هي في عقله، في ملابسه، تحت مسامه، لن يتخلّص منها أبدًا، أبدًا.

وسائل التواصل بينه وبين زوجته صارت أسهل مع مرور الوقت؛ الإنترنت استهان ببُعد المسافات، و لم يَعُدْ يأبه باختلاف الأماكن، يمكنه الآن العودة ليلاً كلّ يوم للتحدُّث معها عبر صفحات المحادثة، يستقبل الرسائل الإلكترونية منها كلّ صباحٍ، كطيرٍ في قفصه لا يملك سوى انتظار ما يجلبه له الآخرون، قَبِلَ هو الوضع الذي لا يملك سواه، ومع مرور الوقت، وبصورةٍ استساغوها وإنْ لم تقنعهم، تحولا إلى ما يشبه صديقيْ مراسلةٍ، كان يخبرها بأدقّ تفاصيل حياته و كلّ ما هو جديدٌ، تطوُّره في عمله، عيادته الجديدة، سكنه الجديد الأكبر، محاولات أهله المستمرّة لإقناعه بالزواج، حتى اللحظات التي أتته محملةً بحنينٍ لأحضانها كان يخبرها بها.

وكذلك هي، كانت تُطلِعه على كلّ الأمور، عملها، ابنتهما، أصدقائها، خلافاتها والمشاكل التي تتعرّض لها ومشاعرها نحو كلّ ما يحيط بها، حتى عن مايك، ذلك الصديق الذي ظهر وسط الأحداث متسلّلاً بين أروقة مشاعرها كحزامٍ معدنيٍّ مِن نارٍ أحاط بقلب حسين يعتصره بقبضةٍ تزداد يومًا عن يومٍ مع اقترابه أكثر وأكثر، هو لا يملك الحقّ في إبعاده عنها، أو القدرة، يقفُ مِن خلف رسائله الإلكترونية الباردة مُراقِبًا مكتوف الأيدي أمام يدٍ تعقد الحبل حول عنقه استعدادًا لجذبه.

ليس أمامه أيُّ خيارٍ للنجاة، إمّا أنْ يخبرها بأوجاعه، وحينها هو لا يضمن ردّة فعلها، فربما قطعت وسيلته الوحيدة للتواصل احترامًا لمشاعره، وبالتالي يكون قد فقد وسيلته الوحيدة لمتابعة أخبار ابنته، وإمّا أنْ يراقب كاتمًا ألمه بداخله. في كلّ الحالات هو الخاسر الوحيد، وليس عليه سوى أنْ ينتظر، لِيَموت ببطءٍ.

*****


fb.com/groups/exchange.book

fb.com/groups/exchange.book

# الفصل السادي

# القاعدة الخامسة: الحبُّ خطيئةٌ لن يغفرها قلبك

fb.com/groups/exchange.book

أنا عندي ركن بحُط فيه كل الحاجات
كل القصايد والألم كل البنات
جيت أركنك جواه، رفض ومكفَّاكيش
فمتزعليش.

fb.com/groups/exchange.book

قطعتُ الطريق متردِّدًا أقدِّم الخطوة تلو الأخرى في تلك المنطقة الشعبية مِن مناطق وسط القاهرة. كانت المجاري المنتشرة على الأرض تحتي لا تُفسِح مجالاً لموطئ قدمٍ، والرائحة النفّاذة تزكم أنفي لدرجةٍ كاد معها وعيي يغيب وأنا أستند في سيري على كتف حسام الذي بدا عليه الإجهاد على الرغم من محاولته إخفائه، وهو يسألني مُتلفِّتًا في المكان حوله:

- حضرتك متأكد يا فندم إنّ الراجل اللي عايزينه ساكن هنا؟

أومأت برأسي أنْ نعم، هذا هو العنوان كما وصفه لي محمود، أخرجتُ مِن جيبي تلك الورقة الصغيرة التي دوّنتُ عليها العنوان لمراجعتها، قبل أنْ أشير مناديًا إلى ذلك الفتى الصغير مُتّسخ الملابس الذي جلس على أعتاب أحد المداخل ممسكًا بيده عصًا صغيرةً أخذ يضرب بها جَرْوًا أجربَ ربطه بسلسلةٍ معدنيةٍ إلى عامودٍ حديديٍّ قصيرٍ قائلاً بصوتٍ مرتفعٍ نسبيًا:

- بقولك يابني، مش دي عطفة الحكيمة؟


fb.com/groups/exchange.book

نظر الفتى نحونا شزرًا وكأننا غرباءُ احتلّوا أرضه، وقال وهو يجذب السلسلة المعدنية بالجَرْوِ نحوه كنوعٍ مِن أنواع عرض السطوة، وهو يقول:

- آه هيا، عايزين مين هنا؟

سأل حسام على الفور:

- عايزين حدّ هنا، اسمه أشرف.

بَدَتْ على الصبي معالم التفكير العميق وهو يبحث في رأسه عن هذا الاسم فتدخّلتُ أنا قائلاً:

- شبارة يابني، عايزين نعرف بيت شبارة فين؟

برقتْ عينا الفتى وارتفع حاجباه مع ذكر الاسم متذكّرًا، وهو يجيب:

- آاه، ماتقولوا كدا، عمّ شبارة، مش الناصية اللي جاية اللي بعدها، البيت الأصفر اللي فيه التنده الخضرا، هوا الشقة اللي في المدخل، تعالوا هوصلكوا.

أشرتُ له أنْ شكرًا، وأكملنا طريقنا أنا وحسام نحو وُجهتِنا يتقدّمنا الصبي بخطًى واسعةٍ حتى وصلنا إلى المكان، مُتوقّفين أمام الباب الذي طرقه الصبي طرقتيْن متتاليتيْن وهو يقول مناديًا مَن في الداخل:

- عمّ شبارة، في ناس عايزة تقابلك.

قالها ثم دفع الباب بيده، فانفتح مُصدِرًا صريرًا مزعجًا جعل حسام يستوقفه وهو يقول:

يابني، اصبر لمّا الراجل يجي يفتح ما يمكن محدش جوه.

لم يُعِرْه الفتي اهتمامًا وهو يفتح الباب قائلاً بلامبالاة:

- يفتحلك أيه بس؟ عمّ شبارة من بعد الحادثة مبقاش بيتحرك، وبعدين هوا مبيخرجش من البيت أصلاً.

انعقد حاجباي بفضولٍ مع ذكر كلمة الحادثة، وأنا أتبع كليهما نحو الداخل قبل أنْ يزداد انعقاد حاجبيْ أكثر وأنا أدُور بنظري في المكان الضيّق عَطِن الرائحة بحوائطه المُتّسخة التي باتت أشبه بجحور الفئران مع أعقاب السجائر المنتشرة على أرضية المكان.

اتّجهنا نحو الحجرة الوحيدة في المكان بجوار ذلك الحمّام البلدي الذي تصاعدت منه رائحةٌ أشبه برائحة القبور، وبدفعةٍ واحدةٍ مِن ذراع الصبي انفتحت بدورها ليبدو بداخلها ذلك الرجل شديدُ النحول بوجهٍ ذابلٍ وشاربٍ كثيفٍ مال مِن أسفله طرف شفتيه بزاويةٍ عجيبةٍ اتّسقت مع التواء رقبته وتصلّب الجزء الأيسر بالكامل مِن جسده على نحوٍ بَدَتْ معه معاناته مِن شللٍ نصفيٍّ كاملٍ.

بدهشةٍ مقترنةٍ بالشفقة، اقتربتُ مِن ذلك الجالس مُتمتِمًا في أُذُن الصبيّ الصغير:

- دا شبارة؟

أومأ الفتى برأسه أنْ نعم، وهو يقول مُوجّهًا حديثه إلى الرجل:


fb.com/groups/exchange.book

- الاتنين دول سألوا عنك يا عمّ شبارة، هطير أنا بقى، سلام.

قالها ثم انطلق مُغادرًا من وسطنا، لم يكنْ هذا أبدًا هو شبارة كما تخيّلته. يا للقدر! التفتُّ نحو حسام الذي ارتسمت على عينيْه بدوره نظرةُ تعجُّبٍ كبيرةٍ قبل أنْ ألتفت إلى الرجل الجالس متصلّبًا أمامنا، وأنا أقول:

- أهلاً يا شبارة، أنا الرائد أيمن، ودا الملازم أول حسام، كنا جايين عايزين نعرف منك كام حاجة كدا، بس يظهر إنّ الوقت مش مناسب.

أشار شبارة بذراعه الأيمن الذي تمكّن من تحريكه إشارةً واهنةً، وهو يقول بصعوبةٍ بصوتٍ بالكاد تستطيع تمييز حروفه من خلف الشفتيْن المائلتيْن:

- اتفضل يا باشا هات اللي عندك، يظهر إنّ زيارات الحكومة دي قدري حتى وأنا عاجز كده.

تبادلنا النظرات مرةً أخرى أنا وحسام، قبل أنْ يتّخذ كلٌّ منّا مقعده بالقرب من الرجل، الذي أطرق بعينيه لحظاتٍ دون أنْ يمتلك القدرة على تحريك رأسه المائل فوق رقبةٍ ملتويةٍ متصلّبةٍ لبرهةٍ، رفعها بعدها مُتطلّعًا نحونا وهو يقول بالصوت الخفيض صعب التمييز نفسه:

- بس قبل أيّ كلام، أنا ليا عندكوا حاجة دفعت تمنها زي مانتوا شايفين ولسه مخدتهاش.

تطلّع إليه حسام بحذرٍ متسائلاً:

- حقّ؟ حقّ أيه بالضبط؟

تمتم شبارة ببطء:

- حقّي مش معاكوا انتوا، بس مع واحد عارفينه أكيد كويس أوي.

زادت عبارته مِن حيرتنا وتساؤلاتنا على نحوٍ حثّنا على الاستفهام أكثر، لولا أنْ أكمل:

- الرائد شريف منتصر.

لم يَبْدُ الاسم غريبا بالنسبة لي، لقد كان ضابطًا مسئولاً في القسم قبل فترةِ استلامي، لم أقابله بشكلٍ شخصيٍّ مِن قبل، ولكنْ كلّ ما أعرفه أنّه تمّ ايقافه عن العمل بعد التنحّي خلال الشهور الأولى مِن الثورة لأسبابٍ لم أهتمّ بالسؤال عنها، ما يقال إنّ ملفه لم يكنْ بالنصوع الكافي للإبقاء عليه، ترجمتُ كلّ تساؤلاتي الداخلية إلى عبارةٍ انطلقتْ مِن بين شفتيّ تحمل صيغة الاستفهام، خرجتْ مُوجّهةً للرجل:

- أنا حقيقي مش فاهم أنت بتتكلم عن أيه؟ وبعدين الرائد شريف بره الخدمة بقاله زمن.

ارتسمتْ في عينيّ الرجل لمحةُ ذهولٍ بَدَتْ واضحةً على ملامحه، وهو يكرّر كالمصعوق:

- بره الخدمة؟ ازاي؟ ومن امتى؟


fb.com/groups/exchange.book

لم أُحرِ جوابًا محددًا لأجيب عليه به، فتَمتَمْتُ وأنا أشير بيدي على نحوٍ تقريبيٍّ:

- من سنة تقريبًا، حاجة في الحدود دي.

أغمض شبارة عينيْه بقوةٍ، لقد غُرِّر به تمامًا، هو الذي طالما استغلّ حماقة المحيطين، سقط ضحيةً في شَرَكٍ ساذجٍ جذبه إليه جشعه ليخسر وحده ودون مقابلٍ، الآن يبدو كلُّ شيءٍ واضحًا بالنسبة له، لقد استغلّ شريف طمعه وحماقته لتحقيق رغبةٍ شخصيةٍ في الانتقام مِمّن كانوا سببًا في فَقْدِ وظيفته، أقنعه بأنّ الثورة هي خطرٌ يهدِّد مصلحته، وحرّكه بلجامِ الخديعة دون إدراكٍ مِنه أو تفكيرٍ.

«الشغب يا شبارة، لازم يستمرّ، فلْتنسلّ بين المتظاهرين، ولْتَقُمْ بأعمال العنف وسطهم، ثم انسحِبْ عند اشتعال الموقف»

كان يزوِّده بكافّة المعلومات والخرائط الخاصّة بالمظاهرات المُحتملة، ويراقب من بعيدٍ تنفيذه لِمَا تمّ الاتفاق عليه مسبقًا، كيف لم ينتبه لكلّ هذا منذ البداية؟ كيف لم يتساءل في مرةٍ عن سرّ تلك الأرقام المختلفة التي كان يستخدمُها كلّ مرةٍ في الاتصال به؟ كيف لم يدرك أنّه يعمل لصالحِ خاصٍّ دون تغطيةٍ أو ضامنٍ لِمَا يحدث؟ إنّه الغرور الذي أعماه عن التفكير في كلّ هذا، أو هو القدر النافذ مِن أعلى لتصفية حساباتِ كلّ مَن ظلمهم دفعةً واحدةً.

انتقلت به ذكرياته إلى ذلك اليوم الكئيب، الوضع مشتعلٌ والصرخات تتعالى في ذلك الشارع الضيِّق مِن أمام وزارة الداخلية، لم ينقطع الاتصال بينه وبين هذا الأخير في ذلك اليوم، أخبره بأنّ كلّ شيءٍ على ما يرام، وأنّ الأمور تسير على نحوها المأمول في المكان، الأمور تتعقّد وينبغي عليه الرحيل، الأخير مِن الطرف الآخر للمكالمة كان مُصِرًّا بشكلٍ غيرِ مُبرّرٍ على أنّ الأوان لم يَحِنْ بعدُ لترحل، الأمور تزداد تعقيدًا، والمكان كلُّه يشتعل.

«متمشيش يا شبارة!»

الأمن يطوِّق المكان ويشتبك بعنفٍ وبمنتهى القوّة،

«متمشيش!»

الغاز يملأ المكان وأصوات الطلقات الناريّة تنهال على الجميع كالسيل ودون تفرقةٍ، الرجال مِن المرتزقة جميعُهم يفرُّون مُنسحبين بينما هو مُشتتٌ بين ما يجب فعله وما يُفترَض، ثمّ تلك الرصاصة التي اخترقت ظهره مُمزِّقةً نخاعه الشوكيّ، وتلك الصرخة المدوِّية التي أطلقها قبل أنْ يسقط أرضًا بلا حراكٍ، إلى جوار هاتفه المُهشَّم الذي أغلق مُحدِّثه على الطرف الآخر حينها خطَّ الاتصال المفتوح بينهم، والى الأبد.

انتزعه حسام مِن أفكاره وخواطره وهو يستطرد قائلاً في شيءٍ من نفاد صبرٍ، مُزيحًا بيديه تلك الذبابة التي استقرّت للحظةٍ فوق جبينه:

- المهم بس يا أستاذ أشرف، عشان منضيعش وقت، خلّينا ندخل في


fb.com/groups/exchange.book

الموضوع اللي جينالك عشانه.

قالها ثم صمت مُلتفِتًا نحوي، فانتزعني مِن صمتي المُتأمِّل في ملامح الرجل، لأتراجع في مقعدي وأنا أقول مُوجِّهًا حديثي إلى الرجل بصيغة الاستفهام:

- شبارة، إحنا جايينلك النهاردة عايزين نعرف منك كلّ حاجة تعرفها عن واحد اسمه طارق عبد الحميد، كل التفاصيل، وكل المعلومات. اللي وصلنا إنك كنت أقرب حدّ منه في الفترة الأخيرة دي، وعندنا أمل إنك ممكن تساعدنا نعرف عنه أكتر، أو توصّلنا للمكان اللي ممكن يكون مستخبي فيه.

طال صمت الرجل هذه المرة بشكلٍ أكبرَ مِن السابق، وهو يرمق كلاً مِنهُما بنظرةٍ مُتفحِّصةٍ طويلةٍ لم يُخْفِها عجزه، قبل أنْ يقطع بنفسه حبل صمته الطويل مغمغمًا:

-أستاذ طارق، طبعًا أعرف عنه كتير، تحبوا أبدأ منين بالضبط؟

أجبته بفضولٍ وأنا أميل نحوه مُهتمًا:

- كل اللي تعرفه يا شبارة، عايزين نعرف كل حاجة، وأهمهم مكانه الحالي لو عارفه.

هزَّ الرجل رأسه في لحظةٍ سعل خلالها سعالاً خشنًا تصاعد مِن صدرٍ أهلكته أطنان التبغ، قبل أنْ يعاود التقاط أنفاسه قائلاً:

- لأ للأسف مكانه أنا معرفوش، بس ركزوا معايا، وسامحوني لو كلامي أغلبه

مش واضح، أنا بصعوبة بعرف أتكلم.

هزّ كلانا رأسه بتَفَهُّمٍ، وأطرقنا السمع، باهتمامٍ.

*****

# القاهرة، ٢٠١٢ م

الحرية، كلمةٌ تردِّد صداها في عقول وقلوب وآذان الجميع مع اندلاع الثورة، الفجوة التي كشفت عن جحورٍ حَوَتْ في داخلها الكثير مِن الكبت والحنق والرغبة في الانفجار.

هاأنتم ذا! أصحاب الحلل الفاخرة وربطات العنق، تتراجعون خوفًا أمام ذلك المارد الثوريّ المُندلِع مِن أعماق الأرض أسفلكم، تلك القشرة الرخاميّة الفاخرة التي طالما وقفتُم عليها ثابتين فوق رؤوس الضعفاء، آن لها أنْ تتشقَّق بصرخاتِ المُكبَّلين أسفلها.

نيران الحاجة والجوع والظلم والقهر، ستُحرِق كلّ شيءٍ، والحال الذي اعتدْتُم عليه سينقلب، إنّها الحرية كما يراها كلُّ شخصٍ مِن منظوره، السجون انهارت بواباتُها الحديدية أمام المَسجونين فيها وأُوصِدتْ على السجّانين خارجها. الأسود فرّتْ مختبئةً أمام جرذانٍ، اعتقدتْ يومًا أنها مجرّد وليمةٍ سائغةٍ بين


fb.com/groups/exchange.book

أنيابها القوية الحادّة، فلْتُمحَ كلُّ الفروق الاجتماعية السخيفة، ولْيحكمْ عدل الجهلاء الذين لم يعرفوا للعدل معنًى إلّا على إيديكم الظالمة.

بالنسبة لشبارة كانت الحرية هي تلك المساحة الأكبر التي أُتيحت له تحت غطاء الفراغ الأمني المتفاقم، أجهزة الدولة لم تُلملِم أشلاءها المتناثرة بعد، والجدران المتصدِّعة لا ينقُصها سوى دفعةٍ طفيفةٍ بإصبع طفلٍ لتنهار، الآن هو لا يخشى أصحاب البذلات الميري البيضاء ذات النجوم فوق الأكتاف، لقد رأى مِنهم مَن يركض مُرتعِدًا في لجنةٍ شعبيةٍ مرَّ بها، واقتحم الأقسام مع الجميع في فورة الغضب الشعبيّ الهائج، لا زال يحتفظ في بيته ببعض الأسلحة الميري التي خبّأها للذكرى.

أصبحت تعاملاتُه وتحرُّكاته في الشارع أكثر ثقةً ووضوحًا وجرأةً، السرقات تنتشر في المنطقة، بعضها لصالحه الخاصّ وبعضها الآخر مِن خلاله لصالح مُستغلٍّ مثله، أو مِمّن لم تعجبه الأوضاع الجديدة، ولا أحد يجرؤ على التحدُّث أو الاعتراض، لن يعاديَ أحدًا، وسيعمل مع كلّ الأطراف لكلّ الوقت، إنه مع الثوار، إنه مع النظام السابق، إلى جانب الحكومة، وبجوار المعترضين، إنه في خدمة الجميع، و جميعهم في خدمة مصلحته الشخصية، فقط.

جالت كلُّ هذه الأفكار بخاطره وهو يتأمّل الشارع الهادئ بالأسفل مِن خلف تلك النافذة النصف مفتوحة، في ذلك المنزل الجديد الذي استأجره طارق على بُعْدِ ثلاثة شوارع مِن الورشة، قبل أنْ يلتفتَ إلى ذلك الأخير

الجالس على أريكةٍ تتوسّط المكان خلفه، يُتابِع الأخبار على شاشة التلفاز قائلاً:

- لا بس الله ينور عليك يا أستاذ طارق، الشقة زي الفل، مقلتليش أجْرتها بكام؟

ابتسم طارق دون أنْ ينظر إليه، قائلاً بسخريةٍ:

- هوا شبارة ميعرفش؟

انكشف صفُّ أسنانة الصفراء، وهو يبتسم مُومئًا برأسه مستطردًا:

- لا بس حلوة، مش ناقصها إلا حتة طرية تحلّي الصورة أكتر.

لم يُعِرْ طارق لعبارته اهتمامًا، وهو يتابع الشاشة أمامه للحظاتٍ احترمها شبارة وهو يدور ببصره في المكان مشعلاً سيجارته لينفث دخانها ببطءٍ قبل أنْ يلتفت إليه طارق قائلاً:

- تفتكر مين فيهم هياخدها؟

عقد شبارة حاجبيه بتساؤلٍ أدركه طارق، فاستطرد موضحًا:

- شفيق وللا مرسي؟ الرياسة يعني؟ مين هيبقى الريس؟

أخذت الجملة وقتًا في عقل الأخير قبل أنْ يستوعبها، وتنفرج عقدة حاجبيه متراجعًا إلى الوراء وهو يقول:

- آاااااااااااااااه! فهمت، الرياسة؟!



fb.com/groups/exchange.book

هزّ طارق رأسه قائلاً:

- أيوه يا سيدي، الرياسة، تفتكر هتبقى لمين؟

غمز شبارة بعينيه قائلاً بلهجة المُلِمّ بكلّ الأمور:

- طب وهوا دا سؤال؟ ماهي معروفة؟

رفع طارق أحد حاجبيه تعجُّبًا وهو يتساءل:

- ياراجل؟ مين بقى؟ مرسي وللا شفيق؟

غمغم شبارة:

- لا ده ولا ده.

بدا على وجه طارق شيءٌ مِن الاهتمام وهو يعتدل متسائلاً:

- أمال مين؟

أجاب شبارة على الفور:

- الريس متقال طبعًا.

قالها ثم انفجر ضاحكًا تلك الضحكة الخشنة الفظّة التي اهتزّت معها جزيئات جسده المكتظّ بالكامل، فأشاح طارق برأسه شاعرًا بشيءٍ مِن خيبة الأمل وهو ينعى غباءه الذي جعله يهتمّ بالردّ متمتمًا:

- أنت بتهزر؟

أجابه شبارة من وسط قهقهته:

أكيد طبعا بهزر، رياسة أيه وشغل فاضي أيه؟ يا عم طارق أنت شاغل دماغك بحاجات ولا ليها أيّ لازمة، خلينا يا عم في أكل عيشنا وحياتنا، وسيب الرياسة لصحاب الرياسة، دي دنيتهم وهما فاهمينها، وإحنا برضو لينا دنيتنا اللي فاهمين فيها، فخلينا في حالنا وهمّا في حالهم، قوللي بقى الأول، مين تاني شاف الشقة دي؟

صمت طارق لحظةً مُفكّرًا قبل أنْ يقول:

- ممم، محدش، مفيش غيرك أنت تقريبًا وسعدني، أنا كده كده بقالي فترة مبشوفوش، بتسأل ليه؟

- بسأل، عادي.

لوّح طارق بيده مكررًا:

- مفيش غيرك.

أكّد شبارة على سؤاله مرةً أخرى قائلاً:

- يعني محدش غيرنا يعرف؟

ضاقت حدقتا عينيْه وهو يشير بيده إشارةً غير مفهومةٍ متمتمًا:

- آه، تقريبًا.


fb.com/groups/exchange.book

عقد شبارة حاجبه في عدم رضًا عن الإجابة غير المؤكدة، وهو يقول:

- يعني أيه تقريبًا دي بقى؟ مقلتش لسلامة مثلاً؟

هزَّ طارق رأسه نافيًا بتأكيدٍ، وهو يجيب:

- لا، سلامة ميعرفش عنها حاجة.

بتعجُّبٍ مقترنٍ بنظرة شكٍّ قصيرةٍ، رمقه بها شبارة وعبَّر عنها بقوله:

- يا راجل؟ متوقعتش إنك متقولوش.

ردَّ طارق مؤكِّدًا:

- لا مقلتلوش، ويا ريت هو بالذات ميعرفش عنها حاجة، أنت وسعدني معنديش مشاكل فيكو.

تساءل الرجل:

- دا ليه كدا؟ انتوا قافشين على بعض وللا حاجة؟

نفى طارق تكهُّنات ذلك الأخير مرةً أخرى قائلاً:

- أبدًا، سلامة جدع وحبيبي وكل حاجة، بس أنت عارف إنه شغَّال برضو في الورشة عندنا ويعرف العيلة كلها، وصراحة الواد طيب وحاسس إننا عيلته التانية، وممكن لو عرف يقع بلسانه مع حد منهم كدا وللا كدا، وأنا مش حابب دا يحصل فقلت من الأول مقولوش وخلاص عشان أقفل على نفسي

الباب دا أضمن.

هزْ شبارة رأسه متفهمًا، وهو يتمتم:

نظرية برضو، خلاص اللي تشوفوا، حقك، مع إنك ممكن تقوله وتوصيه ميقولش لحد.

لوّح طارق بكفّه رفضًا للفكرة، وهو يقول:

- لا بلاش، قلتلك هو جدع وكل حاجة، بس غشيم، وإحساسه الزايد بالمسئولية ناحيتي ممكن يخليه ميقدّرش حاجات أنا بس اللي من وجهة نظري هبقى شايفها وفاهمها.

هزَّ الرجل كتفيْه بلامبالاةٍ وهو يقول:

- مم، خلاص فهمتك، وعمومًا دي بتاعتك أنت.

قالها وبعد لحظة صمتٍ، أضاف:

- تعرف؟ أنا بحسّ واحنا قاعدين معاك في وجوده إنه مش مرتاح لقعدتنا سوى، معرفش بقى دا مجرد إحساس وللا حقيقي.

لم يكن مِن بين رغبات طارق الاستمرار أكثر في الحديث عن الأمر، فمطّ شفته أنْ لا يهمّ، قبل أنْ يغمغم:

- سيبك، المهم بس متنساش أنت وسعدني، محدش تالت يعرف.


fb.com/groups/exchange.book

مؤكدًا برفع أصبعه الأقصر عاليًا، أجابه شبارة وهو يقول:

- يا عم طارق عيب، من غير ما تقول، المهم قوللي، هو أنت صحيح سايب البيت عشان خناقتك مع جوز أمك وللا بسبب موضوع التوكيل اللي عملته باسمه؟

تحفّزت ملامح طارق عند سماع السؤال، ثم مدّ يده بالريموت نحو التلفاز ليخفض صوته، متسائلاً بحدّةٍ:

- وأنت مين اللي عرّفك الموضوع ده؟

غمز شبارة بعينيْه بزهوٍ قائلاً:

- أيه يا أستاذ طارق عيب عليك، مانتا لسه قايلها بنفسك، هو في حاجة بتخفى عن شبارة؟

بدا الغضب على ملامح طارق الذي كرّر سؤاله جدّيةِ مَن لا يقبل تسفيه الأمر:

- أنا مبهرجش يا شبارة، مين اللي قالك موضوع التوكيل ده؟ أنت قابلت سلامة قريب؟

مطّ الآخر شفتيه قائلاً بتعجُّبٍ:

- أيه يا عم بس مالك؟ أنا معرفش إنّ معرفتي للموضوع هتضايقك أوي كده، لأ يا صاحبي مقابلتش سلامة ولا حاجة، اللي قاللي سعدني.

العقد حاجبا طارق بحيرةٍ مغمغمًا:

سعدني؟ طب سعدني عرف منين؟ أنا متكلمتش معاه في حاجة زي كده؟

هزّ شبارة كتفيْه بلامبالاةٍ قائلاً:

- تلاقيه عرف من سلامة.

بدا الحنق على وجه طارق، وهو يتمتم بصوتٍ مرتفعٍ نسبيًا:

- يابن الكلب يا سلامة، أسرار بيتي عاملها لبانة في بقك وداير تحكيها للناس؟

لوّح شبارة بكفّه نحوه، وهو يقول محاولاً تهدئته:

- لا يا أستاذ طارق، الحكاية مش للدرجة دي متظلمش الراجل، أسرار بيت أيه وكلام فاضي أيه؟ الموضوع مش كبير أوي كده، وبعدين مش مع حد غريب برضو، الراجل تلاقيه كان بيفك شوية بالكلام مع نسيبه، عادي يعني مش أزمة.

تطلّع نحوه طارق بتساؤلٍ واضيقْت حدقتاه مكررًا:

- نسيبو؟

رفع شبارة حاجبيه بتعجُّبٍ قائلاً:

- هو أنت متعرفش إنّ سلامة خاطب؟


fb.com/ groups/ exchange.book

أجاب:

- أعرف آه، بس مهتميتش بالتفاصيل.

علّق شبارة:

- أهي خطيبته بقى دي اللي مهتميتش بتفاصيلها تبقى أخت سعدني.

اتّسعت عينا طارق دهشةً كالأحمق قائلاً:

- يـاااه؟ تصدق ماكنتش أعرف؟ متوقعتهاش خالص، صحيح الدنيا دي صغيرة أوي.

أطلق شبارة ضحكةً قصيرةً متهكمةً، وهو يقول:

- يا عم دانتا متأخر أوي، دول خلاص قربوا يعملوا الفرح.

هزّ طارق رأسه وهو يحاول استيعاب الأمر:

- يا راجل!؟ طب والله كويس، هوا سلامة ابن حلال ويستاهل الخير، على الله بس لما يعمل الفرح تبقى ظروفي مع العيلة اتعدلت وأقدر أحضر، يا إمّا أنت بقى تبقى تقوم بالواجب دا عني، أنت سعدني أكيد هيعزمك.

ضحك شبارة مرةً أخرى وهو يقول:

- واجب أيه اللي أقوم بيه يا أستاذ طارق؟ دا أنا آخر واحد في المنطقة ممكن سعدني يعزمه على الفرح ده.

ليه يا عم هوا مش صاحبك؟

أجاب:

ما هو عشان صاحبي بقى مش هيعزمني.

مش فاهمها الحته دي.

- هههه، لا خلاص دي مش لازم تفهمها يا أستاذ طارق.

تطلّع نحوه هذا الأخير للحظة، قبل أنْ يهزّ كتفيه أنْ لايهم، في حين تحرّك شبارة نحو باب الشقة استعدادًا للرحيل، وهو يقول:

- أشوفك بلّيل عالجزيرة لو جي، سلام.

ثم فتح الباب واندفع إلى الخارج وهو يكمل:

- ومبروك تاني عالشقة.

قالها وأغلق الباب خلفه بإحكام، تاركًا طارق خلفه ليتمدّد فوق الأريكة التي يجلس عليها مُطلِقًا تنهيدةً طويلةً حملت الكثير مِن الارتياح، وهو يعيد رفع صوت التلفاز أمامه محاولاً الاندماج مرةً أخرى مع ما يُعرَض خلاله، لقد قرر الهروب من واقعه عبر تلك الشاشة الصغيرة، تمامًا.

*****


fb.com/groups/exchange.book

## دار المسنين، القاهرة أغسطس ٢٠١٣ م

البقاء لله يا أستاذ سلامة، الحاجّة وديدة تعيش أنت، دخلنا عليها الأوضه أول امبارح لقيناها مسلمة الروح، ولادها جم امبارح يستلموا الجثة عشان يدفنوها، شدّ حيلك.

*****

## مايو، ٢٠١١ م

تلفّت شبارة حوله في ذلك المكان المُقفِر الخالي تمامًا مِن السيارات، في تلك المنطقة المترامية على طريق مصر الفيوم الزراعيّ، وهو يخرج من جيبه علبة سجائره الخاصّة ويقرُبها مِن فمه ليلتقط واحدةً بشفتيه أشعلها بصعوبةٍ بالغةٍ مستخدمًا علبة الكبريت التي تهالكت تمامًا مِن أثر العرق الغزير الذي تصبَّب مِن كلّ مسامه على مدى وقتٍ طويلٍ أمضاه في المواصلات إلى هنا.

كان يشعر بتوتُرٍ بالغٍ على الرغم مِن ملامحه المُخيفة ونظراته الحادّة وهيكله البدين، ربما هو ذات شعور سمكة الزينة عند إخراجها مِن الحوض

وإلقائها مرةً أخرى في قلب المحيط، هو الملك على أرضه، ولكنه يدرك أبدًا أنه خارجها لا شيء.

التقطت عيناه تلك السيارة التي توقّفت بعيدًا مُصدِرةً إشاراتٍ ضوئيةٍ متتابعةٍ، فهِمَها على الفور فاقترب منها في خطواتٍ حذرةٍ، وهو يحاول برغم الضوء الساطع في عينيْه رَصْدَ ذلك الجالس بداخلها والذي انتظر بدوره حتى اقترب، ثم أشار له أنْ يجلس إلى جواره في السيارة قائلاً باقتضابٍ:

- في معادك مضبوط، اركبْ.

نفّذ شبارة الأمر متجهًا نحو الباب المجاور للسائق، وفتحه ثم دلف إلى داخل السيارة وهو يقول بلهجة مرحٍ اصطنعها على الرغم مِن توتُّره:

- شريف باشا، عاش من شافك يا سيد الناس.

رمقه شريف بنظرةٍ جانبيةٍ طويلةٍ، قبل أنْ يتمتم:

- أنت كمان يا شبارة ليك وحشة، أخبارك أيه؟

غمغم شبارة قائلاً:

- تمام يا باشا الحمد لله، ماشية.

سأله شريف بسرعةٍ:

- وسعدني عامل معاك أيه؟


fb.com/groups/exchange.book

بنفس الغمغمة أجاب:

- زي الفل، خير؟ هوا حضرتك سمعت حاجة تضايق؟

قالها وعقله الحائر يبحث عن سببِ هذه الدعوة غير المتوقعة، ويده تتحسّس بحذرٍ مطواته المدسوسة في جيبه تحسُّبًا لخيانةٍ ما، يتوقعها وكأنما يستمدّ من ملامستها شعورًا بأمانٍ كان يفتقده، لمحه شريف بعينيْه فعاجله قائلاً:

- طبعًا قلقان وبتسأل نفسك أنا ايه اللي فكرني بيك وعايز منك أيه؟؟

أجاب شبارة ببطءٍ محاولاً الإنكار:

- لا أبدًا يا باشا، دا إحنا تحت أمر الداخلية وبالخصوص سعادتك يعني، وفي أي وقت. أنت تؤمر.

ثم استطرد:

- بس يعني آه، الصراحة عمّال بقلّب في دماغي على سبب بس مش أكتر.

هزّ شريف رأسه وهو يقول:

- تمام، تعال الأول بس نتحرك بالعربية نشوفلنا مكان نقعد فيه سوى كده، وهتعرف هناك كل حاجة.

قالها وهو يدير مكبح سيارته منطلقًا بها وإلى جواره ذلك الأخير في خضمّ تساؤلاته، ويده لازالت تتحسّس المطواة، ودون أنْ ينبسَ ببنت شفةٍ طوال

تلك الفترة، التي لم تكن بالطويلة حتى توقفت

السيارة تمامًا أمام أحد المقاهي البلديّ الصغيرة، التي احتلّت أحد زوايا ذلك الشارع الهادئ المظلم بشكلٍ أضفى كآبةً على المكان، انطبعت في وجوه روّاده الذين جلس كلٌ منهم محدثًا رفقته بصوتٍ خفيضٍ لم يعتده سيارة في الجزيرة.

كانت يده تلتصق أكثر بسلاحه كلّما تضاعف التوتُّر في داخله، بينما اتّجه هو وشريف نحو ركنٍ في المكان اختاره الأخير ليجتمعا فيه، مشيرًا لصبيٍّ من صبية المكان، أسرعَ بمسح المقاعد المغبرّة قبل أنْ يجلسا عليها، ثم التفت لكليْهما قائلاً:

- نورتوا يا بهوات، تشربوا أيه؟

قال شريف وهو يضع قدمًا فوق الأخرى، مشيرًا للصبيّ بإصبعيْه:

- فنجان قهوة سكتو صغير أوي بس عشان أعرف أنام، واضبطها.

أشار الصبيّ نحو عينيْه وهو يومئ برأسه بما يعني، «من عينيا» ثم التفت نحو شبارة الذي قال بسرعةٍ:

- شاي على مية بيضا سكر زيادة.

تساءل الصبيّ:

- حدّ هيشيّش؟


fb.com/groups/exchange.book

هزّ شبارة رأسه نافيًا، وهو يرمق المقدّم شريف بنظرةٍ جانبيةٍ لمحها الأخير فابتسم

وهو يقول للصبي :

- هاتلو يا عمّ حجر معسل بس يكون وصاية، عشان هيسيح عليه.

ابتسم الصبيّ بدوره، ثم اندفع لتنفيذ الأمر بينما اتسعت عينا شبارة بشكٍ وهو ينظر إلى وجه شريف الذي مال نحوه مستطردًا:

- معاك صحيح، وللا أخليه يجيبلك من عنده؟

ببطءٍ حَذِرٍ تمتم شبارة متصنعًا عدم الفهم:

- معايا أيه بالضبط؟

لوّح شريف بيده مشيحًا بوجهه قائلاً:

- لا يا عم شبارة كده تزعلني منك؟ يعني أنت مش فاهم قصدي على أيه؟

بعد لحظةٍ من التفكير، أجاب شبارة:

- لأ، مش فاهم يا شريف باشا.

ضرب شريف كفًا على كفٍ وهو يعتدل في جلسته قائلاً:

- تصدّق كده أنا زعلت؟ يابني بتعمل صايع على مين؟ لا بجد إخص عليك؟ طب ما حتى تعقلها؟ هوا أنا محتاج أجيبك لحد هنا وأعمل معاك الفيلم دا

الله عشان في الآخر ألبسك في صباع حشيش وللا أعملك محضر تعاطي؟

وجد شبارة حديثه منطقيًا فغمغم:

أكيد لأ.

تراجع شريف في مقعده وهو يتنهّد قائلاً:

- هايل، ها بقى؟ معاك وللا يجيبلك؟

أخرج شبارة مِن جيبه تلك القطعة الصغيرة بنيّة اللون، بدأ في إعدادها وهو يقول:

- لا يا باشا ربنا يكرمك، أنا مبغيرش الصنف بتاعي.

ثم مال بدوره نحو شريف أمامه قائلاً بلهجةٍ خفتتْ فيها نبرة التوتُّر إلى حدٍّ كبيرٍ:

- بس أنتا يا شريف باشا، أيه اللي عرّفك على مكان زي ده؟

أجاب شريف قائلاً:

- عيب يا شبارة الأسئلة دي، أنت كده بتقلل مني، عمومًا يا سيدي الغرزة دي صاحبها واحد حبيبي ميتخيرش عنك كدا بالضبط، وبيننا وبين بعض شغل، عشان كدا طبيعي أبقى عارف، وبعدين بالذمة دا سؤال يتسئل للداخلية؟ الداخلية هيا اللي بتسئل بس يا شبارة وللا أنت نسيت؟


fb.com/groups/exchange.book

استرجع شبارة في ذاكرته صورَ شهورِ الثورة القليلة الماضية، وهو يغمغم في لَكْنةٍ نَدَّتْ منها لمحةٌ تشفُّ:

- لا يا شريف باشا منسيتش أكيد، بس الثورة أصلها لخبطت الدنيا ولخبطتنا إحنا كمان.

كان شعور في داخله يأمل أنْ تنفذ مقاصد كلماته إلى ذلك الأخير كنوعٍ من الانتقام، بينما استقبل الآخر تلميحه دون مبالاةٍ وهو يكرِّر بشكلٍ تأكيديٍّ:

- الثورة، تمام كده.

صمت لحظاتٍ استغلّها فتى الغرزة لتوزيع الطلبات على الطاولة المعدنية أمامهما، قبل أنْ يستطرد مُكمِلاً:

- أهي الثورة دي، هيا الموضوع اللي أنا جايبك عشان أكلمك فيه.

تنبهَّت حوّاس شبارة الذي انتهى مِن فكّ جزءٍ مِن تلك المادة البنيّة فوق الفحم المشتعل على رأس نرجيلته، فاعتدل متطلعًا نحو شريف باهتمامٍ، وهذا الأخير يقول:

- فوقلي بقى كده وطرطقلي ودانك عشان عايزك تركز معايا أوي في كل كلمة هقولها، معايا؟

أومأ برأسه مجيبًا:

- معاك يا باشا.

م مال برأسه أكثر نحو شريف الذي بدأ السرد، وبمنتهى التفصيل.

*****

## أبريل، ٢٠١٣ م

من خلف مكتبه في الورشة، وبحزنٍ مهمومٍ تركته له الوحدة بعد رحيل زوجته التي لم يَنْفُض غبار مَدفنها عن يده بعد، نهض الحاج عمران ببطءٍ، عاقدًا حاجبيْه أثر ألمٍ تصاعد من جسدٍ تطاول عليه الزمن مُستندًا في سيره على الحائط وهو يتّجه إلى الخارج نحو سلامة، الذي انحنى على إحدى ماكينات التقطيع في المكان يقطع ألواح الخشب وقد بدا الذبول على وجهه صارخًا شديد الوضوح، اقترب مِنه وربّت على كتفه قائلاً بتعاطُفٍ لم يعتدْه منه هذا الأخير:

- سلامة يابني، أنت شكلك تعبان، روح نام شوية.

التفتَ الفتى نحوه قائلاً ببقايا الوعي الكامن بين عينيه:

- لا يا حاج، أنا مش تعبان، سيبني أنا عايز أكمل اللي في أيدي ده.

نقل الحاج عمران بصره بين وجه الفتى والأعمدة الخشبية المتراصّة على الأرض حوله متمتمًا:


fb.com/groups/exchange.book

- يابني، أنت باين على وشك أنك قتيل النوم، وبعدين أنت بقالك أسبوع مبترتاحش، وكده ممكن تقع، اسمع كلامي وروّح بيتك ارتاح، أو اقعد مع خطيبتك، خدها وحاول تغير جوّ لو عايز، إحنا معندناش شغل مستعجل الفترة دي، أديك شايف الحال.

كان سلامة يقاوِم بداخله رغبة عارمةً في البكاء، قائلاً بحدّةٍ غير مقصودةٍ صنعتها مقاومته:

- قلتلك سيبني يا حاج، سيبني الله يرضى عليك، أنا مش عايز أرتاح، ومشعايز أبطل شغل، سيبني بقى في اللي أنا فيه.

تفهَّم عمران ما يعتمل في نفس الفتى من اضطرابٍ دون أنْ يدرك سببه، فصمت للحظةٍ تأمله خلالها باشفاقٍ، قبل أنْ يتمتم وهو يدور على عقبيه مبتعدًا:

- ماشي يابني، براحتك، ربنا يخفف عنك.

ثم توقّف برهةً، قبل أنْ يلتفت عائدًا إليه مرةً أخرى متمتمًا:

- على فكرة أنا كنت جاي عشان أعتذرلك.

التفت إليه الفتى بترقُّبٍ متسائلٍ، فتابع:

- أنا عارف إني طول عمري بشكّ فيك وبكرهك، وأنت نفسك كنت حاسس ده مني. أنا مش هكدب عليك، ولا هنكر ده، بس يمكن للمرة الأولى

فحباتي تكون أنت الوحيد اللي يثبتلي إنّ إحساسي مش دايمًا هو اللي صح.

كان سلامة يتابع بعينيْه الرجل الذي دار حوله في المكان مكملاً:

لقيت إني معنديش سبب حقيقي يخليني أكرهك غير شكوكي بس، بمكن عشان أنا بطبعي مبحبش الغرب، وأنت لما جيتلنا زمان وأنت صغير كنت غريب عننا، غريب في كل حاجة، حتى في شكلك، إحنا لحد دلوقتي منعرفش عنك غير اللي أنت حكيته، فجأة ظهرتلنا، شاب صغير مكملش ١٨ سنة جاي من الصعيد مبهدل محيلتوش في جيبه غير ٥ جنيه، ومبيتكلمش عن أي حاجة تخص عيلته أو قرايبه، حتى الست اللي ربنا افتكرها في دار المسنين دي واللي كنت عايز توصلنا إنها أمك، كنا عارفين كلنا إنها مجرد قصة خلقتها لنفسك وعشت فيها، أكيد أنت نفسك فاكر أنا اتخانقت مع الحاج عبدالحميد الله يرحمه قد أيه زمان عشان ميشغلكش، واتخانقت معاه برضو قد أيه لما سلّمك مفتاح المكان بعدها بشهور.

بدى التأثُّر واضحًا على وجه سلامة مع التطرُّق إلى أمر دار المسنين بشكل لم يلحظه عمران وهو يستطرد:

- نهايته، أنا مش جاي أراجع معاك اللي فات واللي اكتشفت إني لوحدي اللي كنت غلطان

فيه، أنا جي بس أقولك آسف، آسف عشان النهاردة بجد أنا حاسس بيك، وحاسس بقسوة إنّ اللي حواليك يكونوا أكتر ناس ظالمينك ومش فاهمينك


fb.com/groups/exchange.book

صح، أنت يمكن تكون السبب اللي ربنا بيعاقبني عليه النهاردة على أيد طارق.

تهدّجت نبرة الرجل عند تلك النقطة، واختنقت أنفاسه وهو يتابع:

- أديك شايف، أنا قد أيه كان نفسي الولد ده يعرف إني مش ندل ولا خاين زي ما هوا مُصِرّ إنه يشوف، طارق بيعمل بالضبط زي منا عملت معاك زمان، عاملتك باللي حسيته بس، من غير ما أحاول أبدًا أبص لحقيقتك، أنا عايزك تسامحني يا سلامة، سامحني أرجوك، وبرجوك لو ليا الحق في دا إنك تحاول تساعدني أقرب طارق مني، يمكن يجي عليه اليوم اللي يشوفني فيه زي منا شايفك النهاردة، وساعتها يمكن يرجع، ويعرف إننا فعلاً محتاجينله. يمكن!

كرّر كلمته الأخيرة بأسًى اخترق قلب سلامة، الذي دار ببصره نحوه بصمتٍ وتابعه حتى رحل مبتعدًا قبل أنْ يتمتم محدّثًا نفسه:

- سامحني أنت يا حاج عمران، عشان أنت الوحيد وسط الناس دي اللي فهمتني صح.

قالها ثم عاد ليدفن نفسه وسط دموعه وأكوام الخشب، دون توقّفٍ.

*****

# ديسمبر، ١٩٩٠ م

انطلق القطار بأقصى سرعةٍ في رحلته المعتادة مِن صعيد مصر إلى القاهرة، ومع اهتزازاته فوق القضبان الحديدية شبه المتآكلة، كانت كلّ خلجةٍ مِن خلجات ذلك الفتى الأسمر نحيل الجسد، حادّ القسمات، أشعث الشعر، تهتزّ كألف ألف عربةٍ مِن عربات القطار، وهو يجلس غائصًا في مقعده، وعيناه الواسعتان ترصدان كلّ ما حوله ومَن حوله بتوتُّرٍ وتحفزٍ غائرٍ على ملامح وجهه، مع إجهادٍ بدا جليًا في كلّ قسماته، ومِن بين تلافيف عقله، انهمرت الأفكار كالسيل.

لقد رتَّب لكلّ شيءٍ قبل أنْ يرحل؛ لم يترك خلفه أيّ أثرٍ أو دليلٍ، سيتمّ اكتشاف جريمته على أسوأ الأحوال بعد أسبوعٍ أو أكثر مِن الآن، وحينها لن يكون أمام جهات البحث سوى جسدَيْن تآكلت معالمهما تمامًا، غالبًا ستسجِّل القضية ضدّ مجهولٍ، هو يستحقّ، وهي تستحقّ، كلاهما يستحقّ هذه النهاية البشعة الحقيرة بين أطنانٍ مِن المجاري الراكدة، كمثوًى أخيرٍ يُخفي رائحة خيانتهم النتنة.

هي نظرتُها الأخيرة في وجهه التي لا تفارق مُخيِّلته، تخترقه كسيوفٍ غائرةٍ في قلب ضميره الذي ربّما كان ثالث القتلى، كلاهما يستحقّ، أنت يا مَن خنت أعزّ أصدقائك، وأبدعت في خيانتك لسنواتٍ وسنواتٍ، ترقد الآن


fb.com/groups/exchange.book

جثةً هامدةً تتحلَّل بهدوءٍ مُنتحِلاً حتى في ميتَتِك لقب الضحية، تمامًا كما انتحلتَ في حياتك لقب الرجل، وكلاهما لا يليقان بأمثالك، كيف تصير أنت الرجل والضحية، وأصير أنا القاتل؟ كيف؟

وأنتِ يا مَن أتيتِ بي إلى هذا العالم القذر لأكون ما أنا عليه الآن، أيّتها الأم التي صنعتْ مِن ولدها مجرمًا هاربًا إلى الأبد، مِن جريمةٍ لن يعلمها سواه، ولن يحاكمه فيها إلّا نفسه، أنا القاتل الذي لم يَذْبح سوى نفسه في شخصيْكُما، أنا القاضي والشاهد والمذنب الوحيد الذي سيتألم ما بقي له مِن العمر، بينما يهنأ كلاكما بنعيم الموت وراحته.

انتفض جسده دفعةً واحدةً، وانقطع حبل أفكاره إثْر هزةٍ خفيفةٍ مِن يد مسئول القطار الذي اقترب منه ليُطالع تذكرة الرحلة الخاصّة به، بيدٍ مرتبكةٍ بحث عنها في جيب قميصه المُتّسخ وأخرجها رافعًا إيّاها في وجه الرجل، الذي تطلَّع فيها للحظاتٍ قبل أنْ يُعيدَها إليه وهو يرمقه بنظرةٍ هي خليطٌ مِن الشكّ والتعاطُف مغمغمًا:

- رحلة سعيدة.

لم يُحِر الفتى جوابًا سوى أنْ حاول تبديل ملامح وجهه إلى ما يعني اللاشيء، وصدرت مِن بين شفتيْه تمتماتٌ غير مفهومةٍ، بينما استطرد المسئول:

- أنت معاك حدّ يابني وللا نازل مصر لوحدك؟

أجاب الفتى بنفس الارتباك:

- لوحدي.

ثمّ استطرد بسرعةٍ، وكأنّما نسي شيئًا ما:

- بس في ناس قرايبي مستنييني هناك في المحطة.

سأله الرجل باهتمامٍ إنسانيٍّ مصحوبٍ بلكنةٍ مِن التعجُّب والإشفاق:

- بس أنت شكلك أول مرة تسافر لوحدك، وواضح كمان إنك أول مرة تنزل القاهرة، أنت اسمك أيه؟

همَّ الفتى بإجابة السؤال قبل أنْ يتراجع للحظةٍ، وكأنّما استوقفه شيءٌ ما تخطّاه سريعًا، وهو يجيب بنفس الارتباك:

- اشمعنى؟

أمال الرجل طرف شفتيْه مفصحًا عن ابتسامةٍ، وقد التقط تردُّدَ الفتى مغمغمًا:

- عاشت الأسامي يا سي اشمعنى، عمومًا متسرحش تاني بقى وتنسى نفسك، خلاص القطر أقل من ربع ساعة وهيدخل عالجيزة، ومرة تانية، رحلة سعيدة.

قالها ثم رحل ليكمل تفتيشه الدوريّ على باقي الركاب تاركًا خلفه الصبيّ ليختنق بين حبال أفكاره من جديدٍ.

*****


fb.com/groups/exchange.book

fb.com/groups/exchange.book

# الفصل السابع

# القاعدة السادسة: لصمتك لغة، لن يفهمها سواك

fb.com/groups/exchange.book

صدقيهم لو قالولك إني عصبي أو فالاتي
وإني بعرف ألف واحدة وقلبي بيغيَّر يوماتي
صدقيهم لو قالولك أيّ كدبة عن حياتي
بس اوعي تصدقيهم لو قالولك إنه كان كداب معاكي
محبكيش.

fb.com/groups/exchange.book

- أنا محتاجلك يا شبارة، أيوه محتاجلك متبصليش كده، مستغرب ليه؟ أنت مش فاهم إنّ اللي بيحصل ده خطر علينا إحنا الاتنين؟ مش إحنا بس اللي هنتضرر، أنت واللي زيك كمان الدور جي عليكو، أوعى تكون مبسوط بالأقسام اللي اتحرقت ونفّضتوا اللي فيها أنت واللي معاك، ولا بالقضايا اللي ورقها اتحرق وسقطت مالحسابات، ولا تفكر إنّ الثورة دي زي ما بيقولوا جاية تنضّف وساختنا إحنا بس؟ طب ووساختك هتتساب كده؟ بلاش تبقى غبي وعبيط وتفكر إنك لمّا تشمت فيا الدور مش هييجي عليك، إحنا كدا كدا ستر وغطا على بعض، إحنا برغم قسوتنا حضن حنين بالنسبالك أنت واللي زيك، فخليك في المضمون، أنا اخترتك أنت بالذات عشان عارف إنك ذكي و بتحب دايمًا تمسك العصاية من النص، مستني ردّك، وخلي بالك الموضوع مش باختيارك زي مانت فاهم، وأنا عارف إنك مش غبي.

*****


fb.com/groups/exchange.book

عزيزي حسين،

كيف حالك؟ وكيف تسير أمورك في هذه الحياة؟

مضتْ فترةٌ طويلةٌ منذ آخر حديثٍ بيننا قبل رحلتي مع مايك لقضاء شهر العسل احتفالاً بزواجنا، اختفاؤك المفاجئ يقلقني بشدةٍ، أتمنى أنْ تكون بخير حالٍ.

برجاء الردّ،

هيلين.

*****

ارتفع صوت ثلاث طرقاتٍ منتظمةٍ على باب مكتبي وأنا أطالع بعضًا مِن أوراق القضية أمامي، فاعتدلت في مكاني وتطلَّعتُ إلى الباب الذي انفتح وظهر على عتبته أحد العساكر الذي دلف إلى المكان مؤديًا التحية قبل أنْ يقول:

- واحد بره عايز يقابل حضرتك يا فندم.

تساءلتُ وأنا أفرك عينيَّ مِن فرط الإجهاد الواضح على ملامحي:

- واحد عايز يقابلني؟ دلوقتي؟

قلتُها وأنا أُلقي نظرةً إلى ساعتي التي أشارت عقاربها إلى الرابعة عصرًا، ثم

عُدْتُ لأتطلّع إلى الرجل مستطردًا:

- طب مقالكش هوا مين؟

على الفور هزّ الرجل رأسه نافيًا، وهو يقول:

- لا يا فندم، بس بيقول إنه جي بخصوص قضية وفاء عمران.

تنبهّتْ كلُّ حواسّي مع ذكر الاسم، وبعجلةٍ أشرت له أنْ يدعوه للدخول قائلاً:

-طب خليه يدخل، و روح خلي حدّ يعملي فنجان قهوة بسرعة.

انطلق الرجل لتنفيذ الأمر، وانتظرت أنا حتى طالعني وجه ذلك القادم، كان رجلاً في العقد الرابع مِن عمره، ملابسه غير المهندمة، وذقنه النامية مع شعره غير المصفّف وتلك الزرقة التي حدّدت أسفل عينيْه تدلُّ على أنّه أمضى لياليه الماضية في حالٍ مزرٍ. دلف إلى المكان، ثقيل الخطوات، بطيء الحركة، وبصوتٍ خفيضٍ غمغم:

- الرائد أيمن؟

أجبته أنْ نعم، وأنا أشير له بالجلوس قائلاً:

- قالولي إنّ عندك معلومات بخصوص قضية وفاء عمران.

ألقى الرجل جسده على أقرب مقعدٍ إليه، ثم أخرج من جيبه علبة سجائره المتهالكة التي رفعها أمامي مستأذنًا، فأشرت له قائلاً ببساطةٍ:


fb.com/groups/exchange.book

- آه طبعا اتفضل، ممكن تشرب سجاير هنا عادي، تحب أجيبلك حاجة تشربها؟

قال الرجل وهو يدسُّ السيجارة بين شفتيه ويشعلها:

- لا لا شكرًا، أنا ريقي ناشف بس، لو ممكن كباية ميه ساقعة.

ضغطتُ زرّ مكتبي لاستدعاء أحدهم مِن الخارج وطلبت منه كوبًا مِن الماء لضيفي الذي انتظر قليلاً، حتى وصل الكوب مع فنجان القهوة الخاصّ بي، تابعته وهو يتجرع الكوب دفعةً واحدةً بِنَهَم، وانتظرته حتى انتهى، ثم تدخلت متسائلاً:

- أنا لحدّ دلوقتي متعرفتش على حضرتك.

نظر لي بعينيه نصف المغلقة، ثم أشار بيده متمتمًا:

- عارف أنت إحساس الواحد أمَا يكتشف بعد العمر كله إنّ الدنيا دي ملهاش أيّ لازمة؟ وإنها أرخص من كباية مية زي اللي لسه شاربها دي؟

عقدت حاجبيّ بتعجُّبٍ صامتٍ للحظةٍ، محاولاً استيعاب ما يصبو إليه قبل أنْ أَهُمَّ بإلقاء سؤالٍ آخر، وهو يستطرد:

- أنا عارف مين اللي قتل وفاء.

تناسيتُ سؤالي تمامًا، واعتدلتُ في مكاني محاولاً شحذ كلّ تفكيري وتركيزي مع ملامحه وأنا أكرّر جملته بحذرٍ بصيغة الاستفهام:

- عارف مين اللي قتل وفاء؟

أومأ برأسه أنْ نعم، ثم سحب نفسًا عميقًا مِن سيجارته نفثه في هواء الغرفة ببطءٍ، لم يَبْدُ مقصودًا مع ارتعاشةٍ باديةٍ في أصابعه وعلى شفتيه وهو يلتفت نحوي مرةً أخرى قائلاً:

- خرّج ورقتك يا سيادة الرائد وسجّل عندك الاعتراف ده، عشان أنا اللي قتلت وفاء عمران.

صعقتني الإجابة وارتَدَدْتُ بمقعدي إلى الخلف بذهولٍ تامٍّ وعيناي تتسعان بدهشةٍ أعجزتني عن النطق بشيءٍ ما، و هذا الأخير يتابع جملته بنفس البطْءِ مُكمِلاً:

- متتخضش يا سيادة الرائد، أيوه زي ما سمعت، أنا الي قتلت وفاء عمران، أنا القاتل.

ورغم محاولتي لتمالُك نفسي خرج صوتي مبحوحًا مِن فرط الانفعال وأنا أتساءل:

- أنت مين؟

صمتَ طويلاً هذه المرة وهو ينظر لي، وأنا أحاول سبر أغواره وعقلي يعمل كماكينةٍ عملاقةٍ في محاولَةٍ لتذكر أين رأيت هذا الوجه من قبل! مع جسدي الذي سَرَتْ فيه كمياتٌ مِن الأدرينالين جعل أصابعي تنقبض في وضع استعدادٍ حَذِرٍ قبل أنْ يتمتم هذا الأخير أمامي قائلاً:


fb.com/groups/exchange.book

- أنا طارق اللي بتدوّر عليه، طارق عبدالحميد زكريا.

*****

## القاهرة، ٢٠١٤ م

## عزاءٌ آخر.

لم يستغرقه الأمر أكثر من عامٍ وبضعة أشهرٍ بعد وفاة زوجته الثانية ليلحق بها مُتعجِّلاً، تمامًا ككلّ مَن سبقوه، رحلوا وتركوها وحيدةً مع الألم، وفاء.

لن تتناسى حين دلَفت إلى حجرته كعادتها كلّ صباحٍ بصينية إفطارٍ، وضعتها فوق المنضدة الصغيرة الموجودة بالقرب مِن فراشه، قبل أنْ تتّجه نحو جسده الساكن بلا حراكٍ، هزّته برفقٍ، لتكتشف أنّه لم يَعُدْ هنا، لقد رحل، وإلى الأبد.

حزنٌ جديدٌ أُضيف إلى الحزن الساكن في قلبها بعد رحيل المرأة التي اعتبرتها لسنواتٍ بمثابة أمٍّ لها، أُقيم كلُّ شيءٍ بصمتٍ؛ نُصِبَ الصوان، وتمّ العزاء وسط الرؤوس المطأطنة، وأنين القلوب، والنحيب على مَن رحل، ومِن بين الوجوه التي باتت خلف منظار عينيْها المغرورقتيْن بالدموع مشوّهةٍ وغيرَ واضحة المعالم، اقترب منها سلامة ومال على أذنها هامسًا:

- شدّي حيلك يا أستاذة وفاء، إحنا كلّنا هنا إخواتك ومش هنسيبك أبدًا،

وهنفضل جمبك في أي حاجة هتحتاجيها.

تمتمتْ بصوتٍ امتزج مع صوت نحيبها المكتوم:

- مليش غير ربنا، الحمد لله، كلّ حاجة راحت خلاص.

بصعوبةٍ كبح جماح نفسه عن تلك الرغبة في أنْ يربُت على كتفها مُطمئنًا وهو يقول:

- ربنا مع الكل، متخافيش، أنا رايح أقعد دلوقتي من الرجالة، لو احتاجتي أي حاجة، أي حاجة، متفكريش، هتلاقيني جمبك، ومن بكرا الصبح بإذن الله، هبعتلك رباب تقعد معاكي اليومين دول عشان متبقيش لوحدك، أنا مقدر إنّ البيت هيبقى فاضي عليكي.

تطلّعت إليه بامتنانٍ قائلةً:

- لا ملوش لزوم يا سلامة، وبعدين سيب رباب، مش معقول بدل ما تروح تحضّر لنفسها فستان الفرح تفضل قاعدة جمبي بالإسود.

- متقوليش كدا بس يا أستاذة وفاء، اللي ملهاش خير في أهل خطيبها هيبقالها خير في مين؟ وأنتوا أهلي، دا إذا سمحتيلي إني أعتبر نفسي بعد كل العمر دا واحد منكوا.

مسّتْ كلماته مشاعرَ مؤلمةً بداخلها، فتنهّدت بألمٍ وعضّت على شفتيها وهي تغمض عينيْها للحظةٍ حبست فيها دموعها وهي تومئ برأسها أنْ نعم،


fb.com/groups/exchange.book

مُغمغِمةً:

- أكيد يا سلامة، أكيد بعد العِشرة دي كلها أنت واحد مننا طبعًا.

قالتها ثم صمتت متردِّدةً في إخراج سؤالٍ احتبس بين شفتيْها للحظةٍ، قبل أنْ تُفرِج عنه مستطردةً:

- بتشوف طارق؟

كان يهمُّ بالرحيل، ولكنّ سؤالها استوقفه فصمت لحظةً بدوره، بات واضحًا على ملامحه أنّه يسترجع فيها تفاصيلَ غيرَ راضٍ عنها، قبل أنْ يقول:

- للأسف لأ، آخر مرة شفته فيها يوم عزا الحاجّة الله يرحمها، بعد كدا حسيت إنّ وجودي معاه بقى تقيل على نفسه، فاحترمت نفسي ومكررتهاش، بس عمومًا أنا بطمّن عليه من بعيد لبعيد.

أطرقت رأسها بحزنٍ، وهي تُتَمتم:

- أصل يوسف وحشني أوي، متعرفش هو عايش معاه ازاي؟ مين بيأكّله؟ ومين بياخد باله منه؟ عشان خاطري يا سلامة، لو عايز تقدّملي خدمة بجد، حاول تتطمّن لي عليه، وعلى طارق كمان، أنا بجد محتجالهم أوي جمبي دلوقتي.

هزّ سلامة رأسه مُتفهِّمًا، وهو يقول:

- من عيني يا أستاذة وفاء، من عيني.

لم رحل وتركها تجترُّ مع نفسها بحرًا مِن الذكريات المؤلمة التي اجترَّت مِن بين مقلتيْها فيضًا آخر مِن الدموع. يا لها من حياةٍ! أولئك الذين تمنّيناهم قريبين، هم أكثر أهل الأرض بُعدًا وهجرًا لنا، طارق، ذلك الذي أحبَّته كما لم تحبّ أحدًا غيره، كيف آلت الأمور إلى ما هي عليه الآن، علامَ كلّ هذا البُعد؟ أين هو الآن؟ وأين يوسف؟ هل يتألّمان في مكانهما البعيد بألمها؟ هل يستشعران الحزن الكامن بين حشاها؟ الجميع مِن حولها يرحلون.

أضواء الصوان الذي بات خاليًا تُطفَأ، والبيت الخالي أمامها والمظلمٌ تتّجه نحوه بخطواتٍ تائهةٍ كسجينةٍ حُكِم عليها بالوحدة حتى آخر العمر، دلفت إليه وأغلقت الباب الكبير مِن خلفها ثمّ أشعلت الأنوار، وكأنّ جدران المكان حولها انحنت حزنًا على الماضي، صدى الأنين النابع مِن بين الشقوق يكاد يصمّ أذنيْها ويجثم بثقلٍ كئيبٍ فوق صدرها المتألّم الرقيق، نحو غرفة والدها تحرّكتْ، تتأمّل الفراش الذي كان يرقد عليه بحسرةٍ، مدّتْ يدها نحو خزانة الأدوية الصغيرة الموضوعة بجانبه، فتحتها ومدّتْ يدها في جزءٍ جانبيٍّ فيها لتُخرِج تلك الأوراق التي كتبها بخطّ يده، إنها وصيّته حيث أخبرها أين تجدها، فتحت الأوراق، ومِن بين الدموع المترقرقة مِن عينيها قرأت:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

أنا المدعو، عمران سليم الطلخاوي،

أكتب وصيتي تلك وأنا بكامل قواي الـ..


fb.com/groups/exchange.book

توقّفت عن استكمال القراءة، عندما نَدّت مِن خلفها تلك النهنهة المكتومة، فالتفتَتْ بذعرٍ نحو مصدر الصوت، وقلبها الضعيف يكاد من شدّة نبضاته يقفز مِن صدرها قائلةً بخوفٍ وعيناها تحاولان تمييز ذلك الشخص الواقف على عتبة الحجرة تحت الضوء الخافت:

- أنت مين؟ ودخلت هنا ازاي؟

لم يحرّك ذلك الواقف ساكنًا لدرجةٍ خُيّل لها معها أنها تعاني من هلوسةٍ بصريةٍ وسمعيةٍ ما، وهي تحاول التدقيق أكثر مع كمية كبيرةٍ مِن الأدرينالين سَرَتْ بين خلاياها قبل أنْ يتحرّك الجسد أمامها مقتربًا إلى داخل المكان، لتظهر ملامحه واضحةً بشكلٍ أكبر قائلاً بصوتٍ ميّزته أذنها قبل أنْ تدركه عيناها:

- البقية فحياتك يا وفاء.

تجمّدت الدموع في مقلتيْها، وانحبستْ أنفاسها للحظةٍ، تَمْتَمَتْ خلالها بصوتٍ مختنقٍ مِن أثر المفاجأة وهي تميّز ملامح ذلك الغريب المتسلّل متراجعةً بذهولٍ:

- طارق؟

قالتها ثم انهارت كلّ أجهزتها الحيوية دفعةً واحدةً، لتسقط فاقدةً الوعي أمامه، وبلا مقدماتٍ.

*****

# يونيو، ٢٠١٤ م

ارتسمتْ على وجهي ابتسامةٌ واسعةٌ، ساحبًا نفسًا عميقًا ملأت به صدري وأنا أهبط مِن داخل سيارتي في ذلك الشارع الضيّق الذي عُلّقت الزينة في كلّ أرجائه، وضجّ المكان بصوت الفرح والزغاريد المتداخلة، قبل أنْ يأتيني مِن خلفي صوت حسام الذي التقطني وسط الزحام وهو يقول:

- أيمن باشا؟ والله أنا قلت أنت مش جاي، وللا دي بروفة عشان فرحك اللي خلاص قرّب؟

التفتّتُ إليه وأنا أمدُّ يدي لمصافحته قائلاً:

- وأيه بس اللي ميجبنيش؟ دا واجب يا حسام؟

صافحني حسام وهو يومئ برأسه أنْ نعم، قبل أنْ يتأمّل وجهي وهو يقول بلهجةٍ مازحةٍ:

- لا بس الحمد لله، وشك رايق يا باشا، أنت جي النهاردة تقطع على العريس؟

تنفستُ الصعداء مرةً أخرى وأنا أبتسم قبولاً للمجاملة متمتمًا:

- يا عم الله يكرمك مش للدرجة دي، بس بيني وبينك يا حسام، الواحد باله راق بعد القضية دي ما خلصت، دا كان همّ وانزاح يا راجل.


fb.com/groups/exchange.book

غمغم حسام بدوره:

- معاك حق يا باشا، الواد طارق دا كان هيلففنا حوالين نفسنا، أنا كل ما أفكر ألاقي إنها فعلاً كانت معجزة إنه ييجي بنفسه ويعترف، بص، هيا جت من عند ربنا، الحمد لله.

هززتُ كتفي بلا معنًى متفقًا معه في جزءٍ مِن جملته، وأنا أعلّق:

- برضو الموضوع مكانش هيفضل كده للأبد، ويظهر إنه حسبها لقى إنّ اختصار الموضوع أفضل من الهروب اللي مهما طال برضو ليه آخر، أنا اللي محيّرني بس شوية تفاصيل كدا عقلي مش قادر يبلعها، بس هقول أيه؟ في الآخر الاعتراف سيد الأدلة.

ظهر في تلك اللحظة قاطعًا حديثنا، محمود المُخبِر صاحب الدعوة وهو يفتح ذراعيه عن آخرهما مقتربًا مني ببهجةٍ حقيقيةٍ قائلاً:

- يا أهلاً يا أهلاً يا أهلاً، بأيمن بيه، نورتني ونورت الفرح كله يا باشا، مجيتك دي لوحدها فرحة فوق الفرح يا باشا والله.

التفتُّ إليه مبتسمًا وأنا أغمغم:

- يا محمود متقولش كدا بس، حبيبي دا واجب، مش معقول تكلف نفسك وتبعتلي الدعوة مع الزملا وأنا ماجيش.

لوّح محمود برأسه وهو يفسح لنا مجالاً وسط الزحام للمرور، قائلاً:

أصلي يا باشا، دا احنا زارنا النبي والله، منور يا أيمن بيه.

ثم قطع بنا الطريق نحو مكان العروسين قائلاً وهو يلكز الفتاة ذات الفستان الأبيض في كتفها:

- قومي يابت يا رباب سلّمي على أيمن بيه، دا الكبير عندنا في القسم.

نهضت الفتاة مِن مجلسها بوجهٍ جميلٍ مختبئٍ باحترافيةٍ تحت أطنانٍ مِن ألوان الزينة التي لُطّخ بها وجهها، وهي تعدّل مِن طرحتها التي مالت فوق رأسها مُفسِحةً المجال لخصلةٍ مصبوغةٍ بلونٍ أصفرَ فاقعٍ أنْ تنسدل فوق عينها أزاحتها قبل أنْ تمدّ يدها نحوي لتصافحني بصمتٍ خجولٍ، فبادلتها إياها وأنا أقول:

- مبروك.

ثم التفتُّ نحو العريس الذي نهض بدوره لمُصافحتي، وهو يقول وابتسامةُ السعادة تملأ وجهه:

- الله يبارك فيك يا أيمن باشا، دا شرف كبير لينا إنّ حضرتك تشرفنا.

تعلّقت يدي في يده للحظةٍ، وضاقت حدقتاي وأنا أتطلّع إلى وجهه الذي بدا مألوفًا بالنسبة لي، قبل أنْ أهزّ رأسي له بابتسامةٍ اصطنعتُها على وجهي لأرحل بعدها مُتّجهًا نحو مقعدي الذي وفّره لي حسام بجواره.

الأضواء، الأغاني الشعبية، الزغاريد، والرقص الشعبي المجنون بحركاته


fb.com/groups/exchange.book

المفعمة بالهمجية واللامنطق، إضافةً إلى تلك الرائحة المميّزة للحشيش والبانجو، وبعض زجاجات البيرة المنتشرة هنا وهناك، إنّه الفرح الشعبيّ كما تذكره الكتب، سأخبركم سرًا، أنا مِن أولاء الذين يخجلون بشدةٍ في مثل تلك المواقف، يُخامرني فيها ذلك الشعور بأنّ جميع العيون ترصدني، كفأرٍ صغيرٍ متربصٍ في ركنٍ مِن أركان المنزل يُحيط به أصحاب البيت مُتوجّسين، أخبئ خجلي خلف قناعٍ مِن الرصانة والهدوء داخل حُلّتي الأنيقة مع بعض الابتسامات القصيرة التي أُلقيها بين الحين والآخر.

أُلقي نظرةً سريعةً إلى ساعتي لحساب الوقت المتبقّي على الرحيل، بينما يميل نحوي حسام وسط الصخب رافعًا صوته لأسمعه، وهو يقول:

- يلا يا أيمن بيه عقبالك، أنت خلاص قربت، هتعزمني في فرحك طبعًا؟

هززتُ رأسي أنْ نعم، قبل أنْ يستطرد:

- مكملناش كلامنا بقى يا باشا، كنت بتقوللي إنّ في حاجات في كلام الواد أنت مش مقتنع بيها.

أجبته بالنبرة المرتفعة نفسها، وأنا أميل نحوه بدوري:

- آه، كنت بقصد في اعترافه، هوا بيقول إنه ضربها بالسكينة في رقبتها، مع إنّ الجثة ماتت بضربة في القلب، دي أنا مفهمتهاش منه.

مطّ حسام شفتيه في لحظةِ صمتٍ، قبل أنْ يتمتم:

- مش عارف، بس عادي يا باشا، يمكن سقطت منه الحته دي، المهم إنه اعترف، وبعدين الأدلة بتقول إنه هو اللي عملها، ببساطة هو الوحيد اللي ليه مصلحة في الموضوع ده، راجل كان خسران كل حاجة حتى ورثه اللي كان في أيد جوز أمه، دا غير سلوكه اللي مش طبيعي معاهم وانعزاله عنهم، واللي وضح من خناقاته مع أبوها وإنه ياخد أخوه المريض غصب عن الكل ويعيّشه معاه، كل دا بيدلّ إنه مكانش بني آدم سوي، المهم بس سيبك وخلينا منتكلمش في الشغل دلوقتي، هيا مش كده كدة القضية اتحولت عالنيابة؟

أومأتُ برأسي وأنا أجيب:

- آه، المفروض هو بكرا العصر هيتحول على النيابة عشان ياخد بقى الحكم، مفتكرش إنه هيكون أقل من إعدام.

غمغم حسام مؤيدًا:

- أكيد، دا قتل مع سبق الإصرار.

ثم استطرد محاولاً تغيير دفة الموضوع:

- بس خدت بالك من حاجة في العرسان؟

تنبهّتُ وكأنما تذكّرت شيئًا ما، وأنا أنقل بصري نحو العريس الجالس بجوار عروسته مغمغمًا:


fb.com/groups/exchange.book

- آه صح، كنت عايز أقولك، مش عارف العريس دا أنا شفته فين قبل كدا، حاسس إني أعرفه، مشكلة إن الواحد مبيحفظش الأشكال دي مش حاجة لذيذة أبدًا، بسلّم على الراجل وأنا خايف يحرجني و يسألني إذا كنت فاكره وللا لأ.

تراجع حسام رافعًا حاجبيْه باستنكارٍ وهو يتطلّع نحوي قائلاً:

- أيه دا ياباشا؟ معقول للدرجة دي؟ مش عارف مين ده؟

تطلّعت نحوه بغير فَهْمٍ، وأنا أتمتم ببطءٍ:

- لأ، مش فاكر أصلاً اذا كنت قابلته قبل كده وللا لأ، أو مش عارف أحدد.

أطلق حسام ضحكةً قصيرةً مُتعجّبةً، وهو يقول مُوضّحًا:

- دا سلامة خير الدين، واحد مالليي كانوا شغالين في الورشة.

عقدتُ حاجبيّ مُحاولاً التذكُّر، بينما حسام يستطرد:

- يا أيمن بيه، دا من أول الناس اللي طلبناهم للشهادة هو وأم إحسان وغيرهم، طب أنا هفكرك أكتر، اللي خد أخو طارق من عندنا في القسم عشان يعيش معاه، ازاي ناسيه بس يا باشا؟ هو صحيح مفادناش بأي معلومة بس دا الموضوع مفاتش عليه كتير؟

بدأت الصورة تتضّح في عقلي شيئًا فشيئًا، وحسام يتابع:

- عمومًا مش دا اللي كنت قاصده، أنا قصدي العقد اللي لابساه العروسة،

مش بيفكرك بالرسمة اللي كان راسمها يوسف في الورقة إياها اللي حطيتهالك في الملف يوم الجريمة؟ القلب أبو فصّ أزرق في النص؟ دا شبه المرسوم بالضبط، زي ما يكون هو هو.

كان يقول عبارته ببساطةٍ تسلّلت بين تلافيف عقلي مُشعِلةً صفارات إنذارٍ، انطلقت كلّها دفعةً واحدةً بداخلي، توقّفت الأصوات كلّها مِن حولي، وكأنّما انعزلتُ فجأةً عن العالم المحيط، وانهمرت العديد مِن الصور والأحداث في رأسي؛

الرسمة!

العقد ده جابتهولي أمي الله يرحمها يوم جوازي، خديه يا وفاء البسيه ومتقلعيهوش من رقبتك لحد ما ربنا يوريكي نصيبك في يوم من الأيام!

نتشرف بدعوتكم لحفل قران كلٌّ من السيد / سلامة محمود خير الدين، وحرمه / رباب نصر الله السعدني!

محمود السعدني!

أنت بقالك أد ايه شغال هنا؟

من ٩ سنين تقريبًا!

اتقتلت، بس غريبة انك متبقاش عارف!

هناك خطأٌ ما، تحفّزت حواسّي كلها عند تلك النقطة، وانكمشت أصابعي


fb.com/groups/exchange.book

فوق كتف حسام وأنا أنهض كالمأخوذ دفعةً واحدةً مِن فوق مقعدي قائلاً:

- أنا لازم أرجع القسم حالاً، في حاجات في الملف عايز أراجعها.

نظر حسام نحوي بغير فَهْمٍ وهمّ بإلقاء سؤالٍ لم أُتِحْ له الفرصة لإلقائه وأنا أرحل عن المكان بخطواتٍ واسعةٍ متجهًا نحو سيارتي، التي دلفت إليها وأدرت مِقودَها في عَجَلةٍ قبل أنْ يستوقفني ذلك الصغير الذي دقّ على الزجاج المجاور لي محاولاً قول شيءٍ ما، ففتحت له الزجاج قائلاً بغير صبرٍ وأنا أتطلّع عبر المرآة إلى الطريق من خلفي استعدادًا للخروج:

- الله يسهلك يابني، امشي دلوقتي أنا معيش فكة ومش فاضي.

نظر الفتى نحوي بشيءٍ مِن احتقارٍ رافعًا ملفًا في يده ألقاه على قدمي داخل السيارة وهو يقول:

- في واحد قاللي أديلك الظرف ده.

قالها ثم انطلق مبتعدًا دون إضافةٍ، حاولت ايقافه دون جدوى، كانت سرعته أكبر من استيعابي،

أوقفت المحرك، مددتُ يدي ملتقطًا الملفّ القابع فوق قدميّ، كان ظرفًا مغلقًا بنيّ اللون، كُتِب عليه بخطٍّ أزرقَ واضحٍ رغم عتمة السيارة، «إلى الرائد أيمن دوير، هامّ جدًا».

فتحته بحذرٍ وأنا أضيء النور الداخليّ للسيارة، وأخرجت ما فيه من أوراق،

ما هذا؟ قصاصةٌ من جريدةٍ قديمةٍ مُصفرّةِ اللون، خبرٌ مكتوبٌ بتاريخ ١٩٩٠م:

«تمكّن رجال أمن قسم شرطة مركز أخميم بمحافظة سوهاج من العثور على جثتيْن ملقيتيْن في منطقة المخلفات بالمركز، وقد تمّ التعرّف على هويتهم، إحداهما لذكرٍ في الثلاثين من عمره يدعى السيد عبد العليم مرزوق، مزارع أعزب، والثانية للسيدة اعتماد مرتضى الصفتي، حرم المرحوم محمود نور الدين، وقد قام رجال البحث الجنائيّ برفع البصمات عن الجثتين، و الاستعانة بأطباء التشريح للتوصُّل إلى ملابسات الحادث ومعرفة الجاني...»

إلى هنا يبدو بقية الكلام غير واضحٍ مع الخطّ الباهت فوق القصاصة المُتهرئة المُصفرّة بفعل الزمن.

محمود نور الدين! سلامة محمود نور الدين!

أضاء الاسمان في عقلي بألفِ خطٍّ أحمرَ تحتهما، أعدتُ القصاصة إلى مكانها في داخل الظرف ملتقطًا الورقة الأخرى، عقد زواجٍ عرفيٍّ، التهمته عيناي بسرعةٍ قبل أنْ تتوقّف عند الاسميْن المكتوبيْن في أسفله:

«طرف أول السيد / طارق عبدالحميد زكريا»

«طرف ثان السيدة / وفاء عمران الطلخاوي»

وذلك التاريخ:


fb.com/groups/exchange.book

«الثلاثاء ١٨ ابريل ٢٠١٤»

إنّه يوم ارتكاب الجريمة! عقلي يكاد ينفجر مِن فرط الذهول وتتخبّط المعلومات والأسماء في رأسي كفيضِ أمواجٍ متلاطمةٍ.

الورقة الثالثة:

«توكيلٌ عامٌ شاملٌ مِن السيد عمران سليم الطلخاوي، إلى السيد طارق عبد الحميد زكريا، بالتصرُّف في كلّ أملاكه.»

رباه! هناك خطأٌ ما بكلّ تأكيدٍ، ينبغي أنْ أُوقف كلّ شيءٍ، هناك خطأٌ، دقّات قلبي المرتفعة بَدَتْ متناسبةً مع صوت أنفاسي المتلاحقة مِن فرط الانفعال، وأنا أدير مِقوَد السيارة منطلقًا نحو المكتب لمراجعة ملفّ القضية مرةً أخرى، وبمنتهى التفصيل، يبدو أنّ هناك حبلَ مشنقةٍ سيلتفُّ ظلمًا بشكلٍ ما حول رقبة بريءٍ،لابُدّ أنْ أُوقف ذلك، لابُدّ.

*****

- مش فاهم يا حسين؟ ازاي حالة توحُّد تبقى أغلب مواصفات المرض مش فيها؟ أنت بكلامك دا يا إمّا بتوصفلي شخص معندوش المرض أساسًا، يا إمّا بتتكلم عن متوحِّد مِن نوع نادر جدًا.

تمتم دكتور إبراهيم الخياط بالعبارة بحيرةٍ، وهو يرتشف ما تبقّى من كوبِ

العصير الخامس تقريبًا، الذي قُدّم له وهو يجلس في الحديقة الخاصّة بفيلا صديقه الدكتور حسين، الذي نفث دخان غليونه في الهواء مُوجّهًا نظره نحو قرص الشمس الذي انخفض بلونه الأحمر في الأفق وكأنما يستأذن مُودّعًا في لحظة المغيب، قبل أنْ يلتفت إلى إبراهيم ويتطلّع إليه لحظةً بصمتٍ مغمغمًا:

- بالضبط، يوسف كان حالة نادرة.

تساءل إبراهيم:

- فهّمني أكتر.

أجاب مُحاوِلاً تبسيط الأمر:

- هفهّمك. سيبني بس الأول أشرحلك بشكل مُبسّط حاجات أنت عارفها عن المرض منها هتفهم بالضبط اللي عايز أوصلهولك.

تمتم إبراهيم أنْ لا مشكلة، وصديقه يتابع:

- ربنا خلقنا كبني آدمين طبيعيين كلنا عندنا جهاز عصبي وحسّي بيتأثر بحسب المؤثرات الخارجية اللي حوالينا، بنبكي في الحزن، وبنضحك على النكتة، وبنخاف لو عدينا من شارع ضلمة في وقت متأخر بليل، وبنقلق لما حدّ غالي يتأخر علينا، كده يعني. كلّ ده بيحصل بشكل طبيعي معانا، لكن بالنسبة للمتوحد، بيبقى عنده مشكلة في الجزئية دي، بمعنى إنّ اللينك بين المؤثر الخارجي وردّ الفعل الحسّي بيبقى عنده فيه مشكلة، والمشكلة


fb.com/groups/exchange.book

دي بتبقى حسب طبيعة أو درجة حالته.

يعني مثلاً عندك حالات بتبقى منعزلة تمامًا عن الواقع ومؤثرات المحيط اللي حواليها، ودا تلاقيه كمثال برضو مش قادر يستوعب أو يتصرف بشكل طبيعي منطقي تحت المؤثرات المختلفة، اللينك مش موجود بشكل كامل، في العزا مش عارف يبكي، وفي الفرح مبيفهمش يعني أيه يفرح.

كان إبراهيم يهزُّ رأسه باهتمامٍ وتركيزٍ مُؤيِّدًا حديث صديقه، الذي استمرَّ في شرحه دون توقُّفٍ مُكمِلاً:

- وحالات تانية ودي الأكثر شيوعًا بيبقى اللينك موجود، بس حاصل فيه اضطراب فتلاقي تصرفاته غير ممنطقة بالنسبة للحدث، أو أوفر عن الطبيعي، يخاف من حاجات مش طبيعي إنها تخوف، زي الصوت العالي، أو الضحك، أو زحمة الشارع وممكن بالعكس يضحك في مواقف تستدعي الحزن، ودا برضو بيعمل فجوة كبيرة بينه وبين المجتمع اللي حواليه، طبعًا مع الاختلافات الكبيرة بين كلّ حالة ودرجاتها، المهم إنّ كل الحالات بتشترك في عدم القدرة على المشاركة بشكل طبيعي وسط المجتمع الطبيعي بتأثيراته، وفي الغالب صاحب المرض دا مبيلاقيش قدامه حل غير الانعزال عن اللي حواليه لأن اختلاف التعريفات والأحاسيس بينه وبينهم بيخليه يحس بالغربة وسطهم.

مهمتنا احنا بقى كدكاترة، إننا نعالج الانفصال بين الجزء الحسي والمؤثر

الخارجي في المريض سواء كان تام أو جزئي، ودا بيتم عن طريق الجلسات النفسية اللي بنعملها معاه واللي بنوصل خلالها لسبب المشكلة اللي وارد جدًا يكون متوارث أو مكتسب، أيًا كان.

أيّد إبراهيم تحليله وشرحه بإيماءاتٍ متكررةٍ مِن رأسه، وهو يُنصِت إلى صديقه الذي تابع:

- بالنسبة ليوسف بقى، فكان من النوع التاني، الانفصال بينه وبين المؤثر الخارجي مكانش تام، كان جزئي، ودرجة المرض عنده كانت درجة سهل جدًا معالجتها وحل عقدتها، خصوصًا إن زي ما فهّمتك اضطرابه مكانش كامل، بالإضافة إلى إنه كان عنده نسبة كبيرة من الذكاء المكتسب اللي ببساطة إحنا كمعالجين بنبقى محتاجين ننميه في المريض عشان نقدر من خلاله نوصله لمساحة اقتناع بوجوب التغيير وتصحيح مسار التفاعل الداخلي بينه و بين اللي حواليه.

عقد إبراهيم حاجبيه بحيرةٍ، قائلاً:

- يعني أنت عايز تقوللي إن الحالة كان ممكن تتعالج؟ أفهم من كده إن أنت فضّلت تخليه بمرضه؟ طب ليه؟

هزّ حسين رأسه نافيًا، وهو يقول:

- لا يا إبراهيم مش ده خالص اللي أنا أقصده، يوسف اتعالج فعلاً، لكن مش بسببي، يوسف ذكاؤه الفطري هو السبب الأكبر اللي ساعده بمرور


fb.com/groups/exchange.book

الوقت على حل الاضطراب التفاعلي ده بينه وبين نفسه، المشكلة والمرض مكانوش في يوسف، أنت ممكن تعتبر إنّ يوسف أصلاً جالي وهو بنسبة ٪ ٩٠ سليم، المشكلة كانت فيا أنا، أنا اللي لعبت على نسبة ال٪ ١٠ اضطراب اللي باقيين جواه، على أساس فكرة غريبة اتزرعت في مخي ساعتها وحسيت إنّ فيها خلاصي من كلّ الهموم اللي جوايا.

ارتسمت في عين إبراهيم علامة استفهامٍ كبيرةٍ، قرأها حسين ببساطةٍ وهو يكمل:

- تخيّل لو قدرنا في يوم نتحكم جوانا في درجة من درجات تأثرنا بحاجات حسية معينة زي الشجن النابع من الذكريات مثلاً أو الخوف من المستقبل، ممكن نحلّ مشاكل نفسية بتواجهنا قد أيه؟ يعني أنت مثلاً، لو قدرت بطريقة معينة توصل لإنك تلغي شعورك السلبي بالتقصير ناحيتي في حالتي دي، كان هيوفّر عليك قد أيه أيام قعدت فيها مع نفسك حاسس بالعجز والندم؟

بلاش أنت! أنا، لو قدرت بنفس الطريقة ألغي مشاعر الحب جوايا ناحية هيلين، دا كان هيوفّر عليا قد أيه شجن ووجع واكتئاب قاتل وصلني للكرسي اللي أنا قاعد عليه ده؟ يوسف بالنسبالي مكانش مريض، على قد ما كان فار التجارب اللي بدأت عليه شغلي، هو كان بيتصلح بشكل تلقائي طبيعي، وأنا كنت بشتغل معاه بدون علم منه اعتمادًا على خبرتي وعلمي على وأد بعض المشاعر الطبيعية جواه، أنا مش بحكيلك دلوقتي عشان تقولي إذا كان اللي عملته دا صح وللا غلط، أنا بحكيلك عشان تشيل معايا جزء من

السر التقيل اللي شايله جوايا.

أنا مع كنت عايز ألقى لنفسي أي أمل أهرب بيه من حزني، ومكنتش شايف قدامي غير الطريق ده والشخص ده، اللي الصدفة بس ساعتها حطته قدامي أنا حاولت أعمل من يوسف آلة قادرة تتعامل مع الناس، عنده نسبة ذكاء عالية بشكل طبيعي ساعدتني أكتر ما ساعدته هو نفسه في حالته، وفي نفس الوقت، أقوى من التأثر بكل المؤثرات اللي حواليه، لغيت عنده حته الشعور بالخوف، أو الندم، الشجن والحزن الناتج عن الذكرى أو الماضي قدرت أخليهم مش موجودين عنده، أو ضيقت الحيز اللي جواه عليهم.

أنا نجحت علميًا مع الولد ده، بغض النظر عن المنطق الإنساني اللي واضح إنك عايز تكلمني عليه، بس زي ما قلتلك أنا مبحكيش دلوقتي عشان آخد النصيحة، لأن دا فات أوانه خلاص، بس أنت اللي سألتني أنا ليه اتأخرت على نفسي في الأول، اتأخرت لأني عملت زي ما بتعمل الضفادع في معامل التجارب، لمّا تجيب واحدة وتحطها في حلة مولع من تحتها النار، بتفضل تحاول تأقلم درجة حرارة جسمها مع حرارة الحلة، وفلحظة ما السخونة بتعلى للحد اللي جسمها ميقدرش يتأقلم معاه، بتكتشف إنها فقدت كل طاقتها في محاولات التأقلم والتكيف دي، ومبتقدرش حتى تنط بعيد عن النار، فبتموت.

أنا برضو بعد ما نجحت مع يوسف وصنعت من خلاله الإنسان الكامل من وجهة نظري اللي بقولك عليه، اكتشفت إن من الصعب أوي أقدر أقنع نفسي


fb.com/groups/exchange.book

باللي أقنعته بيه، يوسف الميزة الأكبر فيه كانت إنه تربة بكر خصبة تقدر ترمي أي بذرة فيها، وتجني الطرح، لكن اللي زيي وزيك، اللي بيسموهم طبيعيين، تربتنا معادتش تنفع، مشاعرنا اتبلّدت على الوجع، والماضي غرس فروعه فينا للآخر، لحد ما بقى مستحيل نقدر نخلعه من جوانا مهما حاولنا.

فهمتني يا إبراهيم؟

مستحيل!

*****

إنّ الموتى يدركون حقائق لم يدركها هؤلاء الذين صمّوا أُذُنَ الدنيا صخبًا وضجيجًا، ذلك لأنهم صمتوا، شحذوا الحواسّ لإدراك ما بعد حدود الموجود، ربّما كان الفارق بيني وبينكم، هو أنني أدركت تلك الحقيقة، تتحدّثون كثيرًا عن حياةٍ تمضون عمركم كلّه في محاولة إدراك كيفية الاستمتاع بها، بينما في صمتي أنا أفعل، أصواتكم المتشابكة المختلفة كنشازٍ صاخبٍ اختلط بها الكذب مع الصدق، والخيانة مع الوفاء، واندمجت فيها كلّ المشاعر المتناقضة بنبراتٍ مِن الأمل اليائس وأقوال الشجاعة المرتعشة، التي حَجَبَتْ بخوفها عنكم ذلك اللحن الراقي للكون، وموسيقى المشاعر الفطرية المنبعثة مِن أنفاسنا وأنفاس كلّ ما ومَن يحيط بنا.

أنا الساكن الحيّ، وسط أمواتٍ يعجُّون بالحركة، أرى في العتمة حولي سوادَ

قلوبكم الذي لا ترونه، وأدرك كلماتكم التي لم تُفصِحوا بعد عنها، أنا الخالي من كلّ مشاعركم السلبية، أنا الإجابة لكلّ علامات الاستفهام المتشابكة في رؤوسكم تحجب عنكم رؤية الحقيقة.

يومًا ما ستدركون كلّ شيء، فقط حين تُجبِركم أطنان التراب في أفواهكم على الصمت، وتتفتّح عيونكم على ظلمةٍ لا يَجْسُر الضوء على اختراق حرمها، أنا أول الواصلين إلى قمة الحقيقة، ينظر إليكم في الأسفل، وينتظر.

*****

## القاهرة، الثلاثاء ١٨ ابريل ٢٠١٤ م

- بتضحك على أيه؟

وجّهت وفاء، ابنة الحاج عمران، الفتاة متناسقة القوام رغم اقترابها مِن العقد الرابع عمرًا، سؤالها لذلك الراقد إلى جوارها يبتسم، طارق، ذلك الحلم الطويل المُرهِق، الذي ضحّت في انتظاره بالكثير، بصوتٍ بدا فيه الإجهاد واضحًا مع صوت أنفاسهما التي بَدَتْ كلحنٍ رتيبٍ في المكان وهي تستند برأسها فوق كتفه تاركةً بعض خصلاتٍ مِن شعرها لتلتصق على وجهه الذي لم تفارقه ابتسامته بعد ... كانت تتأمل وجهه، بعد أنْ ألقت سؤالها اعتمادًا


fb.com/groups/exchange.book

على خيوط ضوءٍ ضعيفةٍ تسلّلت على استحياءٍ عبر فجواتٍ ضيقةٍ في النافذة الخشبيّة المُغلقة إلى داخل الحجرة المعتمة.

ألقت السؤال دون انتظار إجابةٍ، كان يكفيها الشعور، لقد أتى في أشدّ لحظات احتياجها إليه، أتى بعد أنْ أرهقتهما الأيام، مُحتفظًا بذلك الحيّز الخاصّ لها في قلبه، ليعرض عليها ما تمنّته، ودون تفكيرٍ، كالغارقة في حلمٍ لا تتمنّى أبدًا الاستيقاظ منه، تمّ كلُّ شيءٍ في مكتب ذلك المأذون الشرعيّ القريب مِن المنطقة بشهادة وإمضاء كلٍّ مِن يوسف وسلامة الحاضريْن، عقد زواجٍ عرفيٍّ سريعٍ باختيار وموافقة كلّ الأطراف.

لم يكن الأمر متعلقًا بفرحٍ وفستانٍ وزفّةٍ بقدر ما تعلّق وبشدةٍ بألّا يضيّعا لحظةً أخرى دون أنْ يكونا فيها سويًا، كان احتفالاً قصيرًا بسيطًا ببعض كئوسٍ مِن الشربات في منزله الجديد الذي انتقلت إليه معه لتعود مرةً أخرى قريبةً منه ومِن يوسف، سؤالها كان فقط كنوعٍ مِن التسلية لكسر حاجز الصمت المسيطر بينهما.

فاصلٌ قصيرٌ وسط موسيقى التنهيدات الحارة والأنفاس المتلاحقة، وما الفارق؟ بل وما جدوى الحديث؟ هما الآن معًا، فليكن ثالثهما الصمت، لا شيء يهمّ، التنهيدات تستمرّ، والعرق الغزير على الأجساد يتزايد، صوت الأزيز الصادر مِن اهتزاز الفراش أسفلهما يتهادى بين العلوّ والخفوت، تمامًا كصوت أنفاسهما المنبعثة مِن صدريهما المتحركيْن صعودًا وهبوطًا، ثم تدريجيًا تهدأ الأنفاس، لحظاتٌ أخرى، قبل أنْ تنهض مِن رقدتها ملتقطةً

عباءتها الملقاة أرضًا إلى جوار

الفراش لترتديها وهي تقول:

- تصدق بالله؟ والله منا فاهمالك، مش عارفة يا أخي أنت أيه بالضبط؟ ملاك وللا شيطان؟ عايش في ملكوت لوحدك، لا بتتكلم ولا باين انتا عايز أيه أصلاً. عارف؟ أنا لحد دلوقتي مش مصدقة، وخايفة يطلع كل اللي أنا فيه دا حلم وهفوق منه، ساعات بشكّ فيك، ساعات أصلاً بشك أنا نفسي في حقيقة إحساسي ناحيتك، بس الأكيد، إني دلوقتي وأنا جمبك، أسعد إنسانة في الوجود.

أنهتْ عبارتها وهي تعدّل الجزء الأخير مِن ملابسها، وعيناها المعجبتان تكادان تلتهمان وجهه المبتسم، قبل أنْ تستطرد متبادلةً معه نفس الابتسامة:

- لسه بتضحك برضو؟

قالتها ثم مالت فوق السرير لتطبع قُبلةً أخيرةً فوق جبينه، مستطردةً همسًا في أذنه:

- هتوحشني.

ثم انصرفت إلى الخارج لتحضير العشاء بعد أنْ تأكّدت مِن إغلاق الباب خلفها بإحكام، لتتركه في الداخل مع الوحدة، معشوقته الأبدية دونها، كان هو الآخر يحيا حلمًا طالما حُرِم مِنه في أعوام مرّت عليه عجافًا، ربما بسبب اليأس، ربما بسبب الخوف، وربما هو مرض النفوس، لا يعنيه كلُّ هذا الهراء،


fb.com/groups/exchange.book

فلْتذهبْ كلّ تلك المسميات والمصطلحات إلى الجحيم.

علّمته الدنيا وما مرّ به في سنوات عمره البائد أنّ كثيرًا مِن المشاعر والأحاسيس، قد لا يمكننا التعبير عنها بالكلمات، وأنّ الكثير مِن المعاني حين نسبر أغوارنا بحثًا عن تعريفٍ لها، نفقد أصل الشعور، ليضيع مع حفنة أعوامٍ مِن العمر سدًى، ودون جدوى، علّمته الدنيا بعد عناءٍ، أنّ السعادة لا تمتزج أبدًا مع التعقيد، وأنّ بساطة الأشياء هي ما يدفعنا بسهولةٍ نحو الفرحة التي لم نكن لندرك دون التجربة أنّها تقبع ها هنا قريبةً تنتظر، هما الآن معًا، وهذا فقط بعد كلّ العمر الفائت يكفيه.

- متهيأ لي إنتي معدتيش محتاجة العقد ده أكتر من كده.

خرجت تلك العبارة ثقيلةً مهتزّةً مِن بين شفتيْ يوسف الواقف خلفها في المطبخ، وهي تمدُّ يدها ممسكةً بلفةٍ مِن الكباب أحضرها طارق كانت تحتاج إلى تسخينٍ، فالتفتت له بها وهي تجيب:

- أنا مفتكرش إني هبقى محتاجة أيّ حاجة تانية بعد ما بقيت وسطكوا النهاردة.

اقترب منها، كانت عيناه تحمل نظرةً مفعمةً بمشاعرَ مختلفةٍ لم تعهدها أبدًا فيه، مدَّ يده نحو رقبتها خالعًا عنها العقد وهو يتمتم:

- مبسوطة يا وفاء؟

ابتسمت ابتسامةً عبّرت بوضوحٍ عمّا يعتمل في قلبها من ارتياحٍ وفرحةٍ، قائلةً:

- مبسوطة دي كلمة قليلة، كان نفسي بس يكون أبويا معايا في لحظة زي دي، ويمكن كان نفسي يكون فرح كبير وزفة وناس وزيطة ودنيا، بس الأكيد، إني برغم كل ده، حاسة إني اتعوضت عن حاجات كتير أوي زمان خسرتها، وده محسسني إني دلوقتي أكتر بني آدمة مبسوطة وراضية في الوجود.

هيّئ لها أنها لمحت في عينيه المتفحّصة الجامدة، دموعًا محتبسةً أضفت إلى صوته نبرة حزنٍ لم تفسّرها وهو يقول:

- مبروك يا وفاء.

سألته باهتمامٍ وهي تمدُّ يدها الخالية ماسحةً تلك الدموع المتجمّعة على مقلتيه:

- مالك يا يوسف؟ أنا أول مرة أشوف فعنيك اللمعة دي، أنت بتعيط؟

ترك أصابع كفّها الرقيق سارحةً فوق وجنته، وهو يجيب ببطءٍ وبلهجته المتقطّعة التي اعتادتها:

- أنا آسف يا وفاء، أنا معرفش إذا كان دا في حكمكم صح وللا غلط، بس عايزك بجد تعرفي إنك غلطة وحيدة فحياتي كان لازم أقدر من زمان


fb.com/groups/exchange.book

أصلحها.

قطع عبارته وهو يقترب نحو أذنها هامسًا:

- يوسف، بيحب، وفاء.

اتّسعت عيناها بذهولٍ وأذنها تلتقط الكلمات الهامسة مُستشعرةً نصل ذلك السكين البارد الذي انغرس في صدرها، واختنقت الكلمات فوق شفتيْها وهي تتمتم بدهشةٍ وبصوتٍ متحشرجٍ غير مصدِّقةٍ تلك الدماء التي انبثقت مِن موضع الطعنة:

- ليه؟

قالتها وهي تتطلّع إلى وجهه للحظاتٍ، قبل أنْ تسقُط مرتطمةً بالأرض بقوةٍ فوق بقعةٍ كبيرةٍ مِن الدماء دون حراكٍ، في اللحظة التي دلف فيها طارق إلى المكان. كان المشهد أكبر مِن أنْ تصفه أبشع كوابيسه، وفاء مُمددةً على الأرض أسفل قدميْ شقيقه الذي أطلق لدموعه العنان ممسكًا بالسكين في يده، بعقلٍ مشتّتٍ، وبقلبٍ ملتاعٍ كسيرٍ، انتقلت إليه كلّ دموع عينيْه المتحجرتيْن مِن أثر الصدمة، اقترب مِن أخيه، ومدّ يده ملتقطًا السكين العالق بين أصابعه وهو

يكرر سؤال وفاء:

- ليه؟ ليه كده؟

لم يُحرْ الجواب ولم ينتظره، لقد انتهى كلّ شيءٍ، قاسيةٌ تلك اللحظات التي ينكسر فيها حلمك كله أمام عينيك، مؤلمةٌ تلك السعادة التي أتتك زائرةً لوهلةٍ ثم رحلت، لقد انتهى كلُّ شيءٍ، لا تسلْ عن الأسباب، فالأمور كلّها سيّان، لقد انتهى كلّ شيءٍ.

دار على عقبيه وانطلق مبتعدًا، سيبتعد بأقصى ما استطاع من قوةٍ، لقد انتهى كلّ شيءٍ، سيعدو رغم اللهاث وهو يدرك في أقصى مكانٍ يصل إليه، أنّ سحابةً سوداءَ كئيبةً من القهر واليأس والحزن ستبقى مظلّلةً عليه تكتنفه مهما حاول تبديدها، لقد انتهى كلّ شيءٍ.

*****

- أستاذ، أستاذ، في مشكلة في الحنفية حضرتك؟

نطق أحد عاملي الخدمة في الفندق بتلك الجملة، موجهًا حديثه إليّ، وأنا لازلت أقف داخل ذلك الحمّام أمام صنبور المياه المفتوح، بعد انتهاء يوسف مِن الحديث معي ورحيله، فالتفتُّ له شارد الذهن مشتّت الوعي، متطلعًا إليه لوهلةٍ بشرودٍ كاد ينسيني وجوده مِن الأساس لولا أنْ كرّر هو جملته مرةً أخرى بصوتٍ أعلى قائلاً:

- بقول لحضرتك في مشكلة في الحنفية؟

انتزعني هذا التكرار مِن شرودي، فتراجعتُ خطوةً للوراء أمام تلك المياه


fb.com/groups/exchange.book

المنهمرة، دون توقُّفٍ مِن حوافّ الحوض الذي امتلأ عن آخره أمامي، وأنا أمدُّ يدي على عجلٍ لأغلق الصنبور المفتوح قائلاً:

- لا لا مفيش حاجة، يظهر إني سرحت بس.

تمتم الرجل بتهذيبٍ:

- حضرتك ناسيها مفتوحة وواقف عالحوض بقالك ربع ساعة يا فندم.

ابتسمتُ له بارتباكٍ، قائلاً:

- معلش، أنا آسف.

ابتسم الرجل بدوره وبنفس الطريقة المهذبة، سأل:

- طبيعي يا فندم، هوا مش حضرتك برضو عريس الفرح اللي شغال برة ده؟

أومأتُ برأسي أنْ نعم، مندهشًا أنا نفسي وكأنّما أستفيق مِن غيبوبةٍ عزلتني عن الواقع، فهزَّ رأسه بتودُّدٍ قائلاً:

- ربنا يتمملك بخير يا باشا، ويحفظكوا لبعض وكل سنة وأنت طيب.

وقفتُ كبومةٍ متّسعةِ العينيْن لا ترى فيْ ضوء النهار، أتطلّع إليه للحظاتٍ، تردّدَ فيهم أمام نظرتي قبل أنْ يهمَّ بالرحيل قائلاً:

- طب تأمرني بأي حاجة يا فندم؟

انتزعني مرةً أخرى مِن شرودي، فهززتُ رأسي أنْ لا، مغمغمًا:

- شكرًا.

ثم التفتُّ نحو المرآة، متصنِّعًا هندمة ملابسي، وعقلي يغوص في بئره العميق مرتطمًا بأمواجٍ متلاطمةٍ مِن الأفكار، مسترجعًا الدقائق الماضية، وتلك الكلمات التي تركها لي الفتى قبل أنْ يرحل.

«مشكلة اللي زيك يا أيمن بيه انكوا بتنفذوا القانون من غير ما تهتموا إذا كان بيحقق العدالة وللا لأ، متستغربش ولا تسأل نفسك أنا ليه دلوقتي مش خايف وأنا جي بنفسي بعترفلك بكل اللي حصل، بس أنا عارف كويس أوي ومتأكد إنك مش هتعمل حاجة، غير إني بعرف كويس أوي أقرى اللي قدامي، بس أنا مظلمتش حد، كل واحد فيهم هو اللي اختار لنفسه قدره من زمان، الحكاية بس إني رتبتلهم الوسيلة، بصّ حواليك كويس وأنت هتلاقي كلامي صح، وفاء ماتت وهيّا محقّقة حلم طول عمرها بتحلم بيه، سلامة اتعاقب على جريمة قتل عملها فعلاً، الظروف بس هيّا اللي خلّتها تتأخر، ولعملك هو نفسه مقتنع بكده، بدليل إنه محاولش حتى يدافع عن نفسه، خلاصه من وجع الضمير اللي كان على طول مصاحبه كان أكبر هدية ليه أنا قدمتهاله. وسعدني، رفده من الشغل ووقفه عن العمل مفتكرش إن دا فيه ظلم لحد، الراجل كان بيقضيها مصالح مع المتهم اللي كان مفروض إنه بيراقبه، وأنت نفسك عارف الباقي، إذا كان شبارة وللا الرائد شريف، كله خد عقابه.

حتى أخويا طارق، من بكرا يقدر ينزل بنفسه يفتح باب الورشة اللي خلته


fb.com/groups/exchange.book

يبيع الناس كلها عشانها، هو آه مش هيحس بقيمتها، بس في اعتقادي إنْ دا تمن كافي للوجع اللي سابه في قلب أمي قبل ما تموت، أنا نفذت دور القدر يا أستاذ أيمن، أنا اللي خرمت السفينة عشان الملك مياخدهاش من أصحابها غصب، أنا اللي بنيت الحيطة فوق صندوق الدهب لحد ما أصحابه يطلعوه، وأنا اللي قتلت الابن العاق، عشان الطيب يتولد، أنا يوسف يا أيمن بيه، يوسف اللي يكفيه عقاب إنه مبيفرحش، لأن عمره أصلاً ما عرف ازاي يحزن.

أخذتْ كلماته تتردّدُ في عقلي وأنا أعود خارجًا مرةً أخرى إلى الفرح وسط نظرات الجميع المترقّبة التي لم تَعُدْ بأيّ حالٍ مِن الأحوال تعنيني.

اتّخذت مكاني في الكوشة مرةً أخرى إلى جوار عروسي التي لوت شفتيها في شيءٍ من الحنق وهي تغمغم بضيقٍ، حاولت ألّا تبديه خلف ابتسامةٍ واسعةٍ رسمتها للجميع:

- أيه يا أستاذ أيمن؟ كل ده في الحمّام؟ وأيه اللي غرّق هدومك كده؟ واضح إنك هتنام أول ليلة جواز لوحدك في الصالة عقابًا ليك.

التفتُّ إليها مبتسمًا مع ذكر أمر العقاب، وأنا أتمتم:

- مفيش مشكلة.

قبل أنْ أتأمل الوجوه مِن حولي بشرودٍ، إنّها العدالة، تلك التي لم نتفهم جيدًا معناها، لقد انتهت القضية، وأُغلِق ملفُها تمامًا، لم تَعُدْ هناك جدوى

مِن إعادة فتحها، لقد رحل الجميع كلٌ حيث ما قُدّر له، هذا اعتقادي....
ربما في الغد سيكون لي رأيٌ آخر، ولكنْ هذه أيضًا، قصةٌ أخرى.

*****


fb.com/groups/exchange.book

وإنْ جُم قالولِك إنه مش باين عليه أثر الفراق.....
ماتصدقيش

تمت بحمد الله

القاهرة، ٢٠١٤

fb.com/groups/exchange.book

# المؤلف في سطور:

كاتب مصري ومصمم جرافيك.

- ولد عام ١٩٨٤م في الرياض بالمملكة العربية السعودية.

- درس بكلية الآداب قسم اللغة العبرية.

- دفعه اهتمامه بالرسم للالتحاق بدبلومات مختلفة للدعاية والإعلان

- يعمل بوظيفة أخصائي إعلامي بأحد الجهات الإعلامية

- له تجارب سابقة في المجال الأدبي حيث كتب بعض القصص القصيرة تم ترجمتها الى الألمانية ونشرت عبر مجلة لي _لاك التابعة لمعهد جوتة .

- أمضى فترة في دراسة كتابة السيناريو والحوار بمؤسسة صوت القاهرة للصوتيات و المرئيات في الفترة ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨ م

- عمل عام ٢٠٠٦م كمخرج فني لإحدى المجلات الدعائية ونشرت له على صفحاتها مجموعة حلقات بوليسية شهرية مسلسلة.

- حصل على جائزة الدكتور نبيل فاروق في مجال القصة القصيرة من خلال مسابقة ((اتحدى موهبتك)) التابعة لموقع روايتي الإلكتروني عام ٢٠٠٥م


fb.com/groups/exchange.book

ودون مقدمات منمقة ..
أعترف بأني أحد هؤلاء الذين حملوا الحياة من التهم مايكفي ..
قضيت العمر في عشقي لدور ضحية غرقت بين براثن الأيام ..
أنهكني صراعي الوهمي الدائم الذي صنعته بيني وبين كل مايحيط بي .. وعزلتني تلك العيون المترقبة السابرة لأغواري ..
والآن أدركت الحقيقة ..
لم يكن لتلك العيون وجود .. ولم تمل علي الحياة من المشاهد سوى ما رغبت حقاً أن أراه ..
أنا الملام الأول في بادئ العشق وآخره ..
أنا كل تلك العيون المتربصة ..
أنا من خاض كل صراعاته بنجاح ساحق جعل منه الخاسر الأوحد ..
لقد انتهى كل شيء ..
هذا اعترافي وبمنتهى الصدق سأخبركم ..
أنه لم يكن لي من الأعداء حقيقة سوى نفسي ..

أنا ...

# أوتيزم

A . U . T . I . S . M

9 789777 790031